مدخل
لتاريخ الصحافة الإسلامية

تأليف

الدكتور شعيب عبد المنعم الغباشي





مدخل
لتاريخ الصحافة الإسلامية

مدخل
لتاريخ الصحافة الإسلامية

تأليف
الدكتور شعبان عبد المنعم الغباشي
قسم الصحافة والإعلام - كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر - القاهرة

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

الناشر
عالم الكتب
القاهرة

خل

" ريخ الصحا " ا سلا "

الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨

الناشر: عالم الكتب
٣٨ ش عبد الخالق ثروت
ت: ٣٩٢٦٤٠١ ـ ٣٩٢٤٦٢٦

رقم الإيداع ١٤٩٩١ / ٩٧
الترقيم الدولي
I.S.B.N. 977-232-119-X

قبس من القرآن الكريم

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ
وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي
الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا
يَحْذَرُونَ (٦) ﴾ القصص أية ٥ـ٦

«صدق الله العظيم»

إهداء

إلى الذين واصلناهم .. فلم يصلوا ..!

وأحسنا إليهم .. ولم يحسنوا..!

وحلمنا عنهم .. ولم يحلموا..!

وإلى الذين أعطيناهم أعـز ما عنــدنا..!

وأردنا لهم الخير فى الأولى والآخرة..

لعلهم يثوبون إلى رشدهم..

ويعودون إلى صوابهم..

و يعترفون بالخطأ ويندمون عليه..

وذلك قبل فوات الأوان!!

إلى هؤلاء وهؤلاء أهدى هذا الكتاب.

د. شعيب الغباشي

فهرس الكتاب

الموضوع ص

الموضوع	الصفحة



إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل، فلن تجد له وليا مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، بيده الخلق والرزق وبيده الحياة والموت، أمره - سبحانه - بين الكاف والنون، إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه من خلقه وخليله، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الله به الغمة وجاهد فى سبيل الله حتى أتاه اليقين.

وبعد.

فإن الصحافة كائن حى، لها ساعة ميلاد ولها ساعة وفاة وما بين الميلاد والوفاة تمر الصحافة بمراحل وتطورات هى أشبه بمراحل نمو الإنسان، ومعروف أن الإنسان إبن بيئته، وكذلك فإن الصحافة بنت بيئتها، تتأثر بها، وتنبثق منها وتعبر عنها، ومن هنا كان من اللازم كى نتعرف على الصحافة الإسلامية وعلى تاريخها وأصولها ومعالمها وملامحها، أن نقف على البيئة التى ظهرت فيها تلك الصحافة ونمت وازدهرت عليها، فلا شك أن معرفتنا بالواقع والمناخ الذى ظهرت فيه الصحافة الإسلامية، سيساعدنا كثيرا، على التعمق فى الوقوف على الدوافع والأسباب التى أدت إلى ظهور تلك الصحف..

وهذه الدراسة تتناول هذا الواقع الذى ظهرت فيه الصحافة الإسلامية فى مصر سواء أكان واقعا سياسيا أو ثقافيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا، ومن هنا فإن، معرفة هذا الواقع لابد منه، لمن يريد أن يدرس تاريخ الصحافة الإسلامية ومن ثم، جاء هذا الكتاب، كمدخل، تاريخى، نقدم - من خلاله - للقراء والمثقفين معاً، عرضا وتعريفا بأحداث ووقائع هذه البيئة وتلك الظروف، التى ظهرت فيها الصحافة الإسلامية.

ولما كانت الأحداث والظروف السياسية هى الغالبة والظاهرة، على سواها، أفردنا لها، عددا أوفر من الصفحات وقدراً أكبر من الاهتمام، فجاء الفصل الأول من هذه

الدراسة بعنوان: «**الواقع السياسى الذى ظهرت فيه الصحافة الإسلامية**» ويتناول عوامل سقوط الحضارة الإسلامية وبداية الاحتلال الانجليزى لمصر ورموز الحركة الوطنية وجريمة تقسيم العالم الإسلامى، تركة «الرجل المريض» ثم بعد ذلك، يأتى الحديث عن اندلاع ثورة ١٩١٩، ودورها فى تنمية الوعى السياسى، لدى الجماهير وكذلك تحدثنا عن دستور ١٩٢٣ وموقف الحركة الوطنية منه وكذلك موقف القصر من الدستور وعن إلغاء الخلافة الإسلامية فى تركيا ١٩٢٤ وجاء الحديث بعد ذلك عن دستور ١٩٣٠ ثم محاولة إعادة دستور ١٩٢٣ ومعاهدة ١٩٣٦ ثم الصراع بين الملك فاروق وحزب الوفد وموقف مصر من الحرب العالمية الثانية وأزمة ٤ فبراير ١٩٤٢ الشهيرة ثم إقالة وزارة الوفد التى جاءت إثر هذه الأزمة ثم تحدثنا عن الغليان الشعبى ضد الاحتلال ثم المراحل التى مرت بها المفاوضات مع الانجليز وارهاصات ثورة ١٩٥٢ وحريق القاهرة وسمات مرحلة ما قبل الثورة ثم الحديث عن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وبداية عهد جديد من الصراع السياسى بين رجال الثورة والإخوان المسلمين.

ويأتى الفصل الثانى بعنوان: « **الواقع الثقافى الذى ظهرت فيه الصحافة الإسلامية**» فيتناول مواقع التأثير الثقافى للاحتلال البريطانى فى مصر ومحاولة مقاومة هذا الغزو الخطر وبداية ظهور التيار التغريبى فى مصر ومحاولة طمس هوية الأمة الثقافية والفكرية وتصدى التيار الفكرى الإسلامى لهذه التيارات الوافدة. ودور مجلة العروة الوثقى فى التصدى للفكر التغريبى وتأتى مجلة المنار على طريقة العروة الوثقى ويتناول هذا الفصل أيضا دور صحيفة المقطم التدميرى. وحركة التأليف فى موجة التغريب ورد الفعل الاسلامى عليها ثم بيان موقف حركة الإخوان المسلمين من التيارات المختلفة - القومى - المصرى - الاشتراكى..

ويأتى الفصل الثالث بعنوان: «الواقع الاجتماعى الذى ظهرت فيه الصحافة الإسلامية» فيتناول القيم والعادات والتقاليد الوافدة التى ظهرت فى المجتمع الإسلامى ثم صور من البلاء الاجتماعى الذى حلّ بالمجتمع المصرى وأخطر الآفات الاجتماعية - البغاء - القمار - الخمر - الربا فى هذا المجتمع ثم يأتى الحديث بعد ذلك عن الفئات

التى تشكل منظومة المجتمع المصرى خلال هذه الفترة فى ظل الاحتلال الانجليزى ثم يأتى بعد ذلك الحديث عن قضية تحرير المرأة وموقف الصحافة منها وموقف التيار التغريبى من هذه القضية ورد الفعل الإسلامى على ذلك والمتمثل فى ظهور حركة الإخوان المسلمين.

ويأتى الفصل الرابع والأخير بعنوان: « الواقع الاقتصادى الذى ظهرت فيه ا فة الإسلامية». ويتناول مظاهر الاحتلال الاقتصادى والثمار الاقتصادية فى ظل الاحتلال وكذلك الصناعة المصرية حينئذ وثورة ١٩١٩ ودورها فى تنشيط الحالة الاقتصادية وبعد ذلك يأتى الحديث عن تأزم الوضع الاقتصادى المصرى ورد الفعل الإسلامى عليه.

وبعد فإن هذا العمل أعتبره جهد المقل، فإن كان صائبا، نافعا، فمن الله عز وجل وإن كانت الأخرى - وأعوذ بالله أن تكون - فمنى والشيطان وأسأل الله تعالى، العفو والمغفرة وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو الله ومغفرته

ـ . . المنعم ا . شى

الفصل الأول

الواقع السياسى الذى ظهرت فيه الصحافة الإسلامية

تمهيد :

الصراع بين المسلمين وخصومهم ممتد ومستمر إلى يوم القيامة، ولقد أخذ هذا الصراع على مدار التاريخ صوراً وأشكالاً متعددة حسب الظروف والبيئة وطبيعة العداء وحجم الخلاف، ولم يقف أهل الباطل يوما عن التآمر على أهل الحق فقد كان لهم على طول السنين محاولات لإبادة أهل الحق وإهلاكهم، والقضاء المبرم عليهم، وبعد أن كان أهل الحق ظاهرين على عدوهم منذ أن بزغت الدولة الإسلامية الأولى فى المدينة المنورة، وحتى نهاية القرن التاسع عشر وإن تخلل تلك الفترة حالات ضعف هنا وهزائم هناك، إلا أن الأمر فى غالبه ونهايته كان لصالح أهل الحق(١).

كل ذلك دفع أهل الباطل إلى أن يعدوا العدة للمواجهة الشاملة والقضاء التام على أمة الإسلام وكان ذلك فى مطالع القرن التاسع عشر، وعندما قامت قيامة أوروبا، وتعالت صيحات الإصلاح بها وتعددت صور الثورات الإصلاحية فيها، أدى ذلك إلى قيام دول قوية جعلت هدفها جميعا أن تمزق الدولة الإسلامية، وتحالفت هذه الدوله الفتية على ذلك أحلافا ارتقت بها إلى درجة القداسة فى كثير من الأحيان، ومن ثم سعت هذه الدول للوصول إلى هذه النتيجة سعيا حثيثا، ولتمزيق دولة الإسلام القوية الواسعة وأخذت تضع لذلك المشروعات الكثيرة تعبر عنها أحيانا بالمسألة الشرقية(٢) وأخرى باقتسام تركة الرجل المريض(٣). وأخذت كل دولة تنتهز الفرصة السانحة، وتنتحل الأسباب الواهية وتهاجم الدولة الوادعة اللاهية فتنقض بعض أطرافها أو تهد جانبا من كيانها، واستمرت هذه المهاجمة أمداً طويلاً انسلخ فيه عن الدولة العثمانية كثير من الأقطار الإسلامية ووقعت تحت السلطان الأوربى كالمغرب الأقصى وشمال

(١) حسن البنا، مجموعة الرسائل، رسالة بين الأمس واليوم، القاهرة، دار الشهاب، بدون تاريخ، ص ١٣٣.

(٢) أنظر بالتفصيل، محمود ثابت الشاذلى، المسألة الشرقية، دراسة وثائقية فى الخلافة العثمانية، ١٢٩٩، ١٩٢٣م، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٨٩ ص٧ وما بعدها.

(٣) الرجل المريض، إصطلاح أطلقه الغرب على دولة الخلافة العثمانية وخلعه عليها فى أخريات حياتها، من باب التشفى فى هذا المريض والتربص به، وقد أوشك هذا المريض على الهلاك، وذلك لاقتسام تركته، والقضاء المبرم عليه.

أوربا، واستقل فيه كثير من البلاد غير الإسلامية التى كانت تحت السلطان، كاليونان، ودول البلقان، وكان الدور الختامى فى هذا الصراع الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م - ١٩١٨م الذى انتهى بهزيمة تركيا وحلفائها، وبذلك سنحت الفرصة كاملة لأقوى شعوب أوربا (إنجلترا وفرنسا) وإلى جوارهما إيطاليا فوضعت يدها على هذا الميراث الضخم من أمم الإسلام وشعوبه، وبسطت سلطانها عليها(١).

وعندما وضع الغرب يده على العالم الإسلامى تحت أسماء مختلفة من احتلال واستعمار ووصاية وانتداب، كان المسلمون فى حالة يرثى لها من التخلف المادى والأدبى، على حين كانت النهضة الصناعية مزدهرة فى أقطار أوربا، وتيقظت معها علوم وفلسفات إنسانية كثيرة، فلما قدم المحتلون الجدد كانت الأرض ممهدة لهم كى يضعوا ما شاءوا، وقد شرعوا لفورهم يعملون ضد الاسلام فمزجوا الختل بالقتل، ومشى الغزو العسكرى بين طلائع من الغزو الفكرى، وأحكم المغيرون خطتهم هذه المرة، فإذا الغارة الجديدة تفتك بالإسلام فتكا ذريعا، وتحقق فى القرن العشرين مالم [illegible] فى حروبها من عشرة قرون(٢).

عوامل سقوط الحضارة الإسلا[illegible] :

ولقد حلت بالأمة الإسلامية عوامل كثيرة أدت إلى تخلفها الحضارى وضعفها المادى، وإلى تأخرها عن ركب الأمم والحضارات، وكان من أهم هذه العوامل ما يلى :

١ - الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة والجاه، مع التحذير الشديد الذى جاء به الإسلام فى ذلك..

٢ - الخلافات الدينية والمذهبية والانصراف عن الدين كعقائد وأعمال إلى ألفاظ ومصطلحات ميتة لا روح فيها ولا حياة، وإهمال كتاب الله وسنة الرسول ﷺ، والجمود والتعصب للآراء والأقوال، والولع بالجدل والمناظرات والمراء...

٣ - الانغماس فى ألوان الترف والنعيم، والإقبال على المتعة والشهوات، حتى أثر عن الحكام من المسلمين فى كثير من العصور ما لم يؤثر عن غيرهم..

---

(١) حسن البنا، مجموعة الرسائل، مرجع السابق، ص ١٣٤.

(٢) أنظر بالتفصيل، محمد الغزالى، ظلام من الغرب، القاهرة، دار الاعتصام، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩، ص١٥٦ وما بعدها.

٤ – انتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب، من الفرس تارة والديلم تارة أخرى، والمماليك والأتراك وغيرهم(١).

٥ – إهمال العلوم والمعارف الكونية وصرف الأوقات وتضييع الجهود فى فلسفات نظرية "ـ" وعلوم خيالية سقيمة، مع أن الاسلام يحثهم على النظر فى الكون واكتناه أسوار الخلق والسير فى الأرض، ويأمرهم أن يتفكروا فى ملكوت الله..

٦ – غرور الحكام بسلطانهم والانخداع بقوتهم، وإهمال النظر فى التطور الاجتماعى للأمم من غيرهم، حتى سبقتهم فى الأستعداد والأهبة، وأخذتهم على غرة، وقد أمرهم القرآن باليقظة وحذرهم مغبة الغفلة، واعتبر الغافلين كالأنعام، بل هم أضل.

٧ – الانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم، والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم والاندفاع فى تقليدهم بما يضر ولا ينفع، مع النهى الشديد من التشبه بهم والأمر الصريح بمخالفتهم والمحافظة على مقمومات الأمة الإسلامية والتحذير من مغبة التقليد(٢).

ويرسم الشيخ محمد الغزالى صورة العالم الإسلامى قبيل سقوط الخلافة العثمانية، بهذه الكلمات الموحية فيقول: إنها أمة واهنة القوى، ساقطة المستوى، مبعثرة فى ربوع الشرق كأنها أطلال دارسة لحضارة طال عليها الأمد، وانقطع بها الزمن، وأدبرت عنها الحياة، فهى فى شيخوختها العاثرة تذكر ماضيها فترجو، ويلحقها حاضرها فتكبو، إنها بين اليأس والأمل، وبين الحياة والموت، وبين رغبتها فى العيش الكريم، وتعثرها فى الأخذ بأسبابه، تواجه الدنيا بأمانيها ويواجهها القدر بدروسه، وتنزل إلى ميدان الحياة برغائبها المجردة، فيعترضها الميدان بعقباته المعترضة ومتاهاته المحيرة(٣).

---

(١) وهذا لا يعنى بالكلية أن العجم الذين دخلوا الإسلام وتقلدوا فيه السلطة والقيادة كانوا على هذا المستوى، بل الواقع والصحيح أن منهم من أحرز للإسلام الانتصارات فى الميادين العسكرية والعلمية، خاصة فى المجال العلمى الذى برز فيه الكثير ممن ليسوا من العرب.

(٢) حسن البنا، مجموعة الرسائل، رسالة بين الأمس واليوم، مرجع سابق، ص ١٣١، ١٣٢.

(٣) محمد الغزالى، «الإخوان المسلمون» نصف شهرية، العدد (١٨٧) السنة السادسة، ٢١ فبراير ١٩٤٨، ص ٤.

والأمة التى تقبل الخنوع وتعطى الدنية من نفسها، لن تحرم من مكان تعيش فيه، فإن سادة العالم لن يرفضوا الاستكثار من الخدم والأتباع، ولا ضير على الواحد منهم إن سخَّر مستعمرة واسعة الرقعة ليعيش ما فيها من إنسان وما فيها من حيوان سواسية فى العمل له والفناء فيه، بيد أن الشعوب الخادمة لغيرها ليست إلا شعوباً ماتت فيها المواهب الإنسانية العليا وارتكست فيها الملكات الذكية اليقظة، فهى توصف بالحياة كما يصف السادة بالحياة كلاب الصيد التى تلهث بين أيديهم، أو أبقار الحرث التى تعمل فى حقولهم، أما هم من الناحية الإنسانية المحضة فأموات، وكل أمة تنكل عن حمل أعباء الحياة الأبية، وتنقص عن الإقدام فى ساحات الجهاد والتضحية، وتخشى عواقب المخاطرة والجرأة فلابد أن تصدر عليها محكمة التاريخ حكمها بالإعدام(١).

هكذا كانت صورة العالم الإسلامى، وكانت مصر فى ذلك الحين تابعة لدولة الخلافة العثمانية التى كانت توصف فى أخريات حياتها بهذا الوصف الشهير «الرجل المريض» إذ تضافرت عليها دول الغرب - كما أشرت لذلك من قبل - لإضعاف هيبتها، وكسر شوكتها، وتقطيع أوصالها للقضاء المبرم على امبراطوريتها الواسعة، فجيشت ضدها - قبل منابذتها العداء العسكرى - عوامل الانحلال ففسدت الأخلاق، وانتشرت الفوضى ودب فيها الفساد واعتصرها ظلم وغفلة السلاطين.. فأصبحت جثة هامدة ولقمة سائغة لكل طامع(٢).

بداية الاحتلال الانجليزى:

كانت إنجلترا من أكثر البلاد الغربية تطلعا إلى احتلال مصر لأسباب عديدة منها الدينية والسياسية والاقتصادية، وخاصة بعد اندحار الحملة الفرنسية وهزيمتها وخروجها من البلاد، فكانت لانجلترا محاولات للاستيلاء على مصر بشتى السبل منها العسكرية، ومنها الاقتصادية، فقد حاولت إنجلترا أن تجرب حظها فى احتلال مصر عسكريا وذلك يوم أن سيرت جيوشها إلى رشيد بقيادة «فريزر» عام ١٨٠٧م، فما كان من القوى الشعبية المصرية إلا أن تصدت للقوات الإنجليزية وأفسدت عليها المحاولة، ولكن إنجلترا لم تيأس، إذ أنها تدخلت فى شئون مصر المالية بحجة الارتباك المالى،

---

(١) السابق نفسه، ص٤.

(٢) عبد العزيز على. الثائر الصامت، القاهرة، دار المعارف. القاهرة، ط١، ١٩٧٨، ص ١٦، ١٧.

وطلبت من الحكومة المصرية تعيين مراقب مالى إنجليزى وآخر فرنسى ليكونا معا للراقبة الثنائية فقبلت الحكومة ذلك ونفذته عام ١٨٧٩(١).

وظلت انجلترا متربصة بمصر إلى أن انتهزت فرصة الخلاف القائم بين الثورة العرابية والخديو، فدخلت بجيوشها البلاد فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ بعد موقعة التل الكبير، وبذلك أعلنت إنجلترا احتلالها لمصر، وإن زعمت أنها تفعل ذلك بحجة حماية العرش والمحافظة على الأمن فى البلاد، إلا أن الأمر فى [illegible] ، ما كان الا حلما يراود الإنجليز منذ أن كان الفرنسيون يحتلون مصر(٢). وكان وضع مصر السياسى وكما هو معلوم حتى عام ١٨٨٢، أنها ولاية عثمانية لها استقلالها الداخلى ولأسرة محمد على إمارتها وعرشها، فلما قامت الثورة العرابية رأت إنجلترا أن الفرصة سانحة لاحتلال مصر فانتهزتها فرصة لتنفيذ سياسة رسمتها وزارة الخارجية البريطانية منذ زمن بعيد(٣).

ولقد جاء احتلال الإنجليز للبلاد ضربة فى ظهر الحركة الوطنية فى مصر والتى ابتدأت فى ظهورها قبل غيرها من البلاد العربية، وكانت إنجلترا بوصفها إحدى الدول الموقعة على معاهدة لندن(٤) المعترفة باستقلال مصر والضامنة لهذا الاستقلال، قد تعهدت بأن تحترم وضع مصر القائم بموجب هذه المعاهدة، ولذلك فإن احتلالها لمصر جاء نقضا لهذه المعاهدة الدولية، وقد أدركت الحكومات البريطانية المتعاقبة عدم شرعية مركزها فى مصر، لذا فإنها كثيرا ما كانت تعلن أنها لا تنوى أن تضم مصر إليها أو أن تحكمها بشكل دائم، وأن الاحتلال ليس سوى إجراء مؤقت سينتهى بمجرد عودة الأحوال فى مصر إلى وضعها الطبيعى(٥).

(١) السابق نفسه، ص ٢٨٠.
(٢) أنظر بالتفصيل، عواطف عبد الرحمن، مصر وفلسطين، الكويت – المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب – عالم المعرفة – رقم (٢٦) ١٩٨٥.
(٣) محمد حسنين هيكل، مذكرات فى السياسة المصرية، جـ ١ ، الطبعة الأولى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٧ ص ٢٠، ٢١.
(٤) معاهدة لندن تمت فى ١٥ يونيو ١٨٤٠.
(٥) نجلاء عز الدين، العالم العربى، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية – الطبعة الثانية ١٩٦٢ م ص ١٤٩ وما بعدها.

ومع كل هذه الوعود الإنجليزية، لم تُسلّم الدولة العثمانية تسليما مطلقا باحتلال الإنجليز لمصر، بل إن السلطان عبد الحميد بمواقفه كان عقبة فى طريق استقرار حال الاحتلال فى مصر فقد حاولت إنجلترا بشتى السبل من اللحظة الأولى لاحتلالها مصر إحكام سيطرتها عليها، وإلغاء تبعيتها لدولة الخلافة العثمانية. ففى ١٨٨٣م سعت إنجلترا فى مساومة الباب العالى لبيعها الجزية التى كانت تدفعها مصر سنويا للدولة العثمانية، ولم تفلح إنجلترا فى مسعاها ليقظة السلطان عبد الحميد الذى رفض العرض رفضا تاما(١).

وحاول السلطان عبد الحميد إنقاذ ما يمكن إنقاذه عندما رأى دولته تنهار من الداخل، وتسقط من الخارج فشجع فكرة الجامعة الإسلامية والدعوة إليها، وقام ببعض الإصلاحات الداخلية ولكن الزمام قد أفلت من يده، وأحكم الغرب خطته هذه المرة للقضاء التام على الخلافة العثمانية وكانت الضربات تتلاحق فى جسد العالم الإسلامى، وانتهى القرن التاسع عشر وبدأ القرن العشرون، وشهد العقد الأول منه أحداثا كثيرة. ففى عام ١٩٠٤م حدث الاتفاق الإنجليزى الفرنسى والذى به تطلق فرنسا يدها فى مراكش مقابل عدم تعرض فرنسا لإنجلترا فى إدارتها لمصر والذى عرف «بالاتفاق الودى»(٢).

رموز الحركة الوطنية:

وقد ترتب على إعلان هذا الاتفاق شعور عام بين المشتغلين بالحركة الوطنية المصرية بعدم جدوى الاستمرار فى سياستهم القديمة القائمة على اقتناع مؤداه أن «تدويل المسألة المصرية» هو الطريق لإجبار الإنجليز على إنهاء إحتلالهم العسكرى للبلاد، ولقد زاد اهتمام الزعامة الوطنية التى كان يمثلها مصطفى كامل وقتذاك بعد تصريح أبريل ١٩٠٤م بما يجرى داخل الوطن، فى محاولة تجميع المصريين حول ما سُمى بعد

(١) أنظر بالتفصيل: محاولات إنجلترا المتعددة، لتجعل مركزها الفعلى الباطل فى مصر شرعيا، وما فعلته فى هذا الصدد من الحيل والدهاء والمكر والخداع السياسى مع دولة الخلافة العثمانية وغيرها، عبد العزيز على، الثائر الصامت، مرجع سابق، ص ٢٩١.

(٢) يونان لبيب رزق، الأحزاب السياسية فى مصر، ١٩٠٧ - ١٩٨٤، كتاب الهلال، ديسمبر ١٩٨٤، سلسلة ثقافية شهرية العدد (٤٠٨) القاهرة، دار الهلال، ص ١٩.

ذلك بالحزب الوطنى، وحدث خلال النصف الأول من ١٩٠٦م ما هو معروف بأزمة العقبة أو حادثة طابا، وهى الأزمة التى تفجرت على حدود مصر الشرقية بين كل من الدولة العثمانية وبين بريطانيا.

وفى أوائل ١٩٠٧م ظهرت ثلاثة تيارات فى العمل الوطنى المصرى أولها مثلها مصطفى كامل وجريدة اللواء، والذى تسمى «بالحزب الوطنى»، وقد مثل غالبية العاملين فى الحركة الوطنية، وقد بنى هذا التيار الغالب سياساته ومواقفه على العداء للمحتلين الإنجليز، والسعى بكل الوسائل للتخلص منهم، والتيار الثانى تكون من مجموعة صغيرة ممن وقفوا موقف النقيض من التيار الأول وسموا أنفسهم «بالحزب الوطنى الحر» واتخذوا من جريدة المقطم الموالية للإنجليز منبراً لهم، ويتضح موقفهم من تلك الرسالة التى وجهوها إلى الخديو، وجاء فيها : «سلامة الوطن والأمة فى مسالمة المحتلين المصلحين، وأن المصلحة العمومية تقضى علينا أن نعتمد على الدولة المحتلة العادلة فى جميع شئوننا الأدبية والمادية».

أما التيار الثالث فهو الذى رفض سياسة التيار الأول ونعتها بالتطرف(١). كما رفض سياسة التيار الثانى ورآها استسلاما واختط منهجا وسطا بين الاثنين سماه «المنهج المعتدل» وقد مثل هذا التيار صحيفة «الجريدة» التى بدأت فى الصدور فى مارس ١٩٠٧م(٢).

ومنذ ذلك التاريخ بدأت التيارات السياسية فى مصر تعبر عن نفسها فى شكل أحزاب سياسية، والملاحظ على هذه الأحزاب جميعا التى ظهرت فى مطلع القرن العشرين عدا الحزب الوطنى خلوها من البعد الإسلامى، وعدم التركيز على مبدأ الولاء للخلافة العثمانية الإسلامية، واعتمادها بشكل أساسى فى دعوتها على الشعارات والأفكار، ولم نجد لهذه الأحزاب خطة عملية لإخراج الانجليز من البلاد، إلا أن الحزب الوطنى عرف مبكرا بأن الحق لابد له من قوة تحميه وتسنده، وللوطن من جنود تفديه

(١) يقول مصطفى كامل : يروق لبعض الجهلاء والمسخرين لخدمة الإنجليز أن يلقبونا بالتطرف... وما دروا أنه لا يصح أن يوجد فى البلاد الفاقدة لاستقلالها إلا حزب واحد هو حزب الوطن، حزب الحرية، حزب المستقبل، أنظر بالتفصيل : أوراق مصطفى كامل، الخطب، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١ ١٩٨٤، ص ٣٠٥ وما بعدها.

(٢) يونان لبيب رزق، الأحزاب السياسية، مرجع سابق، ص ٢٢.

بالمهج والأرواح، لذا رأى أقطاب الحزب الوطنى أن يجهزوا ويعدوا من الشباب الوطنى المؤمن فدائيين يسندون الحق ويسارعون فى فداء الوطن بأرواحهم، وهكذا نبتت فكرة تكوين جمعية وطنية سرية باسم «جمعية التضامن الأخوى»(١).

إذن فالحزب الوطنى بقيادة مصطفى كامل كان يعبر بمفاهيمه السياسية، وبرامجه العملية عن آمال وطموحات المصريين من حيث ارتباطهم السياسى بدولة الخلافة وعملهم الدؤوب لإجلاء الاحتلال وفى رسالة وصلت كرومر المعتمد البريطانى فى مصر تؤكد حرص الوطنيين المصريين على ولائهم للدولة العثمانية جاء فيها: باعتبارنا رجالا فنحن لا نحب العثمانيين.. ولكنهم إخوتنا باعتبارنا مسلمين.. والخليفة ظل الله على الأرض، وعلى كل مسلم أن يسارع إلى تلبية ندائه حتى لو افترس الذئب طفله وهو يؤدى طلب سيده، إن نداءه هو نداء الإيمان.. وإنى وكثيرين غيرى نتمنى أن يظل السلام سائداً، ولكن ثق أن الحرب إذا قامت فكل من لديه سيف سيمتشقه، وكل من لديه عصا سيضرب بها، وستصرخ النساء من فوق البيوت «لينصر الله الإسلام». هل تقول إن المصريين أقل وفاء من الكلب الذى يذكر اليد التى أطعمته؟! وإنه لأحمق مجنون ذاك الذى يهدم فوق رأسه سقف بيته المصنوع من فروع الأشجار، قد يكون ذلك صحيحاً من الناحية الدنيوية، ولكن حينما يتعرض الإسلام للخطر فإن كل مسلم يتخلى عن مطالب هذه الدنيا ولا يتطلع إلا للدفاع عن الدين حتى لو ضحى بحياته»(٢).

صحيح أن هذه الرسالة من مصدر غير محدد ولكنها جاءت فى ذاك الوقت تعبيرا حيا عن مدى ارتباط المصريين الوثيق بالخلافة العثمانية، ولا شك أن هذه الروح التى كانت تتغلغل فى طبقات المجتمعات الإسلامية قاطبة، كانت تؤرق الاستعمار، لأن هذا الترابط والتماسك ولو ظاهرياً بين الدول الإسلامية خطر على عدوهم الذى يسعى بكل ما أوتى من مكر ودهاء وقوة وحيلة إلى ضرب القوة الإسلامية المتمثلة فى وحدتهم تحت لواء الخلافة العثمانية، لأجل هذا فإن القوى والأحزاب السياسية التى ظهرت فى تلك الآونة وناصبت دولة الخلافة العداء كانت تعمل لصالح الاستعمار، سواء كانت

---

(١) أنظر بالتفصيل: عبد العزيز على، الثائر الصامت، مرجع سابق، ص٣٣.

(٢) آرثر اداورد جولد سميث (الابن)، الحزب الوطنى المصرى، مصطفى كامل - محمد فريد، ترجمة فؤاد دوارة، القاهرة، الهيئة المصرية، ١٩٨٣، ص ١٦٧.

تعمل ذلك وهى تدرى حجم الكارثة أو لا تدرى، والذى يؤكد ذلك ويقويه أن الاستعمار ما انفك يعمل بكل ما أوتى من قوة لضرب دولة الخلافة من الداخل والخارج وذلك بتشجيعه الدعوات القومية والحركات الانفصالية، والنحل والمذاهب التدميرية والتخريبية، وكانت المأساة عندما قامت الحرب العالمية الأولى، وسقطت جميع الدعاوى التى حاولت إنجلترا التستر خلفها، فبعد أن كانت توافق على السيادة العثمانية – ولو الشكلية على مصر– أعلنت بعد الحرب انتهاء هذه السيادة، بل اندحار دولة الخلافة بعد هزيمتها فى الحرب(١).

بذلك يكون من أخطر نتائج الحرب العالمية الأولى انهزام دول المحور ومن بينها تركيا وكسر شوكتها تمهيداً للقضاء المبرم عليها، بل إن أحد الباحثين يذهب إلى أن الحرب العالمية الأولى كان هدفها الأساسى هو التخلص التام من دولة الخلافة العثمانية، وتقسيم دولها(٢). ومعلوم أن الخلافة العثمانية، كانت تهتز فوق عرشها منذ زمن بعيد.. ورغم هذا ظل شعور الإخلاص للخلافة باقيا، ومع أن غالبية المسلمين كانت تشعر بالأسى من ميول الخليفة إلى الحلول الجزئية، إلا أن شعورهم بالحزن كان أكثر بسبب ضعف وتهاوى هذه المؤسسة. فالإسلام ممثلاً فى الخلافة، كان هو الملاذ والملجأ لرجل الشرق(٣).

ولا غرابة فى ذلك لأن الرباط الذى كان يربط المسلمين بدولة الخلافة هو رباط الأخوة والعقيدة الذى يعتبر من أقدس الروابط الإسلامية، وأوثق الوشائج الدينية(٤). فى هذا الوقت كان يجتاح البلاد العربية عامة، ومصر خاصة تياران رئيسيان غير

(١) عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى فى أغسطس ١٩١٤ قامت إنجلترا بفرض الحماية على مصر، وخول القرار للقوات البريطانية حق استعمال مصر كقاعدة أثناء الحرب، وأعلنت الأحكام العرفية، ووضعت الصحف تحت المراقبة، وأصدر الاحتلال العديد من القرارات التعسفية التى تزيد من تكبيل الشعب المصرى بقيود ثقال، أنظر بالتفصيل: عواطف عبد الرحمن، مصر وفلسطين، مرجع سابق، ص ٥٥.

(٢) أنظر: سفر بن عبد الرحمن الحوالى، القدس بين الوعد الحق والوعد المفترى، مكتبة السنة، القاهرة، ط ١، ١٩٩٤، ص ٢٨.

(٣) جاك بيرك، مصر الامبريالية والثورة، ترجمة يونس شاهين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧ ص ١٢.

(٤) حسن البنا، المنار، جـ ٩، م ٣٥، أغسطس ١٩٤٠م، ص ٥. ويذكر البنا أن ما حدث للعثمانيين كان «جزاء وفاقا بما كسبت أيديهم، ومثله منذر بعاقبة المقصرين المفرطين».

متكافئين فى القوة، ولكنهما كانا يصطدمان ويتنازعان فى واقع الحياة، وفى تفكير قادة الرأى ودعاة الإصلاح، وعلى الأخص عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى، وما نجم عنها من تيارات سياسية وفكرية وآثار اجتماعية واقتصادية فى الشرق العربى: تيار المدنية الغربية الجارف المتدفق علينا من أوربا مع كل وافد، ومن كل طريق فى مناهج التفكير وبرامج الدراسة وأساليب الحكم والسياسة، ومظاهر الحياة والاجتماع، وفى شئون المال والاقتصاد والتشريع وعن طريق الإيحاء والغزو الفكرى، وعلى أيدى دعاة المدنية الغربية من بنى جلدتنا ومن الأجانب على السواء، وأما التيار الآخر فتيار التراث الإسلامى المغلوب على أمره فى كل تحركه، ومن كل طريق ينفذ أو يحاول النفاذ منه إلى الحياة التى يضطرب فيها المسلمون فى الشرق العربى كله، ومن طريق فقد الزعماء الثقة فى حيوية الفكرة الإسلامية وقدراتها الإصلاحية والتنظيمية، وقدرتها على مغالبة تيار المدنية الغربية، ومن الفهم الخاطئ أو القاصر لحقيقة الإسلام كدين ونظام متكامل متميز بذاته فى روح الإصلاح ومناهجه فى تنظيم شئون الحكم والإدارة والسياسة والمال القضاء والاجتماع(١).

تقسيم ا لم الإسلامى:

وانتهت الحرب العالمية الأولى، وظلت الحماية البريطانية معلنة على مصر، وما كان من أثر ذلك فى نفوس المصريين وشعورهم بثقل الاحتلال الذى مازال جاثما على صدورهم(٢). وتكشفت الحرب عن اتفاق كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا- فى معاهدة سرية- على اقتسام أملاك «الرجل المريض» وهذه المعاهدة هى المعروفة بمعاهدة سايكس بيكو سنة ١٩١٦م(٣). وقد تم بمقتضاها تقسيم العالم الإسلامى على هذا النحو :

(١) أنظر بالتفصيل: محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر جـ ٢، القاهرة،، مكتبة الآداب، ص ١٨٧ وما بعدها، ومحمد فريد عبد الخالق، الدعوة، العدد (٣) السنة الأولى، ١٤ فبراير ١٩٥١ ص٤.

(٢) صلاح عبد الحافظ ، «الإخوان المسلمون» نصف الشهرية، العدد (٧٣) السنة الثالثة، ١٣ أكتوبر ١٩٤٥م ص٢٨.

(٣) مصطفى محمد رمضان، العالم الإسلامى فى التاريخ الحديث، جـ ١، القاهرة، مطبعة الجبلاوى، ١٩٨٥، ص ١٠١ وما بعدها.

١ – أفريقيا الشمالية (مراكش والجزائر وتونس) مستعمرات فرنسية تتخللها منطقة نفوذ دولية فى طنجة، ومستعمرة أسبانية فى الريف.

٢ – طرابلس وبرقة مستعمرة إيطالية، ولم تشأ إيطالياً أن تُبقى على أثر من آثار الإسلام فيها، ففرضت عليها التجنس بالجنسية الإيطالية وأسمتها إيطاليا الجنوبية.

٣ – مصر والسودان، تحت الحماية الإنجليزية لا تملك إحداهما لنفسها من أمرها شيئاً.

٤ – فلسطين تحت الانتداب الإنجليزى.

٥ – سوريا تقع تحت الانتداب الفرنسي.

٦ – العراق تقع تحت الانتداب الإنجليزى.

٧ – الحجاز حكومة ضعيفة متداعية تنتظر الصدقات، وتتشبث بالعهود الزائفة، والمواثيق الباطلة.

٨ – اليمن حكومة منزوية وشعب فقير مهدد بالغزو فى كل مكان فى أى وقت من الأوقات.

٩ – بقية أقسام الجزيرة العربية إمارات صغيرة يعيش أمراؤها فى كنف القناصل الإنجليز، ويقاتلون بفتات موائدهم، وتشتعل صدورهم بنيران التحاقد والتباغض، هذا مع الوعود المؤكدة والمواثيق الغليظة التى قطعها الحلفاء للملك حسين أن يساعدوه على استقلال العرب وتدعيم سلطان الخلافة العربية(١).

١٠ – إيران وأفغانستان حكومات مضطربة تتوزعها الأطماع من كل مكان فهى تحت كنف هذه الأمة تارة، وإلى جانب تلك تارة أخرى.

---

(١) تم ذلك عن طريق الخطابات التى تبودلت بين المندوب السامى البريطانى فى مصر وشريف مكة فى سنتى ١٩١٥، ١٩١٦، وتطالب القبائل العربية بالوقوف على الحياد، ومساعدة الجيوش البريطانية فى حملتها على الشام ضد الامبراطورية العثمانية، وفى نظير ذلك تعمل بريطانيا على إنشاء مملكة عربية متحدة، غير أن هذا الوعد لم تحققه بريطانيا لمصلحة العرب وأعطت وعدا مضاداً هو وعد بلفور بإنشاء الوكالة الصهيونية فى فلسطين، انظر : أحمد سويلم العمرى، معجم العلوم السياسية الميسر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥ ص ١٨٨.

١١- الهند مستعمرة إنجليزية.

١٢- تركستان وما جاورها مستعمرات روسية يذيقها البلاشفة مر العذاب، وفيما عدا ذلك فهناك الأقليات الإسلامية المنتشرة فى كثيرٍ من البلدان لا تعرف دولة تلجأ إلى حمايتها أو حكومة مسلحة تحتمى بجنسيتها كالمسلمين فى الحبشة والصين والبلقان وبلاد أفريقيا الوسطى والجنوبية الشرقية والغربية، وبهذا الوضع انتصرت أوربا فى هذا الصراع السياسى، وتم لها ما أرادت من تمزيق الامبراطورية الإسلامية والذهاب بدولة الإسلام سياسياً من قائمة الدول الحية العظيمة[1].

إندلاع ثورة ١٩١٩:

ولكن هذا العدوان الصارخ والاستهتار بالعهود والمواثيق أحرج الصدور وأثار النفوس فهبت هذه الأمم تطالب باستقلالها وتجاهد لاسترداد حريتها ومجدها، واشتعلت فيها الثورات، واندلعت ثورة ١٩١٩ فى مصر، وكانت الثورة الأولى فى الشرق، بعد الحرب العالمية الأولى قامت بيد الشعب، ولم يكن لزعيم ما ممن برز اسمهم فيما بعد أى أثر فى إشعالها، وإن استفاد منها هؤلاء الزعماء، وجنوا ثمارها، وأقاموا مجدهم على جثث شهدائها، ودماء المجاهدين فيها، وقد اتسمت هذه الثورة بالتنظيم والحماسة والبراءة من الغرض، ولو وجدت من ورائها من يستغل آثارها لتحقق مطلب مصر كاملا فى الحرية والسيادة، ولكن الغاصب المحتل استطاع أن يضع الماء على هذه الجذوة وأن يقاوم روح العزة والإيمان بفلول من الصنائع والأذناب الذين سلمت إليهم فى ذلك الوقت مقاليد الأمور، وقد أدهشت الغرب هذه الروح الصادقة القوية من الإيمان بحقوق الوطن، واستدعى ذلك أن ترسل إنجلترا لجنة تحقيق إلى مصر باسم (لجنة ملنر)، وقد قاطع الشعب هذه اللجنة مقاطعة تامة، وأبرق إليها أكثر من ألف برقية احتجاج، ومضى هذا الروح دفاقا، فحال الشعب بين الزعماء والحكم، فتعطل الدولاب الحكومى، واضطرت الجهات المختصة أن تكل أمور الوزارات إلى وكلائها، ولكن ذلك لم يطل أمره، ولو امتزجت هذه الروح الوطنية بالإيمان الإسلامى

---

(١) حسن البنا، مجموع الرسائل، رسالة بين الأمس واليوم، مرجع سابق، ص ١٣٥.

الصحيح لكان لها من ذلك قوة وسند، ولما استطاع بعض الزعماء أن يتحكموا فى اتجاه تيار الوطنية وأن يحولوه إلى السياسة الحزبية بما فيها من مناورة وتآمر ومساومة(١).

ولا شك أن ابتعاد الثورة المصرية عن مسارها وغايتها، حدث بفعل فاعل، فقد كان الاحتلال حريصا كل الحرص على احتواء القادة، وتفريغ الثورة من عقيدتها الوطنية المتدفقة. من أجل ذلك بدأ الانجليز الصاق التهم وإشاعات الأكاذيب والدعايات المغرضة حول الثورة الشعبية وزعمائها، ولقد سبقت الإشارة إلى اتهام السياسة البريطانية لحركة مصطفى كامل بالتطرف والتعصب الدينى، وقد ألقيت فى وجه ثورة ١٩١٩ ذات التهمة فى البداية، وأريد بها أن تطمس حقيقة الحركة السياسية فى مصر، ولا يكاد يمكن حصر ما كتبته الصحف المصرية، وما تردد على ألسنة رجال السياسة من أن الاستعمار اتهم الحركة المصرية بأنها حركة دينية، وأن الشواهد القاطعة كانت تكذبهم وتنفى ادعاءهم، فلم تكن ثورة ١٩١٩ ثورة دينية، ولكنها كانت ثورة وطنية اشترك فيها المسلمون والأقباط على حد سواء.

ومن البديهى أن الحركة الدينية ليست «تهمة» ولكنها وصف يحاول أعداء الثورة إلصاقه بها لتنفير القبط منها وصدع الوحدة الوطنية، وخلق الخلاف الطائفى(٢). يقول سعد زغلول : ادعوا أن الحركة المصرية دينية، ولكنهم رأوا رأى العيان أن مسيحيى مصر ومسلميها متحدون اتحادا متين العرى، وأن المسيحيين كانوا فى مقدمة القائمين بالمظاهرات، وكان ويصاو اصف أحد أعضاء الوفد المصرى أكثر صراحة فى هذا الصدد عندما أعلن أنه «لم يعد للمصريين قاطبة إلا إيمان واحد، وعقيدة واحدة، ودين واحد، هو دين الوطنية». وقد كان ويصاواصف وواصف بطرس غالى من أعضاء الوفد

---

(١) أنظر بالتفصيل، أنور الجندى، «الإخوان المسلمون» نصف شهرية العدد (١٨٦) السنة السادسة، ١٤ فبراير ١٩٤٨، ص ٢ وأيضا أنور الجندى، عقبات فى طريق النهضة، مراجعة لتاريخ مصر الإسلامية منذ الحملة الفرنسية إلى النكسة ١٨٩٨ - ١٩٦٤، القاهرة، دار الاعتصام، بدون تاريخ، ص ٥٩ وما بعدها.

(٢) أنظر بالتفصيل، طارق البشرى، المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، ص١٣٣ وما بعدها.

المصرى، ويشرفان على أعمال الدعاية للمطالب الوطنية فى باريس، ويرجع ذلك إلى ما عرف عنهما من إتقانهما الفرنسية ثقافة ولغة(١).

والباحث لا يشك فى تأثر ثورة ١٩١٩ بالعامل الدينى، فإن كثيراً من الحوادث التى وقعت قبل الثورة وفى إبانها ومن بعدها، تدل على أن العامل الدينى كان عنصراً أساسيا وسببا مباشراً من أسبابها، ولكن ينبغى أن نفرق فى هذا الصدد بين أسباب ودوافع قيام الثورة وتوجهاتها وبين نتائجها وما آلت إليه، فقد استطاع الإنجليز أن يفسحوا المجال أمام القيادات التى تنادى بالعلمانية، بأن يلعبوا دوراً بارزاً فى قيادة الثورة، ومن ثم الإمساك بزمامها وتوجيه دفتها حيث يريدون فكانت نهاية الثورة على غير بدايتها(٢).

وليست ثمة أدلة تؤكد ما ذهب إليه أحد الباحثين من أن قيادة الثورة آلت إلى عناصر ممن ينتمون إلى جيل التغرب الثانى، لسبب افتقاد الساحة آنذاك لقيادة إسلامية حازمة وقادرة على الإمساك بزمام الأمور، ولكن الصحيح من وجهة نظر الباحث أن الساحة كانت مليئة بالقادة الإسلاميين من الأزهريين وغيرهم وخاصة هؤلاء العلماء والشيوخ الكبار من علماء الأزهر الذين أسهموا فى ثورة ١٩١٩ فى مطلعها وأججوا نارها، وأشعلوا فتيلها ولكن الإنجليز بخداعهم وقوتهم استطاعوا ألا يمكنوا لأحد من هؤلاء العلماء من أن يسود الموقف أو أن يأخذ بزمام الثورة إلى نهاية المطاف، فعمل الإنجليز على تفريغ الثورة من روحها واحتوائها والهيمنة عليها بإفساح المجال أمام قيادة يرتاحون إليها ويحسن التعامل معها(٣).

ومهما يكن من أمر فإن اندلاع الثورة المصرية فى ١٩١٩، أعلن للعالم بأسره نضوج الوعى الوطنى، وتجاوز المرحلة السلبية إلى الكفاح والعمل والثورة، إلا أن هذا

---

(١) فهمى الشناوى، المؤامرة على إسقاط الخلافة العثمانية، مكتبة المختار الإسلامى، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٢٠، حيث يؤكد أن الحركات الوطنية كانت كلها بدون استثناء إسلامية، قام بها مسلمون، وبدافع إسلامى محض، ثم يتم انحرافها عن مسارها بعد تطعيمها أو تهجينها بالاتجاهات العلمانية على يد المستعمر.

(٢) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر، مرجع سابق، جـ ٢، ص ١٨.

(٣) أنظر إبراهيم البيومى غانم، الفكر السياسى للإمام حسن البنا «دراسة فى التفاعل بين الفكر والحركة فى الواقع السياسى المصرى»، رسالة ماجستير. منشورة بدار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ص ١٧.

الوعى لم يكن وعياً وطنياً كاملاً، ولم يكن يفهم الدافع على الثورة فهماً صحيحاً من مختلف طبقات الأمة لحقوق الوطن الخاصة، وشئونه العامة ودخائل السياسة البريطانية فى مصر، ولم يجد الشعب المصرى من يحيطه بالعلم الكافى لأهدافه المستقبلية ورسالته الوطنية، كان شعوراً وطنياً دافقاً ولم يكن وعياً وطنياً عاماً يتضمن رسالة بمنزلة العقيدة والمنهاج الذى يحاسب به زعماءه وخلفاءهم إن تنكبوا به الطريق القويم(١).

ولا يخفى أن من الأسباب التى أججت فى نفوس المصريين الثورة على الإنجليز فى ١٩١٩ المصير الذى آلت إليه الدولة العثمانية، فقد أبرزت أحداث الثورة العديد من مظاهر التعاطف والمشاعر الإسلامية التى تحض على الجهاد، وقد رفع المتظاهرون فى غمار الثورة الأعلام العثمانية فى أماكن متفرقة من البلاد، واهتم المصريون بمتابعة الأحداث والتطورات التى كانت تتعرض لها دار الخلافة وامتلأت قلوبهم حزنا لمصير «الأستانة» عاصمة الخلافة التى احتلتها جيوش الأعداء وتقاسمها الإنجليز والفرنسيون والطليان وسيطروا فيها على ولاياتها(٢).

ويذكر أنه، عندما اندلعت ثورة ١٩١٩ كان حسن البنا الذى أسس جماعة الإخوان المسلمين فيما بعد، كرد فعل للواقع السياسى الذى تمر فيه الأمة، وقام بإصدار العديد من الصحف الإسلامية كمجلة الإخوان المسلمين والنذير والتعاون والشهاب والإخوان المسلمون اليومية.

فى سنته الأخيرة بالمدرسة الأولية، وقد شارك كتلميذ مشاركة فعلية فى المظاهرات التى تفجرت داخل المدرسة وخارجها، كما ساهم فى نظم وإلقاء الشعر الوطنى، مستعرضاً بصفة خاصة منظر القوات البريطانية وهى تحتل بلدته المحمودية(٣).

ومن الأشعار التى كان يرددها المتظاهرون فى قوة وحماس، والتى تكشف بجلاء عن هوية المتظاهرين قولهم :

حـــب الأوطـــان مـــن الإيمـــان ∴ وروح اللــــــه تتـــاديـــنـــا

(١) صلاح عبد الحافظ، «الإخوان المسلمون» نصف شهرية العدد (١٧٣) السنة الثالثة، ١٣ أكتوبر، ١٩٤٥ ص ٢٨.

(٢) إبراهيم البيومى غانم، الفكر السياسى للإمام حسن البنا، مرجع سابق، ص ١٤، ١٨.

(3) R.P. Mitchell : the Society of the Muslim Brothers, London, oxford university press, 1969, pp. 2, 3.

إن لـــم يجمعْنـــا الاســـتــقلالُ ∴ فــفـــى الفـــردوسِ تلاقيـنـــا

ولقد أثرت هذه الأحداث فى الوعى السياسى لدى حسن البنا فى هذا الوقت المبكر من عمره، الأمر الذى جعله ينفعل ويقول قصيدة شعرية طويلة تأثراً بمقاطعة الأمة للجنة ملنر، يذكر منها قوله :

يـــا ملنـــر ارجـــع ثـــم ســـلْ ∴ وفـــداً ببـــاريـــسَ أقـــام

وارجـــعْ لقومـــكِ قـــل لهـــم ∴ لا تخـــدعـــوهـــم يـــا لئـــام

بهذه الروح وبتلك العقيدة استطاع البنا أن يعبر عن مدى حبه لوطنه وغيرته على بلاده، وهذا ولاشك لا يتناقض مع الحال الذى كان عليه البنا فى هذه المرحلة من حياته، إذ أنه كان منشغلاً بالتصوف والتعبد، حيث إنه يرى بل ويعتقد أن الخدمة الوطنية جهاد مفروض لا مناص منه(1).

وكانت لجنة ملنر قد أرسلتها الحكومة البريطانية للتحقيق، ووصلت إلى مصر فى شهر ديسمبر ١٩١٩م وقاطعتها الأمة بإجماع، فاستقال ملنر وهو وزير المستعمرات وخلفه تشرشل، وأعلن عن تصريح فبراير ١٩٢٢ الذى يقضى بإنهاء الحماية، والاعتراف بالاستقلال لمصر مع تحفظات حول المواصلات الامبراطورية، والدفاع عن مصر، وحماية المصالح الأجنبية، ووضع السودان(2). وحين أعلن عن انعقاد مؤتمر لوزان لتحديد علاقة الترك بقيادة كمال أتاتورك مع الحلفاء فى أكتوبر ١٩٢٢، اتفق كل من الحزب الوطنى والوفد على ضرورة توحيد صفوفهما وتمثيل مصر فى هذا المؤتمر للدفاع عن حقوق مصر وإبراز صفتها الدولية، ويبدو من مذكرة الوفد المصرى المشترك التى تقدم بها إلى المؤتمر أن الانفصال عن تركيا ليس رغبة الاحتلال وحده بل رغبة المصريين كذلك، وإذا كانت الظروف تقتضى إقرار صحة ذلك المطلب بعد تولى الحكومة الكمالية فى تركيا وتغير الأوضاع عن ذى قبل، فإن ذلك ليس مبرراً كافيا لتخلى الحزب الوطنى عن موقفه من فكرة الجامعة الإسلامية التى وصف من خلالها بالتطرف، وهجرها إلى سياسة وطنية، كان الوفد قد سبقه فيها، الأمر الذى أفقده شعبيته لصالح الوفد وجعله من أحزاب الأقلية(3).

---

(١) راجع: حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية، مرجع سابق، ص ٣٢، ٣٣.

(٢) نجلاء عز الدين ، *العالم العربى*، مرجع سابق، ص ١٥٣ .

(٣) زكريا سليمان بيومى : الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية، فى الحياة السياسية المصرية، ١٩٢٨، ١٩٤٨ . مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٧٩، ص ٤١.

وبهذا التوجه الجديد للحزب الوطنى فى أعقاب ثورة ١٩١٩ لم يعد فى مصر قوة حزبية سياسية تدعو للجامعة الإسلامية أو تنادى بهذا المفهوم السياسى فى الإسلام، وقد انجرف الحزب الوطنى بعد موت زعيمه محمد فريد وغياب الشيخ عبد العزيز جاويش فى التيار العلمانى الوطنى الذى قاده حزب الوفد، الأمر الذى جعل الساحة السياسية المصرية خالية من قوة سياسية متوازنة فى انتمائها الوطنى والإسلامى كالتى كان عليها الحزب الوطنى منذ بزوغه وقيادته للحركة الوطنية وحتى وفاة فريد الذى كان لوفاته أكبر الأثر فى نفوس المصريين نظراً لسيرته، وكفاحه وجهاده فى سبيل الوطن وقد رثاه حسن البنا بأبيات قال فى مطلعها :

أفريد نم بالأمن والإيمان ∴ أفريد لا تجزع على الأوطان(١).

دستور ١٩٢٣:

وفى ١٩ أبريل ١٩٢٣م صدر الدستور المصرى، وبه نجح الإحتلال فى إقناع ساسة مصر بلعبة جديدة هى لعبة الانتخابات والمجالس النيابية والصراع على كراسى الحكم لكن الدستور فى حد ذاته لم يكن منسجما مع الواقع أو كما قال عنه أحد مشرعيه وهو عبد العزيز فهمى إنه «ثوب فضفاض» وذلك لكونه منقولا فى أغلبه عن الدساتير الغربية التى لا تلائم نصوصها حالة البلاد(٢).

ومع هذا كله، فقد رسم الدستور المصرى الإطار العام للحياة السياسية المصرية، وكان صدور هذا الدستور يمثل عقبة أمام الملك فؤاد، ملك مصر، إذ كان الملك يميل إلى عدم إصدار الدستور لأنه يقيد سلطاته، ويجعل الحكم مرجعه إلى الشعب(٣).

إلا أن أغلب رجال القانون ذهب إلى أن دستور ١٩٢٣، كان قد صدر كمنحة من ولى الأمر -الملك- بينما يرى رجال الوفد أن الدستور عبارة عن عقد، لأنه نص على مبدأ سيادة الأمة الذى يتعارض مع اعتباره منحة(٤).

(١) حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية، مرجع سابق، ص ٣١.

(٢) زكريا سليمان بيومى، الإخوان المسلمون، مرجع سابق، ص ٤٢.

(٣) سامى أبو النور، دور القصر فى الحياة السياسية فى مصر، ١٩٢٢ - ١٩٣٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٥، صـ ٦٤ وما بعدها.

(٤) عبد العظيم رمضان، تطور الحركة الوطنية فى مصر، ١٩١٨ - ١٩٣٦، دار الكاتب العربى، القاهرة، الطبعة الأولى، بدون تاريخ، صـ ٣٩٤.

وجاء فى أول مواد الدستور، التى بلغت ١٧٠ مادة، أن مصر دولة ذات سيادة وهى حرة مستقلة وملكها لا يتجزأ، ولا يُنْزَل عن شىء منه، وحكومتها ملكية وراثية وشكلها نيابى، وأن عرش المملكة المصرية وراثى فى أسرة محمد على، وتكون وراثة العرش وفق النظام المقرر، وأن جميع السلطات مصدرها الأمة، وأن المصريين متساوون فى التمتع بالحقوق المدنية والسياسية، وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة، وأن حق ولاية المناصب مقصور على المصريين، ولا يولى الأجانب من هذه المناصب إلا ما يعينه القانون فى أحوال استثنائية(١).

ولقد تمتع الملك فى ظل دستور ١٩٢٣ بصلاحيات واسعة، فقد كان يملك ويحكم على عكس ما تقضى به تقاليد النظام البرلمانى، بل إنه لم يكتف بذلك إذ لم يتورع عن انتهاك الدستور والخروج بالكلية على قواعد الممارسة البرلمانية الديمقراطية، وليس أدل على ذلك من أن جميع البرلمانات خلال العهد الملكى قد حُلت قبل أن يكمل أى منها مدته القانونية، اللهم إلا برلمان عام ١٩٤٥، حيث كان الوحيد الذى استمر إلى نهاية مدته المقررة قانونيا، وقد أدى تمادى الملك فى الإقدام على حل البرلمان إلى ايجاد درجة عالية من عدم الاستقرار السياسى وتعطيل الحياة النيابية إلى حد إلغاء الدستور ذاته وإصدار دستور آخر عام ١٩٣٠(٢).

وفى سبيل الاحتفاظ بأكبر قدر ممكن من السلطة والمشاركة الفعلية فى صنع القرار السياسى، سعى الملك إلى تشجيع قيام بعض الأحزاب فى إطار الشرعية القائمة لتكون أداة طيعة فى يديه لتحقيق أهدافه وقد سميت «بأحزاب القصر» وبصفة عامة أيد الإنجليز اتجاه القصر فى توسيع سلطاته، أما الأحزاب -فيما عدا الوفد- فقد كانت على استعداد للتعاون مع الملك والهجوم على الوفد بشكل أو بآخر، فى إطار الصراع الحزبى والسعى الدائم من قبل الجميع للوصول إلى مقاعد الحكم، حتى ولو أدى الأمر إلى التغاضى عن قواعد اللعبة البرلمانية وانتهاك مبادىء الدستور، وعدم احترام الشعارات المرفوعة(٣).

---

(١) عبد الرحمن الرافعى، فى أعقاب الثورة المصرية، ثورة ١٩١٩، جـ ١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٥٩، صـ ١١٦.

(٢) على الدين هلال، السياسة والحكم فى مصر، العهد الليبرالى ١٩٢٣ - ١٩٥٢، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٧، صـ ٢٤٩.

(٥) السابق نفسه، صـ ١٩٠.

ومن هنا يتضح أن الحكم فى مصر فى ظل دستور ١٩٢٣، كان يهيمن عليه القصر من جانب والأحزاب السياسية من جانب آخر، وفى أول انتخابات برلمانية تمت بعد صدور قانون الانتخابات فى ٣٠ أبريل ١٩٢٣، وهو أول قانون انتخابات فى عهد دستور ١٩٢٣، أسفرت نتائج هذه الانتخابات عن أغلبية هائلة للوفد، وصدر المرسوم الملكى يوم ٢٨ يناير ١٩٢٤ بتأليف وزارة الوفد بزعامة سعد زغلول، وفى ١٥ مارس ١٩٢٤ افتتح البرلمان، وكان يوما مشهودا فى تاريخ مصر الحديث، إذ إنه لأول مرة منذ وقع الاحتلال ١٨٨٢ يجتمع نواب البلاد المنتخبون انتخابا حراً فى برلمان تتمثل فيه سلطة الأمة(١).

الموقف من القضية الوطنية:

ولقد اتضح موقف الوفد من القضية الوطنية (الاستقلال) بعد تشكيل سعد زغلول الوزارة فى يناير ١٩٢٤، إذ حدثت اتصالات بين سعد ومكدونلد رئيس وزراء بريطانيا، أبدى فيها استعداد حكومته للمفاوضة مع الحكومة المصرية، وتمت المفاوضات وكانت مطالب سعد التى يراها كفيلة بتحقيق الاستقلال التام هى:

١ - عدول الحكومة البريطانية عن دعواها، حماية الأجانب والأقليات فى مصر.

٢ - عدول الحكومة البريطانية عن دعواها، الاشتراك بأية طريقة كانت فى حماية قناة السويس.

٣ - زوال كل سيطرة بريطانية عن الحكومة المصرية..

٤ - سحب جميع القوات البريطانية من الأراضى المصرية.

٥ - سحب المستشار المالى والمستشار القضائى من مصر.

٦ - استمساكه بالنسبة للسودان بتصريحاته التى أدلى بها فى البرلمان المصرى(٢).

وإذا كان حزب الوفد اتخذ المفاوضات سبيلا لحل القضية المصرية واستقلال البلاد من الاحتلال، فإن حزب الأحرار الدستوريين، اتخذ قاعدة التساهل مع الإنجليز

---

(١) عبد الرحمن الرافعى، فى أعقاب الثورة المصرية، جـ ١، مرجع سابق، صـ ١٣١ وما بعدها.

(٢) السابق نفسه، صـ ١٧٨.

للوصول إلى حل القضية المصرية، وكان أعضاؤه يفاخرون بهذه السياسة، ويسمونها كياسة، ولقد حرص على هذه السياسة منذ تأليفه وفى أطوار نشاطه، فلم تُذكر فى برنامجة كلمة الجلاء[١].

أما الحزب الوطنى، فمع تسليمنا بضعفه خاصة بعد ظهور حزب الوفد بعد ثورة ١٩١٩ إلا أنه سلك أسلوبا فى الكفاح من أجل القضية الوطنية، ميزه عن مجموعة الأحزاب الأخرى، هذا المسلك هو امتداد لأسلوبه القديم، المتمثل فى تمسكه بمبدأ «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء» فضلا عن تمسك أعضائه بمبدأ عدم الاشتراك فى الحكم، برغم دخولهم الانتخابات ووجود أعضاء منهم فى المجالس النيابية حيث تولوا جانب المعارضة[٢].

والحزب الوطنى، على الرغم من أنه اتخذ من قضية الاستقلال محورا لنضاله إلا أن إحجامه عن المشاركة الفعلية أو التجاوب مع التطورات السياسية والتشريعية التى تمر بها البلاد، ثم رفضه للمفاوضات إلا بعد الجلاء، فى الوقت الذى أبدى فيه الوفد -برصيده الشعبى الضخم -استعداده للتفاوض، بل وتفاوض فعلا مع الإنجليز، كل ذلك أظهر الحزب الوطنى أمام البلاد، وكأنه يمثل سلبية العمل الوطنى، وانعكس أثر ذلك على الحزب نفسه، فأصبح كشأن أحزاب الأقلية فى ضآله رصيدها الشعبى[٣].

أما موقف القصر من القضية الوطنية، فكانت تتجسد فى محاولته وضع العراقيل أمام أية مفاوضات تجرى بين مصر وانجلترا، ويرجع ذلك إلى اقتناع الملك فؤاد بأن أى تسوية مع الجانب البريطانى لن تتم إلا على يد حكومة وفدية، أو على الأقل حكومة تحظى بتأييد الوفد، وذلك سوف يؤدى حتما إلى نتيجتين أولاهما: تعاظم نفوذ الوفد وتزايد تأثيره السياسى سواء فى الداخل أو الخارج،، والنتيجة الثانية: وهى مترتبة على الأولى وتتمثل فى تزايد عزلة القصر وتدهور نفوذه، فضلا عن أنه سوف يستهدف لهجوم القوى الوطنية بصورة أساسية[٤].

---

(١) السابق نفسه، صـ ٦٩.

(٢) زكريا سليمان بيومى، الحزب الوطنى ودوره فى السياسة المصرية ١٩٠٧ - ١٩٥٣ الفاروقية لتوكيلات الطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨١، صـ ١٦٧.

(٣) سامى أبو النور، دور القصر فى الحياة السياسية فى مصر ١٩٢٢ - ١٩٣٦، مرجع سابق، صـ ١٦٣.

(٤) السابق نفسه، صـ ١٩٠.

ويبدو أن موقف القصر من المفاوضات وكان مرتبطا بعلاقة المفاوضات بحزب الوفد، إذ إن القصر لم يؤيد أية مفاوضات مع إنجلترا كان يقوم بها الوفد، وذلك نكاية فيه وخوفا منه، ولكن عندما بدأت مفاوضات محمد محمود هندرسن فى ١٩٢٩، منح القصر تأييدا حقيقيا لهذه المفاوضات خلافا لما سارت سياسته فى السابق[1].

ومهما يكن من أمر فإن دستور ١٩٢٣م، وإن كان قد عبر عن نجاح الحركة الوطنية إلا أنه لم يسلم من النقص إذ إنه يرسى قواعد «الدولة الوطنية» فى مصر، ووفقاً لهذا المفهوم الذى عرفته النظم الأوربية كان لابد أن تكون علاقة الدين – وهو هنا الإسلام – بالدولة علاقة ليست أساسية، وهذا ما حدث بالفعل إذ نص ذلك الدستور فى المادة ٤٩ منه على «أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام» ولم يكن لهذا النص أى أثر يذكر سواء على بقية نصوص الدستور التى كانت مفعمة بالأفكار العلمانية البحتة، وأن بعض التشريعات والقرارات كانت تضاد تعاليم الإسلام مباشرة كالتصريح بخانات الخمر ولعب الميسر والبغاء[2]. إلخ. فكان هذا هو طبيعة الوضع السياسى فى مصر، إذ صارت جميع القوى السياسية، لا تأخذ فى خططها أو منهاجها السياسى البعد الإسلامى، بما فى ذلك الحزب الوطنى نفسه، وكانت نهاية هذا الاتجاه وخاتمته ذلك الدستور الذى خرج إلى الوجود فى ١٩٢٣، ولم يختلف الوضع السياسى فى تركيا عنه فى مصر، إذ إنه فى عام ١٩٢٢ تم فصل الدين عن الدولة فى دولة الخلافة العثمانية[3].

إلغاء الخلافة العثمانية :

وفى عام ١٩٢٤م قام كمال أتاتورك بإعلان إلغاء الخلافة الإسلامية، وأعلن الجمهورية، ونقل عاصمة الدولة الجديدة إلى «أنقرة» بدلا من إسلامبول، وأجرى كثيراً من التغيرات فى تركيا أبعدتها عن الإسلام، وأعلن النظام العلمانى للدولة، وألغي الأوقاف الاسلامية والتعليم الدينى، وألغي عطلة الجمعة والتاريخ الهجرى وأمر بكتابة

(١) السابق نفسه صـ ٢٣٨.
(٢) عن علاقة الدين بالدولة فى ظل دستور ١٩٢٣، أنظر بالتفصيل، إبراهيم البيومى غانم، الفكر الإسلامى للإمام حسن البنا، مرجع سابق، ص ٢١ وما بعدها.
(٣) طارق البشرى، الحركة السياسية، مرجع سابق، ص ٣٦.

التركية باللاتينية، إلى غير ذلك من الاجراءات التى غيرت وجه تركيا الاسلامي إلي الوجه العلمانى الذى يفصل الدين عن الدولة، وبهذا الموقف فقد أحدثت تركيا هزة كبيرة فى العالم الإسلامى(١).

وارتفع صوت شوقى عند ذلك بقصيدة قوية، بكى فيها الخلافة التى ماتت حين ظن الناس أنها استقبلت عهداً جديداً كله عزة فارتفع صوت الباكين يعلنون موتها المفاجئ فى صخب المحتفلين بعرسها، وكفنوها فى ثوب الزفاف، بين جزع الجازعين، وذهول الذاهلين، وعبرات الضاحكين.

يقول شوقى :

الهنـــدُ والهـةٌ ومصـــرُ حـــزينةٌ ∴ نبكـــى علـيــك بمدمــــع سحــاح

والشــامُ تســـألُ والعـراقُ وفارسٌ ∴ أمحــا مـــن الأرض الخـــلافـةَ مـــاح؟!

وهكذا انمحى هذا المجد الذى بناه المسلمون خلال القرون، وكانت الخلافة هى جهاز الربط بين المسلمين، وحزن المجتمع الإسلامى كله لسقوط خلافتهم، بعد أن خدعهم الكماليون سنوات، عديدة، وإن كان جمهور المسلمين خاصة فى مصر لم يبد معارضة عند تجريد الخلافة من سلطانها الزمنى إلا أن الأمر الذى اهتز له الوجدان الدينى فى مصر هو إلغاء الخلافة ذاتها كمنصب دينى أو كمركز لتجمع الأقطار الإسلامية(٢).

ولقد أحدث الإعلان عن إلغاء الخلافة الإسلامية فى تركيا ردود فعل عديدة فى العالم الإسلامى لمحاولة اصلاح الموقف وتدارك الأمر وسد الخرق قبل اتساعه، فعقد علماء الأزهر فى مصر مؤتمراً موسعاً فى ٢٥ مارس ١٩٢٤ برئاسة شيخ الأزهر وقرروا فى مؤتمرهم دعوة المسلمين بعد عام لاختيار خليفة، كما صدرت مجلة باسم

---

(١) أنظر التفاصيل: مصطفى رمضان، العالم الإسلامى فى التاريخ الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص ١٠٦، وأيضاً : فهمى الشناوى، المؤامرة على اسقاط الخلافة العثمانية، مرجع سابق، ص ١٧ وما بعدها.

(٢) محمد محمد حسنين، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر جـ ٢، مرجع سابق، ص ٣٢ وما بعدها.

«المؤتمر الإسلامى العام للخلافة فى مصر» رأس تحريرها الشيخ فراج المنياوى رئيس جمعية تضامن العلماء وسكرتير شيخ الأزهر، وقد صدر من المجلة بضعة أعداد ثم توقفت عن الصدور، وظهر على الساحة من يدعو لتنصيب الملك فؤاد خلافة المسلمين وما حدث في مصر عقب الغاء الخلافة حدث مثلة أو قريب منه في الحجاز والهند، ولكن كل هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح وغابت الخلافة وانمحت من الوجود بسبب التآمر العالمى [1].

ولقد كان للإنجليز والصهيونية العالمية با ع طويل وسعى دائب فى العمل على الغاء الخلافة العثمانية[2]. وزاد الطين بلة أنه في هذه الأثناء، خرج على الناس شيخ أزهرى هو على عبد الرازق بكتابة «الإسلام وأصول الحكم» وذلك فى عام ١٩٢٥م، يقول الشيخ على عبد الرازق فى كتابه هذا : إن الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ فى أمور الحياة الدنيا، وإن الرسول ﷺ ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين، لا تشوبها نزعة ملك، ولا دعوة لدولة، وإنه لم يكن للرسول ملك ولا حكومة... وأن ولاية الرسول على قومه ولاية روحية، منشؤها إيمان القلب.. وذهب الشيخ على عبد الرازق فى كتابه إلى أن الخلافة لا حاجة لنا بها لا فى أمور ديننا ولا أمور دنيانا، وأن الخلافة كانت ولم تزل نكبة على الإسلام والمسلمين[3].

والواقع أن الباحث هنا ليس فى مجال عرض ا ب وما جاء فيه من آراء وأفكار أو الرد عليه ولكن يكفى أن يشير فقط إلى أن هذا الكتاب ظهر فى توقيت خبيث !! وأن العلماء المتخصصين وقتئذ قاموا بالرد عليه وتفنيد ما جاء فيه من آراء وأقوال، وكان

---

(١) أنظر بالتفصيل صدى إلغاء الخلافة العثمانية، طارق البشرى، المسلمون والأقباط، مرجع سابق، ص ٢٨٠ وما بعدها . وأيضا، أنور الجندى، عقبات فى طريق النهضة، مرجع سابق، ص ٦٩، والباحث يرى أن انعقاد هذه المؤتمرات فى هذا التوقيت للمطالبة بعودة الخلافة، شابها العديد من الأطما ع من قبل الملوك والأمراء، وقد كان الملك فؤاد يطمح ويطمع فى تنصيبه خليفة، وكذلك الملك حسين وغيرهما إلا أن هذه المحاولات باءت بالفشل جميعاً.

(٢) أنظر بالتفصيل الكتاب الهام «الرجل الصنم» وهو أول كتاب بالعربية عن حياة أتاتورك بالتفصيل ألفه ضابط تركى سابق، ترجمه عبد الله عبد الرحمن، بيروت، مؤسسة الرسالة الطبعة الرابعة، ١٩٨٢ ص ٢٩٦ وما بعدها.

(٣) راجع بالتفصيل: على عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم، تقديم جابر عصفور، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص ٦٤ وما بعدها.

من أبرز العلماء الذين قاموا بالرد على هذا الكتاب الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر والدكتور ضياء الدين الريس فى كتاب قيم له باسم «الإسلام والخلافة فى العصر الحديث» ومن الذين قاموا بالرد على الشيخ على عبد الرازق أيضا الدكتور محمد عمارة والدكتور محمد رجب البيومى وغيرهم، والدراسات الثلاث الأخيرة كتبت بعد وفاة الشيخ على عبد الرازق(١). ولا يفوت الباحث فى هذا الصدد أن ينوه بموقف الأزهر من كتاب الشيخ على عبد الرازق إذ اجتمعت هيئة كبار العلماء بالأزهر وأعلنت خطأ المؤلف فى أصل من أصول الإسلام، وذلك بالدليل الناهض والحجة الواضحة وأنه لا صحة إطلاقاً لما أشيع بأن الأزهر هاجم الكتاب لرغبة الملك فؤاد فى تولى الخلافة، وأن الملك استعان بالأزهر فى الهجوم على الكتاب المذكور!! وحتى لو فرضنا أن الملك كان ذا هوى فى الخلافة، فهل يمنع ذلك علماء الأزهر أن ينطقوا بالحق فى قضية تمس أصلا من أصول الإسلام، حين يرون أحد العلماء يخطئ فى اجتهاده، ويعلن على الناس ما يخالف هذه الأصول، وهو فى رأى الناس جميعاً عالم من علماء الأزهر، وقاض من قضاة الشرع الإسلامى له من منصبه ودرجته العلمية ما يفتن الناس بقوله؟!(٢).

ولقد فشلت كل محاولات إنقاذ الخلافة واعادتها، وبذلك أصبح العالم الإسلامى كله ولأول مرة فى التاريخ بلا خلافة، صحيح أن الخلافات الإسلامية تتابعت وتبدلت.. لكن ما إن تسقط خلافة حتى تقوم على إثرها خلافة أخرى حتى جاءت النهاية على يد كمال أتاتورك وجمعية الاتحاد والترقى بتركيا.

دور الأحداث السياسية فى تشكيل الوعى السياسى:

ولا شك أن هذه الأحداث الخطيرة فى حياة الأمة، كان لها مالها من تأثير فى شخصية حسن البنا، وذلك منذ أن اندلعت ثورة ١٩١٩، واشتراكه فى المظاهرات

---

(١) محمد رجب البيومى، كتاب الإسلام وأصول الحكم فى الميزان، هدية مجلة الأزهر، صفر ١٤١٤ هـ والذى فند فيه أيضاً ما كتبه جابر عصفور فى مقدمة المرجع السابق، ص ٧ وما بعدها.

(٢) أنظر بالتفصيل موقف الأزهر من كتاب الإسلام وأصول الحكم، محمد رجب البيومى، الأزهر بين السياسة وحرية الفكر، القاهرة مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٩٣م ص ١٤٣ – ١٦١ والجدير بالذكر أن هيئة العلماء قررت بعد مراجعة أفكار الكتاب، مصادرته وإخراج الشيخ عبد الرازق من زمرة العلماء، وسحب شهادة العالمية منه.

والاضرابات فى بلدته المحمودية، وكتابته لبعض الأبيات الشعرية التى تندد بالاحتلال الانجليزى[1]. فأخذ وعيه السياسى ينمو شيئاً فشيئاً حتى أصبح يحمل بين جوانحه هموم الأمة ومشكلات المجتمع، وصار يفكر فى أمر إصلاح ما فسد، وبناء ما تهدم، فما إن وصلت أقدامه القاهرة حتى اتصل بالجمعيات الإسلامية كجمعية مكارم الأخلاق الإسلامية، وصار عضوا مشتركاً بها يحافظ على ندواتها ومحاضراتها، وبدأ فى التفكير لتكوين دعاة إسلاميين لنشر المبادئ والمفاهيم الإسلامية، وقام بالاتصال المباشر بالعديد من الشخصيات الإسلامية كالأستاذ محب الدين الخطيب والشيخ رشيد رضا صاحب المنار، والشيخ يوسف الدجوى ومفاتحة الأخير فى شأن وحال الأمة وما وصلت إليه من تحلل وتخلف وضياع، وبعد لقاءات وجلسات توصل حسن البنا مع الشيخ يوسف الدجوى إلى عمل يخدم الإسلام والمسلمين، وكان من ثمار هذا العمل إصدار مجلة الفتح الإسلامية وإنشاء جمعية الشبان المسلمين[2].

والذى يدلل على حرص البنا على الدعوة والعمل لنصرة الإسلام، وإرشاد المسلمين إلى طريق العزة والفلاح، ما سجله حسن البنا نفسه فى مذكراته بشأن موضوع الإنشاء الذى كتبه فى السنة النهائية فى دار العلوم والموضوع كان عنوانه : «إشرح أعظم آمالك بعد إتمام دراستك، وبين الوسائل التى تعدها لتحقيقها» وكتب البنا يقول : «أعتقد أن خير النفوس تلك النفس الطيبة التى سعادتها فى إسعاد الناس وإرشادهم، وتستمد سرورها من إدخال السرور عليهم، وذود المكروه عنهم، وتعد التضحية فى سبيل الإصلاح العام ربحا وغنيمة، والجهاد فى الحق والهداية - على توعر طريقهما وما فيه عن مصاعب ومتاعب - راحة ولذة، وتنفذ إلى أعماق القلوب فتشعر بأدوائها، وتتغلغل فى مظاهر المجتمع فتتعرف ما يعكر على الناس صفاء عيشهم ومسرة حياتهم، وما يزيد من هذا الصفاء، ويضاعف تلك المسرة[3].

---

(١) راجع : حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية، مرجع سابق، ص ٣١، ٣٢.

(٢) صدرت مجلة الفتح عام ١٩٢٦، رأس تحريرها الشيخ عبد الباقى سرور ومديرها محى الدين الخطيب ثم آل تحريرها وادارتها اليه، فنهض بها خير نهوض، وكانت مشعل هداية ونور لهذا الجيل من شباب الإسلام المثقف الغيور وفى عام ١٩٢٧م أنشئت جمعية الشبان المسلمين برئاسة عبد الحميد سعيد، انظر حسن البنا، المرجع السابق، ص ٤٩ - ٥٨.

(٣) راجع بالتفصيل، نص موضوع الانشاء الذى كتبه الأستاذ البنا فى امتحان السنة النهائية فى دار العلوم، معبرا فيه عن آماله وطموحاته، التى تحققت فى حياته، حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية، مرجع سابق، ص ٥٨ - ٦١.

لقد سيطرت فكرة الاصلاح على تفكير حسن البنا، والعمل لإعادة مجد الإسلام، وسد الثغرات التى بدت فى أرجاء الأمة، ومن الانصاف أن نذكر هنا أن هذا الروح التى كان يملكها حسن البنا، والرغبة الصادقة فى العمل للإسلام كانت لدى كثير من أبناء الأمة حينئذ وإن كانت ولا شك بدرجات متفاوتة، ذلك لأن الفترة التى ظهر فيها الإخوان المسلمون كانت فترة توجه إسلامى عام، آية ذلك ظهور الشبان المسلمين وبعد ذلك ظهور مصر الفتاة بصورتها التى كانت عليها (١).

ولكن السؤال الذى يطرح نفسه الآن هو : إذا كانت جمعية الشبان المسلمين أنشئت بالقاهرة قبل ظهور جماعة الإخوان المسلمين بالإسماعيلية بعام واحد، وكان حسن البنا عضواً بها - أى بالشبان- فلماذا أقدم البنا على إنشاء وتكوين جمعية الاخوان المسلمين؟

ولا شك أن هذا التساؤل مهم وكثيراً ما يطرحه الشباب.. والجواب عليه فى غاية البساطة والسهولة وذلك عندما نقف على المادة الثانية من قانون جمعية الشبان المسلمين الأساسى الذى ينص على عدم التدخل فى السياسة، حيث يرد نص المنع على الصورة الآتية : تعمل الجمعية على توثيق الصلات والروابط بين الشعوب الإسلامية، وعلى الدفاع عن حقوقها ومصالحها كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا، ولا تتعرض هذه الجمعية للمنازعات السياسية بأى حال»(٢).

ومعلوم أن السياسة جزء لا يتجزأ عن الاسلام إذ أن الإسلام «نظام شامل كامل يتناول مظاهر الحياة جميعا فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواءً»(٣).

---

(١) طارق البشرى، الحركة السياسية فى مصر، مرجع سابق، ص ٤٠ من المقدمة.

(٢) راجع بالتفصيل، اسحاق الحسينى، الاخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة، بيروت، دار بيروت، الطبعة الأولى، بدون تاريخ، ص٤ - ١٤.

(٣) حسن البنا، مجموعة الرسائل، رسالة التعاليم، مرجع سابق، ص ٢٦٨.

وإذا كان حسن البنا يفهم الإسلام على هذا النحو، فإن جمعية تنص فى قانونها الأساسى على عدم التدخل فى السياسة، فإنه ولا شك يراها غير مؤدية للغرض والهدف الكبير الذى يسعى إلى تحقيقه، فكان ولابد من جماعة تملأ هذا الفراغ وتسد هذا الثغر وتجبر هذا العجز، فكانت جمعية «الإخوان المسلمون»، وإنشاء الشيخ البنا لجمعية الإخوان لا يعنى أنه نفض يده من جمعية الشبان المسلمين، بل على العكس ظلت علاقته بها قوية وعلى أحسن ما تكون بل إن صالح حرب الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين كثيرا ما كان يعلن بأن دعوة الشبان والإخوان واحدة فى الغرض والهدف، ومن يعمل للتفرقة بيننا فليس منا، وسنعمل معا حتى تعلو كلمة الدين وتنال البلاد استقلالها(١).

وكان حسن البنا يحمل نفس الشعور تجاه الشبان المسلمين بل وغيرها من الجمعيات الإسلامية لأنه يرى أن كل مخلوق ميسر لما خلق له، وأن كل جمعية تقدم للإسلام ما تستطيع أن تقدمه من خدمات؛ فهذه تحارب البدعة وتدعو إلى السنة، وهذه تدعو إلى مكارم الأخلاق وتلك تنشيء المدارس وتبنى المساجد وأخرى ترعى اليتامى وتكفل المساكين إلى غير ذلك من أعمال الخير ومسالك البر، وكل عمل من هذه الأعمال له قدره وشأنه فى رفعة الإسلام وخدمة المسلمين وذلك لأن «فى ميدان الجهاد متسع للجميع»(٢).

لكن الذى كان يحز فى نفس الشيخ البنا هؤلاء الذين يعيشون فى عالم النسيان لا يتألمون لحال المسلمين ولا يفكرون فى عمل جاد يعود على الأمة وأبنائها بالخير والنفع، بل راحوا يقلدون الغرب فى المجون والخلاعة. هذا الحال هو الذى كان يؤرق البنا، ويؤلمه، ويحمله على التفكير فى حل وعمل يخرج الأمة من أزمتها وضياعها فيقول :

---

(١) إسحاق موسى الحسينى، الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية الحديثة، بيروت، دار بيروت، الطبعة الأولى، بدون تاريخ ص٤ وتعتبر أخصب فترات التعاون بين الشبان والإخوان هى فترة، عبد الحميد سعيد وصالح حرب وعلى الأخص الأخير، وذلك يرجع إلى طبيعتة الحربية الجهادية، وصلته الوثيقة بالأستاذ البنا ولذلك كثيراً ما كتب صالح حرب فى صحف الإخوان المسلمين منافحا عن الإسلام ومدافعاً عن المسلمين وقضاياهم خاصة القضية الفلسطينية.

(٢) حسن البنا، مجموعة الرسائل، المؤتمر الخامس، مرجع سابق، ص ١٨٣.

ليس يعلم أحد إلا الله كم من الليالى كنا نقضيها هو وثلاثة رفاق جالت فى أذهانهم الفكرة - نستعرض حال الأمة، وما وصلت إليه فى مختلف مظاهر حياتها، ونحلل العلل والأدواء، ونفكر فى العلاج وحسم الداء، ويفيض بنا التأثر لما وصلنا إليه إلى حد ا . ء، وكم كنا . . . إذ نرى أنفسنا فى مثل هذه المشغلة النفسانية العنيفة، والخليون هاجعون يتسكعون بين المقاهى ويترددون على أندية الفساد والإتلاف، فإذا سألت أحدهم عما يحمله على هذه الجلسة الفارغة المملة قال لك : أقتل الوقت، وما درى هذا المسكين أن من يقتل وقته إنما يقتل نفسه، فإنما الوقت هو الحياة(١).

المهم هنا، أن حسن البنا رأى أن الوقت قد حان لعمل يجمع الأمة من جديد تحت لواء هذا الدين الخالد، وكان ولابد من هذا العمل، إذ إن كل الأوضاع فى حياة الأمة تدعو إلى بعث جديد، البلاد محتلة، والأحزاب فى صراع لا ينتهى والملك فى حياة من الذل والانكسار، والخلافة الإسلامية ألغيت، ونحى الدين عن الحياة، ولم يكن بقى من الأبنية السياسية القائمة فى البلاد ما يمكنه من أن يعبر عن الدعوة الإسلامية بمفهومها الشامل أو يمثلها، ولم يعد الحزب الوطنى بعد ١٩١٩ م يصلح وعاءً يتسع لمثلها، كما أن إلغاء الخلافة صار أوجب على الدعوة الإسلامية به أن تبدأ من واقع غير الواقع الذى كان الحزب الوطنى يعمل فيه، ثم إنه بعد حلول الوفد محل الحزب الوطنى فى قيادة الحركة الوطنية لم يعد للإسلام تعبير سياسى بالدرجة المعقولة، ومن ثم بدأت الدعوة الإسلامية تتبلور فى مناهج وأبنية تنظيمية، وكان ذلك تحديداً عام ١٩٢٨ عندما قامت دعوة وجماعة الإخوان المسلمين فى مدينة الاسماعيلية(٢).

ولا شك أن ظهور جماعة الإخوان المسلمين فى هذا التوقيت، جاء نتيجة لعوامل دينية واجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية كثيرة، فما إن مرت تسع سنوات فى مصر على تولى التيار الذى يفصل الدين عن الحياة، دفة الحركة الوطنية، وانكماش التيار الوطنى الإسلامى، وما مرت أربع سنوات على إعلان الغاء الخلافة الإسلامية حتى أذن الله تعالى لدعوة وجماعة تنادى بالإسلام دينا ودولة، وتدعو المسلمين إلى

(١) حسن البنا، مجموعة الرسائل، رسالة المؤتمر الخامس، مرجع سابق، ص ١٥١ .
(٢) أنظر بالتفصيل: المقدمة الرائعة التى كتبها المستشار طارق البشرى، بالطبعة الثانية لكتابه الهام، الحركة السياسية فى مصر، مرجع سابق، ص ٣٤: ٦٧.

الوحدة والترابط، حقا لقد كان العالم الإسلامى فى أمس الحاجة إلى حركة إصلاحية واعية ودعوة إسلامية شاملة، فكانت حركة الإخوان المسلمين، التى يقول عنها مؤسسها الشيخ حسن البنا بأنها: هى دعوة الخلاص والإنقاذ، وأن الدنيا لن تجد سعادتها وطمأنينتها وسلامها إلا فى ظل هذه الدعوة القدسية من وحى السماء بعد أن أشقتها وعذبتها نظم الأرض المبنية على المطامع والأهواء، فهذه الدعوة هى مظهر إرادة الله النافذة وقدرته الغالبة.. وكم اخترنا لأنفسنا واختار الله لنا فكان الخير فيما اختاره الله وأنفذه(١).

دستور ١٩٣٠:

وفى خلال الفترة من ١٩٣٠ – ١٩٤٠، جرت أحداث سياسية، كان لها أكبر الأثر فى مستقبل القضية الوطنية، وتاريخ مصر المعاصر، ففى يونية ١٩٣٠ شكل إسماعيل صدقى باشا الوزارة، وكان من أشهر ما قامت به وزارة صدقى، أن أعلنت عن إلغاء دستور ١٩٢٣، وإصدار دستور ١٩٣٠، ولقد صدر بذلك مرسوم ملكى، وصدر فى التوقيت نفسه أمر، بحل مجلسىّ النواب والشيوخ القائمين، وبذلك تم هدم النظام الدستورى ووضُع بدلا منه نظام لا دستورى، بأمر من الملك فؤاد، وتنفيذ إسماعيل صدقى(٢).

ولقد حدثت ردود فعل عنيفة، تجاه صدقى بسبب إلغائه لدستور ١٩٢٣، ومن ثم، حاول صدقى أن يغطى على هذا الخلل الداخلى، بنجاح على المستوى الخارجى عن طريق المفاوضات مع الإنجليز ولكنه لم ينجح، ويبدأ عام ١٩٣٣، بداية غير طيبة، على حد تعبير الدكتور الريس – بالنسبة لصدقى، فقد وقع خلاف شديد فى داخل الوزارة أدى إلى أن قدم صدقى استقالته، ثم أعاد تشكيل الوزارة بعد إخراج وزيرين منها.. ونتيجة لكثرة الضغوط التى مر بها صدقى، وقع مريضا، مصابا بالشلل، فسافر إلى أوربا للعلاج(٣).

وكان قد مضى على صدقى ثلاث سنوات، وهو فى عمل متواصل، يتحمل أعباء وزارتى الداخلية والمالية، إلى جانب رئاسة الوزراء، وكان قد أصيب بخيبة أمل حين

(١) حسن البنا، «الإخوان المسلمين»، اليومية، العدد (٧٢١) ٧ سبتمبر ١٩٤٨، السنة الثالثة. ص ١.

(٢) ضياء الدين الريس، الدستور والاستقلال والثورة الوطنية ١٩٣٥، جـ ١، دار الشعب القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٥، صـ ٦٥.

(٣) السابق نفسه، صـ ١٧٠.

تيقن أن الإنجليز، لم يهتموا بأمره، ولا يريدون أن يعقدوا اتفاقا معه.. فنتيجة لهذا الإجهاد المتواصل فى غير طائل، والشعور الحاد بخيبة الأمل، وقع صدقى مريضا فى فبراير ١٩٣٣، واضطر حينئذ إلى الاعتكاف والانصراف إلى علاج نفسه، وظلت الأمور راكدة، والأحوال متجمدة، والشعب فى شقاء يعانى الأزمة الاقتصادية التى كانت مستمرة وهو صابر متذمر يكظم غيظه، ويرقب ما يأتى به الزمن من تطورات(١).

وكان هذا التطور، قد واكب ما أعلن فجأة من أن الحكومة البريطانية قررت نقل مندوبها السامى من مصر، وهو السير «برسى لورين» إلى تركيا حيث عينته بدلا منه السير «مايلز لا مبسون» ليكن هو المندوب السامى لبريطانيا فى مصر، بعد أن كان وزيرا مفوضا لها فى الصين(٢).

وتستقيل وزارة صدقى، وتشكل وزارة جديدة برئاسة عبد الفتاح يحيى باشا، فى سبتمبر ١٩٣٣، خلفا لإسماعيل صدقى، وتبدأ الوزارة حياتها بمحاولة تحسين صلتها بالأحزاب المعارضة، وأن تجعل صلتهم بها صلة مودة وتفاهم.(٣).

وكان من أهم أعمال وزارة عبد الفتاح يحيى التى نفذتها، أن ألفت لجنة للتحقيق فى الاتهامات التى وجهت إلى وزارة صدقى وإلى كبار الموظفين والمسئولين فيها، وكذلك اتخذت هذه الوزارة بعض إجراءات لمعالجة آثار الأزمة الاقتصادية التى كانت لا تزال تعانيها البلاد، فأصدرت قانونا بتخفيض الايجارات الزراعية(٤).

وفى أواخر عام ١٩٣٤ قدمت وزارة عبد الفتاح يحيى استقالتها، وبناها على أساس أنه لا يسعه قبول رغبات الحكومة البريطانية، دون تفريط فى حقوق البلاد، وتألفت بعدها وزارة محمد توفيق نسيم باشا، وذلك فى ١٥ نوفمبر ١٩٣٤، وجاءت هذه الوزارة، على رغبة الشعب، وقد أمل عليها كثيرا، ولم تلبث الوزارة أن بدأت بتحقيق ما يأمله الشعب، فكان أول عمل لها أن استصدرت الأمر الملكى بإلغاء دستور ١٩٣٠، أى

---

(١) السابق نفسه صـ ١٧٧.

(٢) السابق نفسه، صـ ١٧٧.

(٣) محمد حسين هيكل، مذكرات فى السياسة المصرية، جـ ١ دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٧٧، صـ ٢٩٢.

(٤) ضياء الدين الريس، الدستور والاستقلال، مرجع سابق، صـ ١٨٣.

الدستور الذى أراد صدقى ومن وراءه، أن يفرضوه على البلاد فرضا، وانتهى بذلك العهد، الذى بدأ فى ٢٠ يونية ١٩٣٠، حين قام صدقى بانقلابه على الدستور، وكانت مدة بقاء هذا العهد، أربع سنوات، وخمسة أشهر، وعشرة أيام، وقد كان هذا عهداً ضاع من حياة مصر بدداً، وأضعف قوتها، وقد أثار إلغاء هذا النظام، موجة فرح وارتياح، لأن هذا كان نصراً لإرادة الشعب(١).

ويذهب الدكتور هيكل إلى أن الذى تحقق من إلغاء لدستور ١٩٣٠ لم يكن نصراً كاملا، لأن دستور ١٩٢٣ لم يعد، بل اكتفى الأمر الملكى بالنص على إبطال العمل بدستور ١٩٣٠، وإن كان يعترف -أى الدكتور هيكل- بأن ذلك كان انتصارا عظيما، لأنه ألغى الدستور الذى حاربناه(٢).

ومما سبق يتضح أن الصراع بين قوى المجتمع أحد مظاهر الاهتزاز السياسى، فالقصر بأوتوقراطيته المعتادة ظل يعمل جاهدا على نقل مقاليد الأمور إلى ساحته، ولكنه لم يتمكن من ذلك إلا بالاعتداء على الدستور، أما الوطنيون فقد كانوا حريصين كل الحرص على الاحتفاظ بما تم لهم من مكاسب كفلها لهم الدستور فإذا أضفنا إلى ذلك دور الانجليز إلى ذلك دور الانجليز فى الانقلابات التى تعرض لها الدستور، فإن لم يكن وراء حدوثها فهم لا أقل من أنهم قد أحسنوا استغلالها إلى أبعد الحدود لصالحهم(٣).

محاولة إعادة دستور ١٩٢٣:

وفى عام ١٩٣٥، ينتهز حزب الوفد، وهو الحزب الشعبى الكبير فى مصر، جو الحرية والاطمئنان الذى ساد البلاد، وإمكان عقد الاجتماعات، وإظهار النشاط السياسى، فقرر أن يجدد نشاطه، وينظم صفوفه، ويقوى تأثيره فى الشعب، فقرر عقد مؤتمر سياسى كبير فى يناير ١٩٣٥، وكان قد أعلن عنه فى ديسمبر ١٩٣٤، وأراد الوفد أن لا يكون هذا المؤتمر مجرد تجمع سياسى، ولكن مؤتمر لبحث جوانب الحياة المتنوعة فى مصر، تمهيدا لوضع برنامج شامل لإصلاح أحوال البلاد، فكان مؤتمرا

(١) السابق نفسه، صـ ١٩٨.
(٢) محمد حسين هيكل، مذكرات فى السياسة المصرية، مرجع سابق، صـ ٣٠٦.
(٣) أمال السبكى، التيارات السياسية فى مصر ١٩١٩ - ١٩٥٢، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٢، صـ ٩٩.

كبيرا حضره أكثر من ثلاثين ألفا، وكان هذا المؤتمر ولا شك، حدثا ضخما فى حياة البلاد. طالب المؤتمر، بوجوب عودة دستور ١٩٢٣ كاملا غير منقوص، حتى تستأنف البلاد فى ظله الحياة الديمقراطية الحرة، ويستقر الأمر فيها(١).

والواقع أن نسيم باشا كان قد أبلغ الإنجليز، منذ تولى الحكم، أن الأمة تريد إعادة دستور ١٩٢٣، وإعادة الحياة النيابية على أساسه، كما تريد إبرام معاهدة مع إنجلترا لتحديد مركز كل من الدولتين إزاء الأخرى، وترقبت البلاد طويلا أن يتحقق الواحد أو الآخر من هذين المطلبين، فلما انقضت الأشهر، ولم يجب الإنجليز نسيم باشا، ازداد هجوم المعارضة لحكومة نسيم باشا، وكان مما قاله محمد محمود باشا فى هذا الصدد، مهاجما وزارة نسيم باشا: «إنها ردت السلطة المصرية البحتة إلى أيدى الإنجليز» إذ جعلت إعادة الدستور والحكم النيابى فى مصر رهنا بمشيئة الإنجليز، مع أنها فى الصميم من سيادة مصر، ولا يجوز أن يكون لدولة أجنبية سلطان فى أمرها(٢).

وكان لهذا الموقف من وزارة نسيم باشا، وهجوم المعارضة الشديد لها، أثر واضح فى اشتعال المظاهرات فى جميع أنحاء البلاد، خاصة فى القاهرة، وتوالت اشتباكات البوليس مع المتظاهرين.. وبلغ من شدة الهياج أن اضطر نسيم باشا، إلى أن يصدر أمراً يحظر على الصحف نشر أنباء الإضرابات والاضطرابات كما اضطرت الحكومة إلى الاستعانة بقوات الجيش والحدود لإقرار الأمن والنظام(٣).

ويشتعل الغضب الشعبى، ويتزايد القلق من جراء غموض الموقف من حيث إعادة دستور ١٩٢٣، وخاصة حينما صرح وزير خارجية بريطانيا -السير صمويل هور- تصريحات خطيرة عن النظام الدستورى، فقال: «إننا أشرنا بعدم إعادة دستورى سنة ١٩٢٣ و١٩٣٠، ما دام الأول قد ظهر أنه غير صالح والثانى لا ينطبق مطلقا على رغبات الأمة» فأثار هذا التصريح استنكارا شديدا، وقامت المظاهرات محتجة ومطالبة

---

(١) ضياء الدين الريس، الدستور والاستقلال، مرجع سابق، صـ ٢٠٦.

(٢) محمد حسين هيكل، مذكرات فى السياسة المصرية، مرجع سابق، صـ ٣١٢، ٣١٣.

(٣) ضياء الدين الريس، الدستور والاستقلال، مرجع سابق، صـ ٢٠٩ وأيضاً: محمد حسين هيكل، مذكرات فى السياسة المصرية، مرجع سابق، صـ ٣١٥.

باستقالة نسيم باشا وإعادة دستور ١٩٢٣، وفى صباح ١٢ ديسمبر ١٩٣٥، رفعت الجبهة الوطنية التى شُكلت على إثر الاضطرابات والمظاهرات، عريضتها إلى الملك مطالبة بإعادة دستور ١٩٢٣، وفى ظهر اليوم نفسه أبلغ المندوب السامى نسيم باشا عدم معارضة الحكومة البريطانية فى إعادة الدستور، وفى المساء صدر الأمر الملكى بإعادة ذلك الدستور، وبالعمل به من تاريخ انعقاد البرلمان(١).

وكانت الجبهة الوطنية التى شكلت من الأحزاب والمستقلين طالبت الملك أيضا باقالة وزارة نسيم باشا، وبالفعل تُقال الوزارة، وتعرض فكرة تكوين وزارة ائتلافية جديدة، ولكن فكرة الوزارة الائتلافية لم تتحقق، رفضها النحاس باشا، وقبلها الآخرون، فاستقر الرأى على أن يؤلف على ماهر باشا وزارة غير حزبية، بأن تجرى الانتخابات، وأن تؤلف فى الوقت نفسه، هيئة رسمية لإجراء المحادثات والمفاوضات مع الإنجليز، وقد تألفت وزارة على ماهر باشا فى ٣٠ يناير ١٩٣٦(٢).

وبدأت وزارة على ماهر فى اتخاذ الإجراءات اللازمة للبدء فى المفاوضات مع إنجلترا، وفى ١٣ فبراير ١٩٣٦ صدر مرسوم بتعيين الهيئة الرسمية لإبرام معاهدة صداقة ومودة ومحالفة مع بريطانيا العظمى، من مصطفى النحاس باشا رئيسا ومعه محمد محمود، وإسماعيل صدقى، وعبد الفتاح يحيى، وعثمان محرم، ومحمد حلمى عيسى، وعلى الشمس، وواصف بطرس غالى، والدكتور أحمد ماهر، ومكرم عبيد، وحافظ عفيفى، ومحمود فهمى النقراشى، وأحمد حمدى سيف النصر أعضاء.. وتألفت الهيئة البريطانية من السير مايلز لامبسون وقواد عسكريين(٣).

معا ة ١٩٣٦ وعهد جديد:

وفى أبريل ١٩٣٦، يتوفى الملك فؤاد، وفى اليوم نفسه، نادى مجلس الوزراء، برئاسة على ماهر، بالأمير فاروق، ولى العهد ملكا على مصر، وكان حينئذ فى إنجلترا للدراسة، وطبقا للتقاليد البرلمانية قدم على ماهر استقالة وزارته، وصدر المرسوم من مجلس الأوصياء بتعيين مصطفى باشا النحاس زعيم الأغلبية رئيسا لمجلس الوزراء،

(١) محمد شفيق غربال، تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية، جـ ١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٥٢، صـ ٢٦٧، ٢٦٨.

(١) السابق نفسه، صـ ٢٧٥.

(٢) السابق نفسه، صـ ٢٧٦، ٢٦٦.

فألف النحاس الوزارة في ١٠ مايو ١٩٣٦[١]، وبذلك أصبح النحاس باشا رئيسا للوزراء ورئيسا لهيئة المفاوضات المصرية مع الإنجليز، ولقد بدأت المفاوضات في القاهرة، واتخذت من قصر الزعفران مقرا لها، ثم في الإسكندرية بقصر أنطو نيادس، وانتهت تلك المفاوضات بوضع مشروع المعاهدة التي أمضيت في لندن بقاعة «لوكارنو» بوزارة الخارجية البريطانية في ٢٦ أغسطس ١٩٣٦، ووقع على هذه المعاهدة ممثلو الجبهة الوطنية ما عدا الحزب الوطني، فإنه رفضها لإهدارها الجلاء وهو جوهر الاستقلال[٢].

ونصت المعاهدة بين مصر وبريطانيا في ١٩٣٦ على النصوص التالية:

١ – إنهاء الاحتلال العسكري والوصاية البريطانية، مع استثناء بعض القواعد العسكرية بحجة الدفاع عن وادي النيل وقناة السويس ضد أي عدوان خارجي.

٢ – وضع الأراضي المصرية، وطرق مواصلاتها ومطاراتها وموانيها تحت تصرف الجيش البريطاني.

٣ – تخلي إنجلترا عن المصالح الأجنبية.

٤ – تعهد إنجلترا بإدخال مصر عصبة الأمم.

٥ – إبقاء السودان شركة بين مصر وإنجلترا.

٦ – تعهد الطرفين بعدم عقد معاهدة سياسية تتعارض مع مضمون تلك المعاهدة.

٧– إعادة النظر في تلك المعاهدة بعد ٢٠ عاما [٣].

ويؤكد الدكتور الريس على أن معاهدة ١٩٣٦، لم تحقق الاستقلال التام، لبقاء القوات البريطانية في أراضي مصر، ولكنها كانت اعترافا قانونيا صريحا بالاستقلال مع تقييده بهذه الالتزامات، مع دوام التحالف مع إنجلترا، وإن كانت قد احتوت على مكاسب ذات أهمية كبيرة لمصر في نواح أخرى، وهي تعد من مقومات الاستقلال، فالمعاهدة إذن كانت مرحلة نحو الاستقلال الكامل، وخطوة كبيرة نحوه، وتقدما عن

---

(١) ضياء الدين الريس، الدستور والاستقلال، مرجع سابق، صـ ١٨٥.

(٢) عبد الرحمن الرافعي، مصر بين ثورة ١٩١٩، وثورة يوليو ١٩٥٢، مركز النيل للإعلام دراسات قومية، العدد السابع، الطبعة الأولى ١٩٨٠، صـ ٢٧.

(٣) عبد العزيز علي، الثائر الصمت، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٨، صـ ١٣٩، ١٤٠.

الحالة السابقة التى كانت موجودة، وأدت إلى نوع من الاستقرار وإلى ظهور شخصية مصر فى المجالين العربى والدولى، وإلى الحد من التدخل البريطانى فى الشئون الداخلية إلا فى أوقات الحرب، وإلى حرية مصر فى بناء نفسها وتكوين جيشها(١).

ولقد أحاط حزب الوفد معاهدة ١٩٣٦ بدعاية واسعة النطاق، صاخبة الأساليب، فأكثر من رسائل التأييد والتحبيذ لها، وأقام الحفلات والمظاهرات ابتهاجا بها، وعدها فتحًا مبينا، وقال عنها النحاس قولته المشهورة التى اتخذت حجة على مصر فى مجلس الأمن سنة ١٩٤٧، أن المعاهدة: وثيقة الشرف والاستقلال، واستقبل عند عودته من لندن استقبال الغزاة الفاتحين(٢). ومن المعروف أن جميع الأحزاب المصرية اشتركت فى إبرام معاهدة ١٩٣٦، وفى مقدمتهم حزب الوفد بقيادة النحاس، إلا أن الحزب الوطنى أعلن رفضه التام للمعاهدة، ولم يشترك فى إبرامها، وذلك يرجع إلى موقفه الثابت من أسلوب المفاوضات، فلقد كان الحزب يرى أنه من غير الممكن إجراء مفاوضات فى حرية واختيار فى ظل الاحتلال، وأنه لا مفاوضة إلا بعد الجلاء» لهذا نظرا لحزب إلى مفاوضات ١٩٣٦، نظرة مماثلة لنظرته للمفاوضات السابقة، وهى أنها تجرى فى جو من الإكراه الماثل فى الاحتلال الأجنبى فكان بذلك هو الحزب الوحيد الذى قاطع هذه المفاوضات وبالتالى لم يشترك فى توقيع المعاهدة (٣).

وتنفيذًا لما نصت عليه المعاهدة من إلغاء الامتيازات الأجنبية، دعت الحكومة المصرية الدول صاحبة الامتيازات، إلى عقد مؤتمر فى مدينة «مونترو» بسويسرا، للاتفاق على إلغاء هذه الامتيازات، فعقد المؤتمر فى ١٢ أبريل ١٩٣٧، وأنهى المؤتمر أعماله فى ٨ مايو ١٩٣٧، ووقع مندوبو الدول على الاتفاقية التى عرفت باتفاقية «مونترو» ونصت المادة الأولى من الاتفاقية على أنه «تعلن الدول المتعاقدة - كل فيما يخصها - قبول إلغاء الامتيازات فى القطر المصرى إلغاء تاما من جميع الوجوه، ونصت المادة الثانية

(١) ضياء الدين الريس، الدستور والاستقلال، جـ ٢، مرجع سابق، صـ ١٩٧.
(٢) عبد الرحمن الرافعى، مذكراتى، دار الأخبار، القاهرة، كتاب اليوم، العدد (٢٩٨) سبتمبر ١٩٨٩، الطبعة الثانية، صـ ١٢١.
(٣) زكريا سليمان بيومى، الحزب الوطنى ودوره فى السياسة المصرية ١٩٠٧ - ١٩٥٢ الفاروقية للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨١، صـ ٨٤.

على أنه «مع مراعاة مبادىء القانون الدولى، يخضع الأجانب للتشريع المصرى فى المواد الجنائية والمدنية والتجارية، والإدارية والمالية وغيرها»[1].

وتنفيذا أيضا، لما نصت عليه المعاهدة، قدمت الحكومة المصرية طلبها الانضمام لعصبة الأمم، فأصدرت الجمعية العمومية للعصبة قرارها بالإجماع بالموافقة على قبول مصر عضوا فى العصبة، وكان صدور هذا القرار فى «چنيف» عام ١٩٣٧ أى فى وزارة مصطفى النحاس الثالثة[2].

وفى يولية ١٩٣٧ تسلم فاروق زمام سلطاته الدستورية، محاطا بهتافات الشعب، ونزولا على نصيحة الشيخ مصطفى المراغى شيخ الأزهر، كشف الملك الشاب عن ورعه الدينى، كما أن زيارته المنتظمة لمساجد القاهرة التى كان يزورها مرة كل جمعة، حيث كان يختلط بجماهير المصلين، مستكملا بذلك مظاهر تدينه وورعه، الأمر الذى جعل البعض يلقبه بالملك الصالح[3].

ولقد كانت قضية إقامة حفل دينى، لتتويج فاروق ملكا على مصر، من أكثر القضايا التى أثيرت فى الأوساط السياسية حينئذ، فقد اقترحت السراى، وخاصة الأمير محمد على ولى العهد ورئيس مجلس الوصاية أن يجرى تتويج فاروق ملكا فى حفل دينى يقام فى القلعة، مقر حكم محمد على باشا الكبير رأس الأسرة العلوية الحاكمة، وفى الحفل يقلد شيخ الأزهر الملك المتوج سيف جده الأكبر محمد على، ثم يؤم الملك المصلين فى الأزهر، تعبيراً عن مكانته الدينية كولى للأمر وإمام للمسلمين يجمع بين السلطتين الزمنية والدينية، وأزر رجال الأزهر برئاسة الشيخ مصطفى المراغى هذا الاقتراح، وروجت له القوى السياسية الموالية للملك والمعاندة للوفد، وكانت صحيفة «البلاغ» وصاحبها عبد القادر حمزة من أكثر الصحف دعاية لحفل التتويج الدينية، وصيغت الدعوة باسم مكانة مصر فى البلاد الإسلامية وزعامتها للمسلمين، ولكن حكومة الوفد قاومت الفكرة فى حزم، ووقف النحاس ضد فكرة الحفلة الدينية عامة، وضد فكرة أن

(١) ضياء الدين الريس، الدستور والاستقلال، جـ ٢، مرجع سابق، صـ ٢١٠.

(٢) السابق نفسه، صـ ٢١٠.

(٣) مارسيل كولومب، تطور مصر ١٩٢٤ - ١٩٥٠، ترجمة زهير الشايب، مكتبة سعيد رأفت، الطبعة الأولى، ١٩٧٢، ١٠٤.

يصلى الملك بالأزهر غداة تتويجه، لما تثيره صلاته بالأزهر فى هذه المناسبة من دلالات دينية تنسبغ على ولايته الزمنية، وصرح النحاس بأن مثل هذه الاقتراحات تتضمن «اقتحاما للدين فيما ليس من شئونه وايجاد سلطة دينية خاصة بجانب السلطة المدنية[1].

الصراع بين فاروق والوفد :

وفى ٢٠ أكتوبر ١٩٣٧ قام الملك فاروق بتعيين على ماهر باشا رئيسا للديوان الملكى، وقد كان يشغل هذا المنصب سنة ١٩٣٥ فى عهد الملك فؤاد، وظل يشغله إلى أن تولى الوزارة سنة ١٩٣٦، وجاء هذا التعيين على غير رغبة الوزارة الوفدية، التى اعترضت على ذلك، ثم أذعنت وسلمت بالأمر الواقع، ومع أن هذا التعيين كان بمثابة قاعدة ارتكاز فى السراى لخصوم الوفد، ونذيراً بقرب هبوب العاصفة.. وفى ٢٨ نوفمبر ١٩٣٧ حدث حادث مؤسف، إذ أطلق شاب متهوس من أعضاء مصر الفتاة يدعى عز الدين عبد القادر الرصاص على النحاس حين كان ذاهبا من منزله بمصر الجديدة إلى رئاسة الوزارة، فأخطاته الرصاصة وأصابت السيارة التى كانت تقله[2].

وجاءت فرق «القمصان الزرقاء»[3] الوفدية لتدخل فى دائرة الأزمات بين الملك والوفد، وكانت قد ازدادت قوة عقب تولى الحزب عام ١٩٣٦، واستفحل خطرها، وكان الهدف منها السيطرة على الشباب وإرهاب الخصوم، والأهم من ذلك الاعتماد عليها عند توتر العلاقات مع القصر، وشغلت هذه المسألة ذهن الملك فاروق، الأمر الذى دعاه، وفى ١٦ أكتوبر ١٩٣٧ إلى أن يطلب من النحاس حل فرق «القمصان الزرقاء»[4].

(١) طارق البشرى، المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، صـ ٥٢٩.

(٢) عبد الرحمن الرافعى، مصر بين ثورة ١٩١٩، وثورة يوليو ١٩٥٢، مرجع سابق، صـ ٣٩.

(٣) فرق القمصان الزرقاء، فرق شعبية كونها حزب الوفد، ولم تكن هذه الفرق محكمة التنظيم كمليشية شعبية، بل كانت تقليداً لفرق «هتلر» البنية، وقمصان «موسولينى» السوداء، وكانت فرق القمصان أشبه بالمودة، فقد كونت مصر الفتاة فرق «القمصان الخضراء» وكون الحزب الوطنى فرق «القمصان البنية» وقد ساعد نجاح هتلر السريع فى أوربا فى ذلك الوقت على الشجاعة فى السير فى هذا الاتجاه. أنظر: عبد الغنى سعيد، أسرار السياسة المصرية فى ربع قرن، كتاب الحرية، العدد الخامس، الطبعة الأولى، أكتوبر ١٩٨٥، صـ ٢٨.

(٤) لطيفة محمد سالم، فاروق وسقوط الملكية فى مصر ١٩٣٦ - ١٩٥٢، مكتبة مدبولى، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٩، صـ ٧٠ وما بعدها.

ولكن الضربة الكبرى جاءت للوفد من داخل نفسه، فقد اختلفت قادته، ووقع بينهم الشقاق، فاختلف النقراشي، وأحمد ماهر قطبا الوفد مع النحاس رئيس الوفد، ومكرم عبيد سكرتيره العام، وانتهى الصراع بفصل العضوين الكبيرين من الوفد، وأخذ هذان ينضمان إلى القصر، وشرعا في محاربة حزبهما السابق، وفي تكوين حزب جديد، سمي بالحزب السعدى، وإذ تصدع بناء الوفد، ونجح تأليب القوى ضده، وجه القصر ضربته الأخيرة إلى الوزارة، فأصدر الملك مرسومة بإقالة النحاس باشا ووزارة الوفد، وذلك في ٣٠ ديسمبر ١٩٣٧(١).

وتعتبر هذه الاقالة الأولى من نوعها في عهد فاروق، والتي أبرزت توغله السافر في السياسة وتحديه البارز لحزب الأغلبية، وبهذه الإقالة انتهى الصراع مؤقتا بين الوفد وفاروق، وذلك بانتصار الملك في مطلع عهده مما كان له الأثر البالغ على بلورة شخصيته الى انعكست على تصرفاته(٢).

وكان الأمر الملكي بإقالة وزارة النحاس رقم ٣٨ لسنة ١٩٣٧، والذى جاء على النحو التالي: نظرا لما اجتمع لدينا من الأدلة على أن شعبنا لم يعد يؤيد طريقة الوزارة في الحكم، وأنه يأخذ عليها مجافاتها لروح الدستور، وبعدها عن احترام الحريات العامة وحمايتها، وتعذر إيجاد سبيل لاستصلاح الأمور على يد الوزارة التي ترأسونها، لم يكن بد من إقالتها، تمهيداً لإقامة حكم صالح يقوم على تعرف رأى الأمة تستقر به السكينة والصفاء في البلاد، ويوجه سياستها خير وجهة في الظروف الدقيقة التي تجتازها، ويحقق آمالنا العظيمة في رقيها وعزتها(٣).

وفي نفس اليوم الذى أقيلت فيه وزارة النحاس عهد فاروق إلى محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين بتأليف وزارة جديدة، فألفها في اليوم نفسه، فحلت مجلس النواب وأجرت انتخابات جديدة، فاز فيها أحزاب الأقلية بالأغلبية وتراجع فيها الوفد بسبب تزوير الانتخابات(٤).

(١) ضياء الدين الريس، الدستور والاستقلال، جـ ٢، مرجع سابق، صـ ٢١٥.

(٢) لطيفة محمد سالم فاروق وسقوط الملكية في مصر، مرجع سابق، صـ ٩٨.

(٣) محمد حسين هيكل، مذكرات في السياسة المصرية، جـ ٢، مرجع سابق، صـ ٤٨.

(٤) عبد الرحمن الرافعي، مصر بين ثورة ١٩١٩ وثورة يوليو ١٩٥٢، مرجع سابق، صـ ٤١.

ولمزيد من إذلال الوفد شجع القصر على إدماج الحزبين الملكيين، الاتحاد والشعب -بعد استقالة إسماعيل صدقي من الأخير.. في حزب واحد سمى «حزب الاتحاد الشعبي» وتولى رئاسته محمد حلمي عيسى وذلك ليرتفع عدد نائبيه في مجلس النواب، وتزداد نسبتهم على النواب الوفديين، وبالتالي يصبح الحزب الجديد الممثل الحزبي للمعارضة، كما أقدم فاروق على إلغاء تعيينات لموظفين صدرت في عهد الوزارة الوفدية بحجة عدم صلاحيتها(١).

وفي أغسطس ١٩٣٩ طلب فاروق من محمد محمود أن يستقيل بوزارته فاستقال وقدمت الاستقالة إلى الملك، بعد أن سلخت وزارته في الحكم نحو عشرين شهرا، وعهد فاروق إلى على ماهر، وكان رئيسا للديوان، تأليف الوزارة الجديدة، فألفها من أنصاره ومن السعديين(٢).

مصر والحرب العالمية الثانية:

وفي أول سبتمبر ١٩٣٩، نشبت الحرب العالمية الثانية على إثر اجتياح الجيش الألماني حدود بولندا، وفي ٣ سبتمبر أعلنت كل من إنجلترا وفرنسا الحرب لرفض ألمانيا سحب قواتها من الأراضي البولندية(٣).

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه الآن، هو: ماذا عسى أن يكون موقف مصر من هذه الحرب؟ فإن المادة الثالثة من معاهدة الصداقة والتحالف، التي عقدت بين مصر وإنجلترا في ٢٦ أغسطس ١٩٣٦، تنص على أنه إذا اشتبك أحد الطرفين في حرب فإن الطرف الآخر يقوم في الحال بإنجاده بصفته حليفا. أفيقتضينا هذا النص أن نعلن قيام الحرب بيننا وبين ألمانيا؟ ولكن الوزارة المصرية، تريثت فلم تعلن قيام حالة الحرب بين مصر وألمانيا، وكان لها العذر عن عدم إعلان الحرب من أن ميادين القتال بعيدة عنا، وأن إنجلترا في غير حاجة إلى هذا الإعلان، ولم يكن هناك في المعاهدة المصرية الإنجليزية، ما يقتضينا إعلان الحرب، فالمادة الثالثة، تنص في فقرتها الثانية على أن معاونة مصر تنحصر في أن تقدم إلى إنجلترا داخل حدودها جميع التسهيلات

---

(١) لطيفة محمد سالم، فاروق وسقوط الملكية في مصر، مرجع سابق، صـ ١٠٠.
(٢) عبد الرحمن الرافعي، مصر بين ثورة ١٩١٩ وثورة يوليو ١٩٥٢، مرجع سابق، صـ ٤٢.
(٣) زكريا سليمان بيومي، الحزب الوطني ودوره في السياسة المصرية، مرجع سابق، صـ ٨٦.

والمساعدات التى فى وسعها[1]. ولكن بناء على طلب السفير البريطانى، أعلن على ماهر رئيس الوزراء حالة الطوارىء، وفرض الأحكام العرفية، وعين نفسه حاكما عسكريا، ولقد أعطى على ماهر عشية اندلاع الحرب الجانب البريطانى كل ما يطلبه تقريبا فيما عدا إعلان الحرب على ألمانيا، بالإضافة إلى تعيين حكام عسكريين بريطانيين يطبقون القانون العسكرى البريطانى على مديريات ومحافظات مصر[2].

أما عن موقف على ماهر من دخول مصر الحرب العالمية الثانية، فالمصادر العربية والإنجليزية تشير إلى أن على ماهر لم يتبن سياسة «تجنيب مصر ويلات الحرب» غداة نشوب الحرب، بل كان من أنصار دخول الحرب إلى جانب بريطانيا، ولعله فى هذا الموقف كان معتقداً بانتصار إنجلترا وحلفائها على دول المحور، ولكن لم يلبث هذا الموقف أن تبدل بعد اقتناعه، بعدم دخول مصر الحرب، إلا فى حالة حصولها على مكاسب من وراء إعلان الحرب، وأمام رفض الجانب البريطانى الإلتزام بأى وعد للحكومة المصرية حول تحقيق بقية أمانيها، تمسك على ماهر بسياسة تجنيب مصر ويلات الحرب، وإن كانت البلاد من الناحية الواقعية فى حالة حرب ولكن لم يعلن ذلك من الناحية الرسمية، ومن ناحية أخرى وعلى المستوى الداخلى فقد قامت وزارة على ماهر بإنشاء وزارة الشئون الاجتماعية، وأصدرت قراراً بتحريم تقديم الخمور فى الحفلات الرسمية.[3]

وعندما دخلت إيطاليا الحرب ضد بريطانيا وحلفائها فى يونية ١٩٤٠، ساءت العلاقات بين السفارة البريطانية والحكومة المصرية، إذ نسبت السفارة البريطانية إلى الحكومة والقصر ميولا نحو إيطاليا والمحور، فوجهت الحكومة البريطانية بواسطة سفارتها فى مصر إلى فاروق تبليغا بمثابة إنذار بأن لا سبيل إلى التعاون بينهما وبين وزارة على ماهر، فاستقالت الوزارة، وبُذلت مساع جديدة لتوحيد الصفوف، وتأليف وزارة ائتلافية، ولكنها أخفقت، فألف حسن صبرى الوزارة الجديدة[4]، وحل الملك فاروق

(١) محمد حسين هيكل، مذكرات، جـ ٢، مرجع سابق، صـ ١٥٨.
(٢) رشوان محمود جاب الله، على ماهر، الهيئة المصرية العامة لكتاب القاهرة للطبعة الأولى، ١٩٨٧، صـ ١٠٤.
(٣) السابق نفسه، صـ ٨٧.
(٤) عبد الرحمن الرافعى، مصر بين ثورة ١٩١٩ وثورة يوليو ١٩٥٢، مرجع سابق صـ ٤٥.

الأزمة بتكليفة حسن صبرى باشا -وهو مستقل- بتشكيل حكومة جديدة استبعد منها كل الوزراء الذين تسبب وجودهم فى إقلاق بريطانيا العظمى، فما كان من وزير خارجية بريطانية إلا أن أعلن أن العلاقات بينهم وبين مصر «مرضية تماما»(١).

وفى الوقت نفسه، رفض حسن صبرى أن تدخل مصر الحرب وقال: أنا لأرى أن تعلن مصر الحرب.. فموقفنا فى هذه الحرب موقف معاونة لحليفتنا إنجلترا فى حدود المعاهدة المعقودة بين البلدين، وقد اتفقنا على أن تبقى مصر دولة غير محاربة، لأن ذلك أجدى من إعلانها الحرب على دول المحور، فيجب أن تكون سياستنا تجنيب مصر ويلات الحرب ما استطعنا(٢).

ولقد كان الرأى العام المصرى بوجه عام -خلا السعديين- يرحب بنظرية «تجنيب مصر ويلات الحرب» وينظر بعين الريبة إلى الدعوة لإعلان الحرب على المحور، وكان الملك فاروق يؤيد النظرية التى يؤيدها الرأى العام، وكان الإنجليز قد انتهوا إلى عدم معارضتها(٣).

وفى ١٤ نوفمبر ١٩٤٠ توفى حسن صبرى فجأة فى البرلمان وهو يلقى خطبة «العرش» فخلفه حسين سرى وألف وزارة جديدة فى ٢١ نوفمبر ١٩٤٠، وألقى سرى بيانا فى البرلمان أعلن فيه أن سياسة وزارته هى سياسة الوزارة السابقة(٤).

ولقد تعرضت وزارة حسين سرى فى أواخر عهدها لأزمات ومشاكل عديدة أدت إلى استقالتها، كان أبرزها تلك المظاهرات الصاخبة التى نادى فيها المتظاهرون بسقوط بريطانيا، وهتفوا: «تقدم يا روميل، إلى الأمام يا روميل» وكان الألمان بقيادة الجنرال روميل يتقدمون نحو مصر. فاضطربت أعصاب الإنجليز أمام هذه المظاهرات والهتافات، وطلبوا إلى حسين سرى وضع حد لها، فلم يستجب إلى طلبهم.. ولم ير بإزاء هذه العواصف التى هبت عليه وعلى وزارته سوى الاستقالة فى ٢ فبراير ١٩٤٢م(٥).

(١) مارسيل كولومب، تطور مصر، مرجع سابق، صـ ١٢٣.
(٢) محمد حسين هيكل، مذكرات فى السياسة المصرية، جـ ٢، مرجع سابق، صـ ١٦٦.
(٣) محمد حسين هيكل، السابق نفسه، صـ ١٧٠.
(٤) عبد الرحمن الرافعى، مصر بين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢، مرجع سابق، صـ ٤٥.
(٥) عبد الرحمن الرافعى، السابق نفسه، صـ ٤٦.

الو[illegible] وأز[illegible] ٤ فبراير ١٩٤٢:

وبعد نشوب الحرب العالمية الثانية، وقعت فى مصر أحداث، كان لها أثر كبير فى تطور الحياة السياسية، بل وتأثير واضح على المناخ العام فى مصر، فلقد كانت نية الإنجليز خلال الحرب العالمية الثانية تتجه إلى إسناد الوزارة إلى النحاس باشا أو اشتراك حزب الوفد فى الوزارة، وأبلغوا هذه الرغبة إلى فاروق، فقد صرح وزير خارجية بريطانيا عقب تأليف وزارة حسن صبرى بقوله: وقد كان يسر الحكومة البريطانية لو كان فى الإمكان اشتراك الوفد فى الحكومة الجديدة(١).

ولما تحرجت الأمور فى البلاد، واستقالت وزارة حسين سرى، جدد السفير البريطانى إبداء رغبته إلى فاروق، بأن يشكل النحاس الوزارة، فاستدعى الملك فاروق النحاس باشا، وعرض عليه أن يؤلف وزارة قومية برئاسته، ولكن النحاس رفض ذلك، ولما علم السفير البريطانى بذلك، طلب من الملك أن يكلف النحاس بتأليف وزارة وفدية، كان ذلك يوم ٣ فبراير ١٩٤٢، وفى اليوم التالى وصل إلى الملك إنذار من السفير البريطانى فى مصر هذا نصه:

«إذا لم أسمع قبل السادسة مساء أن النحاس باشا قد دعى لتأليف وزارة، فإن جلالة الملك فاروق يجب أن يتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج»(٢).

فما كان من الملك فاروق إلى أن دعا رؤساء الأحزاب وبعض الشخصيات البارزة كرؤساء الوزرات والبرلمان السابقين إلى الاجتماع فى اليوم نفسه بقصر عابدين، وتشاور المجتمعون، فى كيفية أن يكون الرد على الإنذار، وكانت الفكرة الغالبة أن تؤلف وزارة قومية برئاسة النحاس، ولكن النحاس عاد ورفض فكرة الوزارة القومية، وانتهى المجتمعون إلى الاحتجاج على الإنذار وكُتب الاحتجاج ووقعوا عليه جميعا، وهذا نصه:

---

(١) عبد الرحمن الرافعى، مصر بين ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢، مرجع سابق، صـ ٤٦.

(٢) وهذا نص الإنذار بالإنجليزية:

Unless I hear 6 P. M. that Nahas Pasha has been asked to Form a Cabinet, His Majesty King Farouh must accept the Consequency.

راجع: محمد حسين هيكل، مذكرات فى السياسة المصرية، جـ ٢، مرجع سابق، صـ ١٩٩.

«إن فى توجيه التبليغ البريطانى اعتداء على استقلال البلاد ومساسًا بمعاهدة الصداقة، ولا يسع الملك أن يقبل ما يمس استقلال البلاد ويخل بأحكام المعاهدة»[١].

حمل رئيس الديوان الملكى إلى السفير البريطانى نص الاحتجاج، فأجاب بأن هذا ليس ردًا، وأنه سيحضر لمقابلة الملك فى الساعة التاسعة.. وقبيل هذا الموعد جاءت دبابات بريطانية مسلحة بالمدافع، ورابطت أمام القصر بشكل تهديدى، ثم حضر السفير البريطانى يصحبه الجنرال استون، قائد القوات البريطانية فى مصر وقتئذ، وبعض الضباط البريطانيين مسلحين بالمسدسات ودخل السفير والجنرال استون إلى غرفة فاروق واجتمعا به. وكان السفير يحمل ورقة بالتنازل عن العرش، قدمها للملك للتوقيع عليها، إذا لم يوافق على تكليف النحاس بتشكيل وزارة وفدية فما كان من الملك إلا أن استجاب.. وأمر النحاس بتشكيل وزارته الجديدة، والتى جاءت كما يقولون، على أسنة الرماح، وبضغط من الإنجليز[٢].

كان أول قانون أصدرته وزارة النحاس بعد تأليفها، هو حل البرلمان وإجراء انتخابات جديدة، وكان ذلك فى فبراير ١٩٤٢، وأجريت الانتخابات فى مارس ١٩٤٢، وفاز حزب الوفد بالأغلبية، بعد أن قاطع الأحرار الدستوريون والسعديون الانتخابات[٣].

ويستنتج أحد المراقبين مما حدث فى ٤ فبراير ١٩٤٢ ما يلى:

١ - أن هذا الحادث أنه رغم تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢، ومعاهدة ١٩٣٦، وكلاهما يؤكد على استقلال وسيادة مصر، أثبت أن هذا الاستقلال مجرد هراء، وأن السفير البريطانى قادر على تحويل رياح السياسة المصرية فى أى اتجاه يعتقد أنه يحقق مصلحة الامبراطورية البريطانية التى لا تغرب عنها الشمس دون أى اعتبار للسلطات الدستورية الأخرى.

٢ - شعور ضباط الجيش، بأن العرش قد اهتز وبعنف، وأن الملك الشاب لا يستطيع عمل أى شىء أمام إرادة السفير البريطانى.

(١) عبد الرحمن الرافعى، مصر بين ثورة ١٩١٩، مرجع سابق، صـ ٤٧.
(٢) راجع: محمد حسين هيكل، مذكرات فى السياسة المصرية جـ ٢، مرجع سابق، صـ وعبد الرحمن الرافعى، مصر بين ثورة ١٩١٩، مرجع سابق، صـ ٥٠.
(٣) لطيفة محمد سالم، فاروق وسقوط الملكية فى مصر، مرجع سابق، صـ ١١١.

٣ - أن السفيـر البريطانى بهذا العمـل قد حقق نصراً ساحقًا على القصر ورجاله، فمـا كان من الحكومـة البريطانية - مكافأة له - إلا أن منحـته لقـب «لورد»[١].

ويذهب الرافعى إلى أن المسئول الأول عن حادث ٤ فبراير ١٩٤٢، هو العدوان البريطانى؛ لأن هذا العدوان هو أساس الإنذار، وكان مظهره حضور الدبابات لتهديد الملك، وقد كان الإنجليز جادّين فى هذا التهديد، لأنهم وهم محتلون للبلاد كانوا يعتقدون فى رجال القصر وبعض رجالات مصر ممن لهم صلة وثيقة بالقصر أنهم على اتصال بالمحور، فاعتزموا أن يضربوا ضربة تجمع بين إذلال العرش وبين إرضاء الأغلبية الوفدية التى كان النحاس على رأسها .. وأن الظروف الملابسة ليوم ٤ فبراير كانت قطعا تدل على أن الخطر على العرش لم يكن صوريا، بل كان جديا واقعيا. فالإنجليز لا يتورعون عن التدخل فى شئون البلاد الداخلية والعبث باستقلالها فى سبيل تحقيق أغراضهم[٢].

وإذا كان عام ١٩٤٢ شهد صعود الوفد بقيادة النحاس إلى السلطة، ففى الوقت نفسه كانت هناك أحداث أخرى تنحدر باتجاه الوفد نحو السقوط، ومن أهمها انشقاق مكرم عبيد عن الوفد، وكان هذا الانشقاق نتيجة عدة عوامل شخصية مثل حرم النحاس، وفؤاد سراج الدين، وبعض العوامل الموضوعية مثل الفساد والسياسات العامة[٣]. خرج مكرم عبيد من الوزارة الوفدية، بعد أن كان يشغل وزير المالية، وبعدها فصل من الحزب، فما كان منه إلا أن أعلن عن تشكيل حزب جديد سماه «الكتلة الوفدية المستقلة» والتى وصفها بأنها: «الوفد مصغرا، والوفد مطهرا» وأخذ مكرم عبيد يهاجم النحاس علنا ويكشف النقاب عن أمثلة من المحسوبية والفساد فى حكومة الوفد، ثم جمع ما كتبه فى هذا الصدد ونشره فى كتاب مدعما بالوثائق وسماه «الكتاب

---

(١) محمد أحمد فرغلى، عشت حياتى بين هؤلاء، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة الطبعة الثانية، ١٩٨٤، صـ ٩٥، ٩٦.

(٢) عبد الرحمن الرافعى، فى أعقاب الثورة المصرية، ثورة ١٩١٩، جـ ٣، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٩، صـ ١١٢.

(٣) راجع: علاء الحديدى، مصطفى النحاس، دراسة فى الزعامة السياسية المصرية، دار الهلال، كتاب الهلال، العدد (٥٠٥) الطبعة الأولى، يناير ١٩٩٣، صـ ٢٤١، وما بعدها.

الأسود»[١]. غير أن الذى يؤخذ على مكرم عبيد بعد انفصاله عن حزب الوفد أنه لم يلتزم جادة الاعتدال والهوادة فى موقفه، بل انضم بكل قوته إلى خصوم الوفد، وهاجم النحاس والوفد مهاجمة عنيفة، فضاعت الحقائق فى ضجة العنف والخصام، ولو بقى بعد انفصاله يستنكر مساوىء حكومة الوفد فى اعتدال، وبأسلوب غير أسلوب «الكتاب الأسود» لكان محتملا أن يجتذب إليه فريقا من الوفديين، لأن منهم من غير شك من لم يكن يقر مسالك حكومة الوفد فى تصرفاتها المنافية للاستقامة والنزاهة والعدل[٢].

ولقد عدد الرافعى العديد من المآخذ على وزارة النحاس فى السياسة العامة منها: أنه ساير الإنجليز وعاونهم بشكل لا يتفق مع الواجبات الوطنية، فسمح لأنصاره أن يهتفوا بحياة انجلترا فى فناء رئاسة مجلس الوزراء وأيضا استغلال النحاس للأحكام العرفية فى اعتقال خصومة والإساءة إليهم وكذلك كثرة المحسوبيات والاستثناءات، ثم إن النحاس لم يعمل عملا فى استخلاص حقوق البلاد من الإنجليز، فى الوقت الذى كانت كل موارد البلاد رهن تصرفهم إبان الحرب، فلقد كانت الحملة الألمانية الإيطالية على أبواب مصر، وكان الإنجليز وحلفاؤهم يعتمدون على ما أمدتهم به البلاد من مواد التموين وانتظام مواصلاتهم وتسهيل نقل جنودهم إلى مواقع القتال، واستتباب الأمن فى هذه الفترة العصيبة[٣].

ولقد استمرت الحرب سجالا بين القوات البريطانية وحلفائها وبين الإيطاليين وحلفائهم من سبتمبر ١٩٤٠ إلى ١٩٤٢ فى ليبيا وفى صحراء مصر الغربية، إلى أن وقعت «معركة العلمين» يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٤٢ والأيام التالية، وانتهت بهزيمة الألمان والإيطاليين، وتقع العلمين على الطريق الشمالى الواصل من الإسكندرية إلى حدود برقة[٤].

وكان الحلفاء بعد ذلك قد نزلوا فرنسا، وبدءوا يجلون الألمان عنها، وكان الروس من ناحيتهم قد قاوموا الألمان فى ستالنجراد، مقاومة اضطرتهم إلى التراجع، وأتاحت

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، شخصيات مصرية، دار الهلال، كتاب الهلل، العدد (٥١٦) الطبعة الأولى، ديسمبر ١٩٩٣، صـ ١٩٠ وما بعدها.
(٢) عبد الرحمن الرافعى، فى أعقاب الثورة المصرية، مرجع سابق، صـ ١١٩ وما بعدها.
(٣) عبد الرحمن الرافعى، مصر بين ثورة ١٩١٩، مرجع سابق، صـ ٥٠.
(٤) عبد الرحمن الرافعى، المصدر نفسه، صـ ٥١.

للروس من بعد ذلك أن يتقدموا إلى روسيا الشرقية، وكانت بوادر نصر الحلفاء تتبدى فى الأفق نصرا حاسما بغير شرط ولا قيد، وكان الإنجليز قد بدأوا يرون أن لم تبق لهم فى مصر حاجة باليد الحديدية التى جعلوا النحاس باشا، وسيلتها منذ ١٩٤٢، وكان الملك فاروق قد أبدى منذ تولت وزارة النحاس الحكم عدم رضاه عن هذه الوزارة، وكان ما لجأت إليه الوزارة خلال السنتين ونصف السنة التى قضتها فى الحكم من محاباه واستثناءات واستغلال للنفوذ، قد جعل بقاء الوزارة فى الحكم غير ممكن(١).

ولقد ظلت هذه الحكمة الوفدية فى الحكم حتى نهاية الحرب تقريبا محققة كل التحقيق ما توقعه الإنجليز منها مقدرة ورغبة فى حفظ الأمن والنظام الضروريين لمتابعة الحرب بنجاح على أن ما اعتراها من رشوة وفساد داخلى، أديا إلى انشقاق فى صفوف الحزب، ثم إن انحسار الحرب عن وادى النيل، وعودة التوتر السياسى القديم والجديد إلى الظهور -خصوصا بين الوفد والقصر- مهّد كل ذلك للملك فاروق أن يصدرقرارا بإقالة الحكومة الوفدية بزعامة النحاس، وذلك فى أكتوبر ١٩٤٤(٢).

إ[illegible]لة وزارة الو[illegible] :

وكانت إقالة وزارة النحاس يوم الأحد ٨ أكتوبر ١٩٤٤ بموجب خطاب من الملك فاروق قال فيه: لما كنت حريصا على أن تحكم بلادى وزارة ديمقراطية و تعمل للوطن، وتطبق أحكام الدستور، نصا وروحًا، وتسوى بين المصريين جميعا فى الحقوق والواجبات وتقوم بتوفير الغذاء والكساء لطبقات الشعب، فقد رأينا أن نقيلكم من منصبكم، وأصدرنا أمرنا هذا لمقامكم الرفيع شاكرين لكم ولحضرات الوزراء زملائكم ما أمكنكم أداؤه من الخدمات أثناء قيامكم بمهمتكم.. وفى يوم ٩ أكتوبر صدر المرسم الملكى بتأليف وزارة جديدة برياسة الدكتور أحمد ماهر، وهذه الوزارة مؤلفة من الأحزاب غير الوفدية، وهى الهيئة السعدية، والأحرار الدستوريون والكتلة الوفدية، والحزب الوطنى و وليس فيها سواهم، ولا من المستقلين(٣).

كان أول عمل لوزارة أحمد ماهر، هو، إطلاق سراح المعتقلين السياسيين، الذين

(١) محمد حسين هيكل، مذكرات فى السياسة المصرية، جـ ٢، مرجع سابق، صـ ٢٤٤.

(٢) ريتشارد ميتشل، الإخوان المسلمون، ترجمة محمود أبو السعود، بدون ناشر، الطبعة الأولى، ١٩٧٩، صـ ٧٩.

(٣) عبد الرحمن الرافعى، فى أعقاب الثورة المصرية، جـ ٣، مرجع سابق، صـ ١٥١، ١٥٢.

كانت قد اعتقلتهم وزارة الوفد فى ظل الأحكام العرفية.. وفى مقدمتهم على ماهر ومكرم عبيد، كما قامت وزارة أحمد ماهر بحل مجلس النواب فى ١٥ نوفمبر ١٩٤٤، ثم حددت للانتخابات يوم الإثنين ٨ يناير ١٩٤٥، وكان حل مجلس النواب أول ضربة توجه للوفد، إذ إن المجلس كان أغلبيته وفدية، ولقد قرر الوفد عدم دخول الانتخابات الجديدة، والتى لم تكفل الحكومة للشعب فيها حريته، بل تدخلت فى الانتخابات لإنجاح مرشحيها أو من رضيت عنهم(١).

وفى ٢٤ فبراير ١٩٤٥، اجتمع البرلمان، ليبحث مسألة إعلان مصر الحرب على ألمانيا واليابان تمهيدا لاشتراكها فى مؤتمر سان فرانسيسكو وانضمامها إلى هيئة الأمم المتحدة، وكانت الوزارة قد أعدت بيانا وافقت فيه على إعلان الحرب على المحور.. وبعد أن ألقى الدكتور أحمد ماهر هذا البيان فى مجلس النواب، انتقل إلى مجلس الشيوخ لكى يدلى ببيانه فيه، وفيما كان يجتاز البهو الفرعونى الذى يفصل المجلسين، أطلق عليه محام شاب يدعى محمود العيسوى(٢) الرصاص فأصابه إصابات قاتلة، أودت بحياته ولكان لهذا الاعتداء وقع أليم فى النفوس، ولقد علل القاتل فعلته الشنعاء، بأن أحمد ماهر تسبب فى إعلان مصر الحرب على ألمانيا، ومعروف أحمد ماهر لم يقدم على ذلك إلا لأن هذا هو السبيل لقبول مصر عضوا فى مؤتمر سان فرانسيسكو الذى أنشئت فيه هيئة الأمم المتحدة. وكان أقطاب الحلفاء اشترطوا لقبول أى دولة فى حضور المؤتمر أن تعلن الحرب على المحور قبل أول مارس ١٩٤٥، وكانت الحرب العالمية قد أشرفت على نهايتها، ولم يكن إعلان الحرب إلا إجراء شكليا(٣).

والحقيقة أن سياسة مصر إلى يومئذ ١٩٤٥، كانت تسير على سياسة «تجنيب مصر ويلات الحرب، تلك هى السياسة التى جرت عليها وزارة على ماهر باشا منذ

(١) عبد الرحمن الرافعى، المرجع السابق، صـ ١٥٣ - ١٥٤.

(٢) محامى من شباب الحزب الوطنى، حاصل ليسانس الحقوق عام ١٩٣٩ ودبلوم القانون الخاص عام ١٩٤٠، ودبلوم القانون العام ١٩٤١، وكان يعمل فى مكتب الأستاذ عبد الرحمن الرافعى المؤرخ المشهور، وكان يعد رسالة للدكتوراة. راجع: عبد العزيز على، الثائر الصامت، مرجع صابق، صـ ١٩١، ١٩٢.

(٣) عبد الرحمن الرافعى، مصر بين ثورة ١٩١٩، مرجع سابق، صـ ٥٥.

١٩٣٩، وأعلنتها صراحة وزارة حسن صبرى باشا ١٩٤٠، وتابعتها عليها كل الوزارات التى تعاقبت بعدها، ومنها وزارة الوفد التى فرضها الإنجليز على مصر فى سنة ١٩٤٢[١].

ثم تولى محمود فهمى النقراشى رئاسة الوزراء خلفا لأحمد ماهر، وأراد أن يلطف من حدة التوتر السائد وقتئذ، وأن يكسب رضا الشعب، فألغى الأحكام العرفية فى أكتوبر ١٩٤٥، ورفع للسفير البريطانى لامبسون مذكرة فى ٢٠ ديسمبر ١٩٤٥، جدد فيها المطالب والأهداف الوطنية، بالجلاء الناجز، ووحدة وادى النيل، لرفعها إلى حكومته، ويصر السفير على رفضها بحجة أن قضية الجلاء عن مصر والسودان، لم يَحُن الوقت بعد لبحثها[٢].

ولم ينته عام ١٩٤٥ حتى أعلن عن استسلام ألمانيا فى مايو ١٩٤٥، وفى أغسطس أعلنت اليابان استسلامها أيضا، وبذلك انتهت الحرب العالمية فى أوربا بعد خمس سنوات وثمانية أشهر وستة أيام من نشوبها، وكذلك فى هذا العام، تم توقيع ميثاق جامعة الدول العربية، فقد اجتمعت وفود الدول العربية فى مارس ١٩٤٥ فى قصر الزعفران، وأقرت هذا الميثاق[٣].

الغليان الشعبى ضد الاحتلال:

وعلى إثر الرد البريطانى على المذكرة التى رفعتها الحكومة المصرية بشأن تجديد المفاوضات من أجل الجلاء، عمت المظاهرات أرجاء البلاد، بعد أن تبين للرأى العام مبلغ سوء نية الإنجليز نحو مصر، وإصرارهم على إبقاء قواعد معاهدة ١٩٣٦، كأساس للعلاقات بين البلدين، فاشتد سخط الأمة على هذه السياسة، وتجلى هذا السخط فى تلك المظاهرات التى تندد بالاحتلال، ففى ٩ فبراير ١٩٤٦، قامت فى القاهرة مظاهرة من طلبة جامعة فؤاد الأول، ساروا من فناء الجامعة قاصدين قصر عابدين يهتفون بالجلاء، ولا مفاوضة إلا بعد الجلاء، كما قامت مظاهرات عديدة للغرض نفسه فى عدد من المدن كالإسكندرية والمنصورة والزقازيق وأسيوط[٤].

(١) محمد حسين هيكل، مذكرات فى السياسة المصرية، جـ ٢، كرجع سابق، صـ ٢٥٦، ٢٥٧.

(٢) عبد العزيز على، الثائر الصامت، مرجع سابق، صـ ١٩٢.

(٣) عبد الرحمن الرافعى، فى أعقاب الثورة المصرية، مرجع سابق، صـ ١٦٠ وما بعدها.

(٤) السابق نفسه، صـ ١٨٦، ١٨٨.

والحقيقة أن الفترة التى تلت انتهاء الحرب مباشرة إلى منتصف ١٩٤٦ تقريبا، كانت من أكثر الفترات مواتاة لأن تعرض مصر مسألتها على مجلس الأمن، الذى كان يعقد أولى دوراته، وكان من المرجح أن ينصر المجلس مصر بإقرار جلاء القوات البريطانية مراعاة للموقف الدولى وقتها.. ولكن كان جهد السياسة البريطانية مع الحكومة المصرية، أن تبتعد بالقضية المصرية عن هذا المنبر الدولى الجديد، وعن المسرح العالمى كله، لتنفرد بريطانيا بإملاء ما تراه من حلول لمصلحتها فى إطار العلاقات الثنائية بين البلدين(١).

وعلى إثر المظاهرات التى اجتاحت العاصمة والمدن الكبرى، استقالت وزارة النقراشى فى ١٥ فبراير ١٩٤٦، ثم عهد الملك فاروق إلى إسماعيل صدقى(٢) تأليف الوزارة الجديدة فألفها فى ١٧ فبراير ١٩٤٦، وإن كان هذا التغيير لم يمنع من استمرار المظاهرات، إلا أن صدقى لم يكن يتصدى لها بالعنف والقوة، لأنها كانت من الأسباب التى أدت إلى زلزلة وزارة النقراشى ثم استقالته، فسلك نحو المظاهرات سبيلا وسطا، يسمح بقيامها مع الاحتياط لحفظ النظام وصيانة ممتلكات الأجانب، ولذلك ازدادت حدة المظاهرات المطالبة بالجلاء ووحدة وادى النيل، واتفقت طبقات الأمة على الإعراب عن تمسكها بالجلاء بتحديد يوم سمى يوم الجلاء.. ونفذت هذه الفكرة فى ٢١ فبراير ١٩٤٦، ففى هذا اليوم، أضربت جميع الطوائف فى القاهرة وقامت مظاهرة عامة انتظمت جموع الشباب والطلبة والعمال، يهتفون بالجلاء، ولم تكد المظاهرة تصل إلى ميدان الإسماعيلية(٣) حتى تصدت لها سيارات بريطانية مسلحة، واقتحمت جموع المتظاهرين، مما أدى إلى إزهاق أرواح عدد كبير من المتظاهرين، وإصابة الكثير، فبلغ عدد القتلى ٢٣ قتيلا والجرحى ١٢١ جريحا، كما اتفقت كلمة الأمة على جعل يوم ٤ مارس ١٩٤٦ يوما للشهداء الذين سقطوا فى يوم ٢١ فبراير، فعمت الإضراب

---

(١) طارق البشرى، الحركة السياسية فى مصر، ١٩٤٥ - ١٩٥٢، دار الشروق القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، صـ ٢٧ - ٢٨.

(٢) يرى عبد الغنى سعيد أن صدقى كان مخادعا فى سياسته الجديدة، إذ إنه معروف بأنه طاغية وله تاريخ معروف فى الكبت والاستبداد راجع: عبد الغنى سعيد، أسرار السياسة المصرية فى ربع قرن، مرجع سابق، صـ ١٧٩.

(٣) هو ميدان التحرير الحالى.

العاصمة، واحتجبت الصحف عن الصدور ومر اليوم فى القاهرة بسلام، ولكن فى الإسكندرية خرجت هناك المظاهرات، فتصدت لها قوات الاحتلال، وأطلقوا عليهم الأعيرة النارية، فسقط من المتظاهرين ٢٨ قتيلا و٣٤٢ جريحا(١).

والحقيقة أن الإنجليز قد توجسوا خيفة من اضطرابات الأوضاع فى مصر وتزايد الفوران الشعبى، ومما زاد ذلك قلقهم، الموقف المتشدد الذى اتخذه الوفد حينئذ تجاه الاحتلال، وذلك استردادا لشعبيته ودفعا لهجوم السراى وأحزاب الأقلية عليه وبهذا الموقف لم تعد التهدئة السريعة عن طريق الوفد ممكنة، وكان أمام الإنجليز نقطتان ينبغى حسمهما سريعا تقليلا لفرص الاحتكاك مع الأوضاع المصرية، أولهما: وجود اللورد كيلرن سفيرا فى مصر وهو صاحب موقف ٤ فبراير ١٩٤٢، ورمز التدخل البريطانى فى السياسة المصرية، والتهديد بخلع الملك يومها، وثانيهما: استمرار وجود القوات البريطانية فى القاهرة والإسكندرية بعد انتهاء الحرب(٢).

ولحسم النقطة الأولى، تم نقل اللود كيلرن من منصبه فى مصر، وجعله مندوبا ساميا لدولته فى جنوب شرقى آسيا، وأقيم بدلا منه فى مصر السيررونالد كامبل، ينفذ السياسة الاستعمارية للحكومة البريطانية فى إطار من مظاهر الود والاحترام. ولحسم النقطة الثانية، وافقت الحكومة البريطانية، على بدء المفاوضات مع الحكومة المصرية، والتى عرفت، بمفاوضات صدقى -بيفن، وقد تم الاتفاق بينهما على مشروع معاهدة نص على:

١ - إنهاء العمل بمعاهدة ١٩٣٦.

٢ - جلاء القوات البريطانية التام عن الأراضى المصرية فى ميعاد أقصاه سبتمبر ١٩٤٩.

٣ - فى حالة الاعتداء المسلح على مصر، يتخذ الطرفان بالاتفاق أى إجراء تتبين ضرورته.

٤ - تكوين لجنة دفاع مشترك من السلطات الحربية لدى الحكومتين لدرس وسائل الدفاع عنهما فى البحر والبر والجو.

(١) عبد الرحمن الرافعى، فى أعقاب الثورة المصرية، جـ ٣، مرجع سابق، صـ ١٨٨ وما بعدها.
(٢) طارق البشرى، الحركة السياسية فى مصر، مرجع سابق، صـ ٩٦، ٩٧.

٥ - الاحتفاظ بمعاهدة ١٨٩٩ المتعلقة بالسودان(١).

وفى ٨ ديسمبر ١٩٤٦ قدم إسماعيل صدقى استقالته، بعد أن رفضت الأمة مشروعه فى التفاوض، وإخفاقه فى مهمته، وفى اليوم التالى، شكلت الوزارة الجديدة برئاسة محمود فهمى النقراشى، وفى هذه الوزارة عين الشيخ على عبد الرازق صاحب الكتاب الشهير «أصول الحكم» وزيراً للأوقاف بعد أن استقال منها محمد على علو به فى مارس ١٩٤٧(٢).

وكان من أهم الأحداث التى وقعت فى عام ١٩٤٦، اغتيال أمين عثمان وزير المالية السابق ففى مساء ٥ يناير ١٩٤٦ تربص له ثلاثة شبان أطلقوا عليه الرصاص وهو يدخل مقر «رابطة النهضة» التى أسسها عام ١٩٤٤ لتوثيق الروابط بين إنجلترا ومصر، واتخذ لها مقرا فى ٢٤ شارع عدلى بالقاهرة، واتهم حسين توفيق أحمد نجل وكيل وزارة المواصلات، والذى اعترف بعملية الاغتيال، واتهم فى هذه القضية كثيرون مثل عزيز المصرى، وأنور السادات رئيس الجمهورية السابق، وكان وقتها ضابطا فى الجيش المصرى، وبعد أن حكم على حسين توفيق بالسجن، تم تهريبه من السجن قبل أن يقضى مدة العقوبة(٣).

(١) طارق البشرى، الحركة السياسية فى مصر، مرجع السابق، صـ ١١٦ وما بعدها، وأيضا: عبد العزيز على، الثائر الصامت مرجع سابق، صـ ١٩٦.

(٢) راجع: عبد الرحمن الرافعى، فى أعقاب الثورة المصرية، مرجع سابق، صـ٢٢٤.

(٣) أمين عثمان، من مواليد الإسكندرية، درس فى كلية فيكتوريا، نال شهادة البكالوريا ١٩١٨، سافر إلى إنجلترا ودرس القانون بجامعة أكسفورد حصل على درجة الأستاذية عام ١٩٢٣، تزوج من الليدى كاتلين الإنجليزية، وعاد إلى مصر، درج فى الوظائف الحكومية حتى عين وزيرا للمالية عام ١٩٤٢ كان له دور واضح فى المفاوضات الوفد عام ١٩٣٦، وكان همزة الوصل بين الإنجليز والوفد، أبدى نشاطا ملحوظا بعد أن قام بتكوين « رابطة النهضة»، وأخذ يلقى بوصفه رئيس الجماعة بتصريحات، كان من أخطرها قوله: «إن إنجلترا ومصر متزوجتان زواجا كاثوليكياً لا انفصام بينهما» وفى أواخر عام ١٩٤٥ سافر إلى لندن، بعد انتهاء الحرب العالمية، ليقدم للحكومة البريطانية مبلغ مائة ألف جنيه، على أنه تبرع جمعه من الشعب المصرى، للمساهمة فى إعادة بناء إحدى القرى البريطانية التى دمرتها الغارات الألمانية فى الحرب الكبرى، وعندما عاد من لندن ترددت أنباء بأن أمين عثمان مرشح لتشكيل الوزارة، ولكن فى الوقت الذى اتهم فيه بالعمالة للإنجليز وصفه البعض بالوطنية. راجع: عبد العزيز على، الثائر الصامت، مرجع سابق، صـ ١٩٣، ١٩٤، وأيضا: محمد أحمد فرغلى، عشت حياتى بين هؤلاء، مرجع سابق، صـ ١١٥، ١١٦، ومحسن محمد، سنة من عمر مصر، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٢، صـ ١٨٧ وما بعدها.

مرحلة جديدة للمفاوضات:

بعد أن تولى النقراشى الوزارة، استأنف المفاوضة مع السير رونلد كامبل السفير البريطانى فى مصر، فلم يجد تجاوبا من الحكومة البريطانية، فقرر مجلس الوزراء فى ٢٥ يناير ١٩٤٧ عرض قضية البلاد على مجلس الأمن، وقدمت مصر دعوى إلى المجلس فى ١١ يولية ١٩٤٧ جاء فيها: تحتل القوات البريطانية الأقاليم المصرية على الرغم من إرادة الشعب الاجماعية، وإن وجود قوات أجنبية فى أراضى دولة من أعضاء الأمم المتحدة، فى زمن السلم بغير رضائها رضاء حراً امتهانا لكرامتها، وحائلا يحول دون تقدمها الطبيعى، كما أنه خرق للمبدأ الأساسى -مبدأ المساواة فى السيادة- وهو بذلك يناقض ميثاق الأمم المتحدة فى نصه وروحه وقرار الجمعية العامة الصادر بالإجماع فى ١٤ ديسمبر ١٩٤٦(١).

ويفسر طارق البشرى، مسألة عرض القضية المصرية على مجلس الأمن، بتفسيرين الأول: بأن خروج المسألة المصرية عن نطاق العلاقات الثنائية بينهما تقليد يخشاه الاستعمار ويضعف من سيطرته، كما أنه يكشف مواقف الأصدقاء والأعداء فى السياسة الدولية، ويصل ما بين الحركات التحريرية فى العالم. الثانى: بأن موقف الخصام بين الطرفين، المتقابلين فى مجلس الأمن سيفرض نفسه على العلاقات بينهما تشدداً وتطرفا من كلا الجانبين واندفاعا فى المواقف والمطالب مما يحطم إمكانيات الالتقاء في المستقبل، ومما لا تستطيع معه حكومة مصر مستقبلا أن تتخلى بسهولة عما ارتبطت به أمام جماهيرها، وإن التداعى أمام مجلس الأمن يحتم عليها التخلى عن سياسة التحصن بالصمت.. إلى التورط فى إعلان موقف جهير إزاء الدولة الخصم ويفرض عليها قدراً من الانحياز، إما إلى الوجدان الشعبى، بالطعن على الاستعمار وإما إلى الوقوف السافر ضد هذا الوجدان والتخاذل أمام الاستعمار(٢).

ولقد استغرق نظر القضية المصرية أمام مجلس الأمن عدة جلسات، كان آخرها جلسة ١٠ سبتمبر ١٩٤٧، حيث عرض فيها الاقتراع على اقتراحات من بعض المندوبين ترمى إلى الرجوع إلى المفاوضات الثنائية ولم يوافق على أى اقتراح منها، إذ لم يجد

(١) عبد الرحمن الرافعى، فى أعقاب الثورة المصرية، مرجع سابق، صـ ٢٢٩.
(٢) طارق البشرى، الحركة السياسية فى مصر، مرجع سابق، صـ ١٤٢.

العدد الكافى من الأصوات لإقراره، وعلى ذلك أعلن رئيس المجلس، أن المجلس لم يتمكن من اتخاذ قرار بشأن هذه القضية، ولم يصدر المجلس قرارا إيجابيا فى شأن القضية المصرية، بسبب سيطرة النزعة الاستعمارية له، وتكاتف الدولة الاستعمارية وتآمرها على مصر، للحيلولة دون تحقيق مطالبها(١).

لم يكد ينتهى مجلس الأمن، من خذلان القضية المصرية، حتى أعقب هذا الظلم الدولى، ظلم آخر زاد عنه قطاعة وإثما، وذلك من خلال القرار الذى أصدرته الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧، بشأن تقسيم فلسطين إلى دولة يهودية وأخرى عربية، وعلى إثر صدور هذا القرار، أعلنت بريطانيا أنها ستنهى انتدابها عن فلسطين فى ١٥ مايو ١٩٤٨، واتفقت الدول العربية، على أن تدخل فلسطين بجيوشها، بمجرد خروج القوات البريطانية منها، لكى يعيدوها إلى أهلها العرب، ويخرجوا منها قوات اليهود.. ودخل العرب فى حرب مع اليهود، انتهت بهزيمة الجيوش العربية، ودخلت القضية باب المفاوضات، التى انتهت إلى اتفاق على إعلان الهدنة الدائمة بين العرب واليهود، وهى الهدنة التى انتهت بها عمليات القتال فى فلسطين، الذى أبلى فيه الجيش المصرى -خاصة المتطوعين- بلاءً حسنا، وسقط فيه مئات الشهداء من الضباط والجنود(٢).

ومن الأحداث الهامة التى وقعت فى عام ١٩٤٧، هى ظهور وباء الكوليرا، وقد ظهر أولا فى محافظة الشرقية، وانتقل منها إلى كثير من المدن والمحافظات الأخرى، وكان ذلك فى سبتمبر ١٩٤٧، ومات بسببه أكثر من عشرة آلاف نسمة(٣).

وفى ٢٢ مارس عام ١٩٤٨ وقع حادث اغتيال القاضى أحمد الخازندار، وكيل محكمة استئناف مصر، وتبين من التحقيقات أن الحادث وقع على يد شباب من جماعة الإخوان المسلمين، زعموا أنهم قتلوه انتقاما منه لحكم أصدره حين كان رئيسا لمحكمة الجنايات بالإسكندرية على متهمين من الإخوان المسلمين فى حوادث القنابل(٤).

(١) عبد الرحمن الرافعى، فى أعقاب الثورة المصرية، مرجع سابق، صـ ٢٣٨.
(٢) السابق نفسه، صـ ٢٤٣، وما بعدها.
(٣) السابق نفسه، صـ ٢٤٢.
(٤) عبد الرحمن الرافعى، فى أحداث الثورة المصرية، مرجع سابق، صـ ٢٧٤.

وفى إبريل ١٩٤٨ شرع جماعة من الجناة فى نسف دار النحاس باشا بجاردن سيتى بواسطة انفجار سيارة مملوءة بقنابل الديناميت بجوار الدار، ونجا النحاس من هذا الحادث، ولم يعرف الجناة، وكان النحاس قد نجا من قبل فى محاولة لاغتيال، قام بها حسين توفيق، قاتل أمين عثمان(١).

وفى هذا العام ١٩٤٨ كثرت حوادث الانفجارات فى المحلات التجارية، وزادة نسبة المصادمات وأعمال العنف، ومن الحوادث المؤسفة التى دلت على تفاقم روح القتل اغتيال اللواء سليم زكى حكمدار العاصمة فى ٤ ديسمبر ١٩٤٨، بعد أن ألقيت عليه قنبلة من سطح كلية الطب بقصر العينى، واتهم فيه الإخوان المسلمون، وكان من نتيجة هذا الأحداث أن أصدر النقراشى بصفته حاكما عسكريا أمرًا عسكريا فى يوم ٨ ديسمبر ١٩٤٨ بحل جماعة الإخوان المسلمين وشعبها، وغلق الأمكنة المخصصة لنشاطها(٢).

وفى ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ حدث ما كان متوقعا، إذ بينما كان النقراشى داخلا إلى وزارة الداخلية، حياه شاب مرتديا ثياب ضابط، ثم أطلق عليه رصاصة أصابته فى ظهره، وأخرى فى صدره، حينما استدار ليواجه مهاجمته، وما لبث أن مات النقراشى بعد دقائق قليلة من الحادث، أما القاتل فهو عبد المجيد أحمد حسن، وقد صاحب الحزن الذى ساد جنازة النقراشى صيحات تهديدية مُرة صدرت من أتباعه منادين «بالموت لحسن البنا»(٣).

على إثر مقتل النقراشى، كُلف إبراهيم عبد الهادى رئيس الديوان الملكى بتأليف الوزارة الجديدة،، وذلك فى اليوم الذى اغتيل فيه النقراشى، ولم تتوقف حوادث الإرهاب والعنف عند هذا الحد، ففى ١٣ يناير ١٩٤٩ حاول أحد الإخوان المسلمين نسف دار محكمة الاستئناف، بباب الخلق، ولكن الله سلم، وانفجرت حقيبة المتفجرات خارج المبنى بعد أن تم نقلها فى اللحظات الأخيرة، وحكم على الجانى بالأشغال الشاقة المؤبدة(٤).

(١) السابق نفسه، صـ ٢٧٥.
(٢) السابق نفسه، صـ ٢٧٧.
(٣) ريتشارد ميتشل، الإخوان المسلمون، مرجع سابق، صـ ١٦٠.
(٤) عبد الرحمن الرافعى، فى أعقاب الثورة المصرية، مرجع سابق، صـ ٢٨٥.

وفى ١٢ فبراير ١٩٤٩ أطلق مجهول عدة أعيرة نارية على الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين بينما كان يغادر دار جمعية الشبان المسلمين، وفارق الحياة بعد إصابته ونقله إلى المستشفى، ويذهب ريتشارد إلى أن اغتيال البنا وقع على يد البوليس السياسى، وإن الذين اشتركوا فى الاغتيال لم يقدموا إلى المحاكمة إلا حين أعاد ضباط الجيش التحقيق فى القضية بعد قيام ثورة ١٩٥٢(١).

وفى ٢٥ يولية ١٩٤٩ استقالت وزارة إبراهيم عبد الهادى، وطلب الملك تشكيل وزارة ائتلافية يشترك فيها حزب الوفد، فتم تكليف حسين سرى بتشكيل الوزارة من جميع الأحزاب والمستقلين، وعقب التشكيل أعلن النحاس عن ولاءه للملك، والصداقة والمودة بين رئيس الوزارة الجديدة وبينه(٢).

وعندما فشلت الحكومة الائتلافية، قدم حسين سرى استقالته، وكلف فى الوقت نفسه بتأليف وزارة محايدة، وذلك فى ٣ نوفمبر ١٩٤٩، وفى ٣ يناير ١٩٥٠، جرت الانتخابات العامة لمجلس النواب، فاز فيها الوفد بالأغلبية، وعلى إثر نتائج الانتخابات قدم حسين سرى استقالته، فى ١٢ يناير ١٩٥٠، وفى اليوم نفسه، كلف الملك النحاس بتشكيل وزارته الوفدية، وتم تعيين حسين سرى رئيسا للديوان الملكى(٣).

إرهاصات ثورة ١٩٥٢:

وفى خلال الفترة من ١٩٥٠ وحتى ١٩٥٤، جرت فى مصر حوادث سياسية كان لها تأثيرها الكبير فى تغيير وجه مصر المعاصر، ففى الانتخابات التى جرت فى ٣ يناير ١٩٥٠، وفاز فيها الوفد بالأغلبية، شكل على إثرها النحاس الوزارة الوفدية، ويرجع فوز الوفد بالأغلبية فى هذه الانتخابات، أساسا إلى تأييد الجماهير الشعبية، التى كانت تعلق الآمال فى أن تقضى الحكومة الوفدية على نظام حكم الإرهاب والرجعية، وإنهاء حالة الحرب والسماح ببعض الحريات الديمقراطية، واتخاذ التدابير لتحسين الوضع الاقتصادى للكادحين، بجانب ذلك.، إعطاء الإخوان المسلمين أصواتهم للوفد على أمل

(١) ريتشارد ميتشل، الإخوان المسلمون، مرجع سابق، صـ ١٦٤.
(٢) لطيفة محمد سالم، فاروق وسقوط الملكية فى مصر، مرجع سابق، صـ ١٧٤.
(٣) عبد الرحمن الرافعى، فى أعقاب الثورة المصرية، مرجع سابق، صـ ٢٩٧، وما بعدها.

استئناف نشاطهم فى ظل الحكومة الوفدية، كما لعب الشعور بالقلق إزاء الأزمات الحكومية المتلاحقة، والذى كان سائدا فى دوائر الاحتكارات الأجنبية العاملة فى مصر، دورا معروفا فى فوز الوفد بهذه الانتخابات، هذا بالإضافة إلى الدور البريطانى فى مساعدة الوفد فى تولى السلطة، إذ إن الوفد بالذات هو الذى يبدى تعاونا مع الإنجليز فى أحرج اللحظات (١٩٣٦، ١٩٤٢)، وكان الإنجليز يعولون فى هذه المرة كذلك على أن يُقدم الوفد على الحلول الوسط، ويهيئون الرأى العام المصرى لتقبل إبرام معاهدة جديدة مع إنجلترا[١].

وفى ١٢ يناير ١٩٥٠ يصدر مرسوم ملكى بتكليف النحاس باشا بتأليف الوزارة الجديدة جاء فيه: اقتضت إرادتنا تحميلكم أمانة الحكم، وإسناد رياسة مجلس الوزراء إليكم لتقوموا بتلك المسئوليات الجسام التى ستلقى على عاتقكم فى تلك الحقبة الدقيقة من حياة البلاد، والتى تقتضيكم العمل لصالح الشعب، على نهج واضح من السياسة القومية التى تهدف إلى تأليف القلوب، وتوحيد الجهود للسير بالوطن العزيز نحو الغاية التى نؤملها جميعا لرفعته وإسعاده وتحقيق ما ينشده أهله من مطالب طبيعية عادلة. وعندما تم للوفد تشكيل الوزارة، وتولى الحكم، أعلن النحاس فى خطاب العرش الذى ألقاه فى ١٦ يناير ١٩٥٠ أن وزارته، لا تفتر فى بذل أصدق الجهود وأمضاها، ليتم الجلاء العاجل عن أرض الوادى بشطريه، وتصان وحدته تحت التاج المصرى من كل عبث واعتداء، فطلبت وزارة النحاس باشا فى مارس ١٩٥٠ الدخول فى مفاوضات جديدة مع الحكومة البريطانية[٢].

وأراد النحاس أن يصحح من واقع معاهدة ١٩٣٦، إلا أنه لم يفلح، وأصر الإنجليز على موقفهم المتعنت من معارضة مطالب مصر، وتتسرب أنباء هذا التعنت الإنجليزى، فيثور العمال، ويخرجون فى مظاهرات يطالبون بحقوقهم السياسية والاقتصادية، وعلى رأسها الجلاء الفورى للقوات الإنجليزية وإلغاء معاهدة ١٩٣٦، الإنجليزية المصرية، كما

(١) سيرانيان، مصر ونضالها من أجل الاستقلال ١٩٤٥ - ١٩٥٢، ترجمة عاطف علام، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٥، صـ ٢١٥، ٢١٦.

(٢) عبد الرحمن الرافعى، فى أعقاب الثورة المصرية، جـ ٣، مرجع سابق، صـ ٣٠١، ٣٠٢.

قامت مظاهرات طلابية عارمة تنادى بالاستقلال والجلاء التام، ولقد عمت هذه المظاهرات المدن الكبرى كالقاهرة والإسكندرية وبور سعيد، لدرجة أن الحكومة الوفدية خافت من تبعاتها، فأسرعت إلى اتخاذ التدابير الضرورية لوقف هذه المظاهرات، فأعلنت فى ٢٣ نوفمبر ١٩٥٠ حالة الطوارىء فى هذه الثلاث من المدن الكبرى(١).

وفى أبريل ١٩٥٠ عين السيررالف ستيفنسن سفيراً لبريطانيا فى مصر خلفا للسير رونالدكامبل، ولم يحدث على يد السفير الجديد تغيير فى السياسة البريطانية، سوى أنه كان أكثر صراحة من السفير السابق فى استبعاد فكرة الجلاء التى كانت تتردد من قبل فى تصريحات الرسميين فى بريطانيا(٢).

وكان من الأحداث التى وقعت فى عام ١٩٥٠، حدثان هامان الأول: الاستجواب الذى قدمه النائب البرلمانى مصطفى مرعى بخصوص تحديد المسئول عن استيراد الأسلحة الفاسدة التى استخدمها الجيش المصرى فى حربه للعصابات الصهيونية فى فلسطين عام ١٩٤٨(٣).

والحدث الثانى: هو قيام الملكة (نازلى) أم الملك فاروق بتزويج بنتيها الأميرتين، فائقة وفتحية من فؤاد صادق ورياض غالى المسيحى الذى قيل إنه أعلن إسلامه، وكانا يعملان سكرتيرين لهما، وتم الزواج فى إقامتهما فى الولايات المتحدة الأمريكية، على غير موافقة فاروق(٤).

وعلى الناحية الأخرى، تمر الشهور دون تقدم ملموس فى مسار المفاوضات المصرية البريطانية، فالجانب المصرى متمسك بمطالبه التى تتمثل بداية فى الجلاء التام للقوات البريطانية عن مصر، ويرد الجانب البريطانى بأن الجيش المصرى، عاجز عن

(١) سيرانيان، مصر ونضالها من أجل الاستقلال، مرجع سابق، صـ ٢٢٢.
(٢) عبد الرحمن الرافعى، فى أعقاب الثورة المصرية، مرجع سابق، صـ ٣١٦.
(٣) راجع التفاصيل كاملة: عبد المنعم الدسوقى الجميعى، الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين ١٩٤٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٠، صـ ١٧، وما بعدها. وأيضا: محمد حسين هيكل، مذكرات فى السياسة المصرية، جـ ٣، مرجع سابق، صـ ٨٦ وما بعدها.
(٤) راجع التفاصيل: محمد حسين هيكل، مذكرات فى السياسة المصرية، مرجع سابق، صـ ٢٩٧.

حماية البلاد وحده، ولذلك فلابد من نظام الدفاع المشترك، وأنه يجب لانجلترا أن تشرف على القاعدة العسكرية فى مصر لا فى وقت الحرب فحسب بل فى وقت السلم كذلك، ومن هنا تعلن الحكومة الوفدية فى خطاب العرش الثانى فى نوفمبر ١٩٥٠ تهديداً بإلغاء معاهدة ١٩٣٦، إذا لم تسفر المباحثات عن نتيجة.. وتنقطع المباحثات لتبدأ -بعد وفاة بيفن- مع موريس وزير خارجية بريطانيا الجديد فى أبريل ١٩٥١[١]، وتعود حكومة الوفد بتحديد مطالب مصر من جديد على الوجه التالى:

١ - الشروع فى إجلاء القوات البريطانية عن مصر بمجرد عقد الاتفاق على ألا يتجاوز ذلك مدة سنة.

٢ - تسليم القاعدة البريطانية فى قناة السويس إلى القوات المسلحة المصرية بمجرد إتمام الجلاء.

٣ - إعطاء أولوية خاصة لتزويد الجيش المصرى بالأسلحة والمعدات اللازمة فى أقرب وقت باعتبار مصر قائمة فى منطقة استراتيجية.

٤ - وحدة مصر والسودان تحت التاج المصرى وتمتع السودانيين فى نطاق هذه الوحدة وفى مدى عامين بالحكم الذاتى.

٥ - عقد اتفاق بين الطرفين يمكن بمقتضاه عودة القوات البريطانية إلى الجهات التى يتفق بين الحكومتين على ضرورة عودتها إليها للمعاونة فى الدفاع عن مصر فى حالة وقوع اعتداء مسلح عليها أو فى حالة اشتباك بريطانيا فى حرب نتيجة لاعتداء مسلح على البلاد العربية المتاخمة.

٦ - إذا عادت القوات البريطانية إلى مصر وفقا للبند السابق يتعين الشروع فى إجلائها عنها بمجرد انتهاء العمليات الحربية على أن يتم الجلاء برا وبحرا فى مدة أقصاها ثلاثة شهور[٢].

---

(١) راجع: طارق البشرى، الحركة السياسية فى مصر، مرجع سابق، صـ ٢٣٥.
وأيضا: سيرانيان، مصر ونضالها من أجل الاستقلال، مرجع سابق، صـ ٢٢٥، وعبد العزيز على، الثائر الصامت، مرجع سابق، صـ ٢١١.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى، شخصيات مصرية، سلسلة كتاب الهلال، العدد (٥١٦) الطبعة الأولى، ديسمبر ١٩٩٣، صـ ٢٢٥.

وفى ٤ أبريل ١٩٥١ نظمت الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى، مؤتمرا بنادى كلية الحقوق بجامعة فؤاد (القاهرة الآن)، وذلك ليضع ميثاقا وطنيا يلتزم به الزعماء، ويربط الصحف الوطنية والكتاب الأحرار بالكفاح الشعبى، ودعا المؤتمر للكفاح المسلح باعتباره الوسيلة الوحيدة لتحقيق المطالب الوطنية، وانتهى المؤتمر إلى الموافقة على نص الميثاق الوطنى الذى يعلن ا ح ضد:

١ – أى معاهدة أو تحالف أو دفاع مشترك فى أى صورة من صور التعاهد مع الاستعمار الأنجلو أمريكى أو التحالف الثنائى، اكتفاء بميثاق الأمم المتحدة.

٢ – تدعيم الكفاح المشترك بين المصريين والسودانيين من أجل التحرر الكامل من براثن الاستعمار والاحتجاج على سياسة الحاكم العام (فى السودان) والمطالبة بإلغاء قانون الطوارىء والحكم العرفى فى السودان.

٣ – الاعتداء على الحريات العامة، حرية الصحافة والرأى والاجتماع.

٤ – الهيئة التى أقامها الاستعمار لتوطيد أقدامه ولمحاربة المواطنين الأحرار، وهى البوليس السياسى، كما أعلن الميثاق النضال من أجل:

١ – قطع المفاوضات فوراً.

٢ – نصرة قضية السلام وتأييد جميع المناضلين من أجله.

٣ – تطهير البلاد من الجاسوسية بإلغاء البوليس السرى.

٤ – إلغاء الأحكام الصادرة فى القضايا السياسية خصوصا من المحاكم العسكرية.

٥ – حق تكوين الجمعيات والهيئات والأحزاب باعتباره حقا دستوريا للمصريين جميعا، وإلغاء جميع التشريعات الاستثنائية التى تحد من الحرية والمطالبة بصفة خاصة بإعادة جميع الصحف الملغاه وتحريم إلغاء أى جريدة فى المستقبل تمسكا بالدستور(١).

وعندما أقبل ٢٦ من أغسطس ١٩٥١ –ذكرى توقيع معاهدة ١٩٣٦– تنادت أيضا التنظيمات السياسية بالدعوة للتظاهر، وأعلنت الحكومة حالة الطوارىء، وخرجت

(١) طارق البشرى، الحركة السياسية فى مصر، مرجع سابق، صـ ٣٥٢، ٣٥٣.

المظاهرات تجوب شوارع القاهرة، تردد الهتافات وتحمل لافتات كبيرة كتب عليها، تسقط المعاهدة، عاشت مصر حرة، لا استعمار بعد اليوم، دماؤنا رخيصة فى سبيل الوطن، وطافت الجموع بوزارج الخارجية وبالسفارة البريطانية، تنادى بإلغاء المعاهدة وبالكفاح المسلح، وفي المساء عقد مؤتمر حاشد من جميع الهيئات والتنظيمات، خرج المؤتمر بتوصيات تتلخص فى التأكيد على بطلان معاهدة ١٩٣٦، واستنكار إبرام معاهدة أخرى مع بريطانيا وأمريكا، ودعوة الشعب لتحريم التعامل مع الإنجليز، عسكريين ومدنيين وعدم التعامل مع معسكراتهم وتنظيم منع وصول المأكولات والأدوية والأيدى العاملة إلى المعسكرات(١).

ولقد تركز الاهتمام الشعبى منذ ٢٦ أغسطس ١٩٥١، خاصة، فى المشكلة الوطنية، وسرى شعار إلغاء المعاهدة والكفاح المسلح الذى أطلقته التنظيمات الشعبية، ووجد قبولا كاسحا حتى استبد بالحياة السياسية، وحتى مهد أمام الأكثرية الطريق الذى لا طريق وراءه لحل المشكلة الوطنية، فلقد ثبت من حصيلة عام ١٩٤٦ أن طريق المفاوضة مسدود، ثم أثبتت حصيلة عام ١٩٤٧، أن طريق التحكيم الدولى مسدود أيضا، ولن تستطيع حكومة أن تصل عن أى من هذين الطريقين إلى ما يحقق المطالب الوطنية الجماهيرية.. حتى حزب الوفد لم يستطع أن يفتتح مفاوضات رسمية مع الإنجليز، إنما اكتفى بمباحثات تمهيدية يجريها، فلما وجد الطريق مسدوداً لم يكن ثمة بد، من أن تعلن الجماهير، فشل الطريق السلمى فى تحقيق المطالب الوطنية، وبهذا ارتفع شعار الكفاح المسلح، وأول خطوات تنفيذ هذا الشعار إلغاء معاهدة ١٩٣٦، وإعلان أن الوجود البريطانى فى مصر وجود غير مشروع، ومن ثم تغدو كافة أساليب كفاحه أساليب مشروعه، وأهمها الإمساك بالسلاح وتكوين كتائب الفدائيين، كان هذا هو اتجاه الوعى الشعبى والمستوى الذى وصل إليه فى صيف ١٩٥١، وبهذا الاتجاه تركز الضغط على الحكومة(٢).

وفى ٨ أكتوبر ١٩٥١ اجتمع البرلمان، وألقى مصطفى النحاس رئيس الوزراء بيانا عن سياسة الحكومة نحو معاهدة ١٩٣٦، أعلن فيه قطع المفاوضات السياسية التى

(١) السابق نفسه، صـ ٣٥٤ – ٣٥٥.
(٢) السابق نفسه، صـ ٤٧٧.

كانت قائمة فى عهد وزارة الوفد بين الحكومتين المصرية والبريطانية «بعد أن تبين عدم جدوها» كما أعلن إلغاء معاهدة ٢٦ أغسطس ١٩٣٦، واتفاقيتى ١٩ يناير و١٠ يولية ١٨٩٩ بشأن إدارة السودان(١).

لم تُثر المعارضة جميعها اعتراضا على إلغاء المعاهدة، بل أيدت الأحزاب كلها هذا الإلغاء، وفى ١٩ من أكتوبر ١٩٥١ نشرت الصحف نبأ اختيار حسن الهضيبى مرشداً عاما للإخوان المسلمين، خلفا لحسن البنا الذى اغتيل فى ١٢ فبراير ١٩٤٩، وبهذه المناسبة أصدرت الهيئة التأسيسية للإخوان المسلمين بيانا أكدوا فيه تقديريهم للخطوات الوطنية المباركة التى تتمثل فى مراسيم إلغاء معاهدة ١٩٣٦، واتفاقيتى السودان، وأضاف البيان: ولما كانت الحكومة بسبيل اتخاذ إجراءات ايجابية لتنفيذ هذه المراسيم، والرد على اعتداءات الإنجليز الأخيرة، فإن الإخوان المسلمين يعلنون استعدادهم التام لمؤازرة الحكومة والتعاون معها فى كل عمل إيجابى يؤدى إلى الاستقلال ووحدة الوادى والتخلص من كل آثار الاستعمار(٢).

وعلى إثر إعلان إلغاء معاهدة ١٩٣٦، أصدرت السفارة البريطانية فى القاهرة بيانا أعلنت فيه أن إلغاء الحكومة المصرية للمعاهدة من جانبها وحدها عمل غير قانونى، ويخالف أحكام المعاهدة، وأن الحكومة البريطانية تعتبرها سارية المفعول، وتعتزم التمسك بحقوقها بمقتضى هذه المعاهدة، وفى الوقت نفسه تقدمت بريطانيا وأمريكا وفرنسا وتركيا بمقترحات أربع إلى مصر لتكون بديلا عن المعاهدة، وأساس هذه المقترحات، أن تقبل مصر الدفاع المشترك مع هذه الدول الأربع، وأن تكون حماية قناة السويس منوطة بقوات دولية تشترك فيها مصر وبريطانيا وأمريكا وفرنسا وتركيا واستراليا ونيوزيلاندا وجنوب أفريقيا، ويكون لجزء من هذه القوات حق البقاء فى مصر حتى فى حالة السلم، مع استمرار الحكم البريطانى فى السودان، وإنشاء رقابة دولية صورية لا تحد من سيطرة الإنجليز فيه وجعل علاقة مصر بالسودان علاقة مياه

---

(١) عبد الرحمن الرافعى، مقدمات ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧، صـ ٢٥.

(٢) محمود عبد الحليم، الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ جـ ٢، دار الدعوة الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٩٨١، صـ ٦٧٨.

فحسب، وقدمت هذه المقترحات إلى الحكومة المصرية فى ١٣ أكتوبر ١٩٥١، فقرر مجلس الوزراء رفضها(١).

وكان من نتائج إلغاء معاهدة ١٩٣٦، انتهاء التحالف بين مصر وبريطانيا واعتبار مركز قوات الإنجليز فى منطقة قناة السويس مركز غاصبين محتلين، واستقبلت البلاد إلغاء المعاهدة بالغبطة والحماسة وأبدت استعدادها للبذل والتضحية فأضرب العمال المصريون فى المعسكرات البريطانية عن العمل فيها، وانسحبوا جميعا منها، وبلغ عدد العمال المنسحبين أكثر من ستين ألف عامل، وقامت المظاهرات الشعبية فى المدن الكبرى كالإسماعيلية، وبور سعيد، والسويس ووقعت بين المتظاهرين وقوات الاحتلال تصادمات عديدة، وتعطلت الدراسة فى جامعات مصر (القاهرة- الأزهر- عين شمس- الإسكندرية) إلى أجل غير مسمى، بسبب مظاهرات الطلاب العدائية للملك فاروق وللملكية فى مصر(٢).

ولقد تطوع كثير من الشباب للكفاح ضد الاحتلال فى منطقة القنال وألفوا من بينهم كتائب سميت «كتائب الفدائيين» أو «كتائب التحرير» تكونت فى القاهرة وفى المدن والقرى الواقعة فى منطقة القنال أو القريبة منها، وكانت هذه الكتائب تدرب على حرب العصابات، وتولى الفريق عزيز المصرى تدريب هذه الكتائب تدريبا عسكريا فى القاهرة قبل سفرها إلى القنال، ثم تدخلت الحكومة لتتولى مسألة الإعداد والتدريب بنفسها منعا لاحتمال الفوضى، وبالفعل اشتبك الفدائيون مع الإنجليز فى معارك عديدة على أرض التل الكبير وأبى صوير والمحسمة والقرين والإسماعيلية والسويس، وسقطت أعداد كثيرة من هؤلاء فى تلك المعارك الضارية ضد الاحتلال. ومع أن معارك القنال كانت قصيرة المدى، فإن نتائجها كانت بعيدة الأثر فى تاريخ مصر، وكانت من العوامل الفعالة فى جلاء الإنجليز عن منطقة القنال(٣).

(١) عبد الرحمن الرافعى، مصر بين ثورة ١٩١٩ وثورة يوليو ١٩٥٢، مرجع سابق، صـ ٨٢.
(٢) عبد الرحمن الرافعى، السابق نفسه، صـ ٩٢ وما بعدها.
(٣) عبد الرحمن الرافعى، مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، مرجع سابق، صـ ١١٤.

حريق القاهرة:

وفى يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ وقع حادث حريق القاهرة، وأسباب هذا الحادث تدور حول مسألة المواجهة المسلحة التى وقعت بين قوة بلوك النظام بالإسماعيلية وقوات الإنجليز، وقتل عدد كبير من الجنود المصريين، فخرجت قوات بلوك النظام بالقاهرة، وتجمهرت وسارت نحو جامعة فؤاد الأول بالجيزة، وتظاهر الطلاب كذلك معهم، وطافت المظاهرات ميادين القاهرة، وانتهزت طائفة من المخربين، اضطراب النظام فانتشرت فى القاهرة توقد النار فى متاجرها وفنادقها وملاهيها، بدأوا وإجرائمهم بإحراق كازينو أوبرا فى ميدان الأوبرا، ثم امتد نشاطهم المخرب إلى محلات شيكوريل وفندق شبرد، بل وفى كل مكان من أرجاء العاصمة حتى بلغوا شارع الهرم يحرقون ويخربون إلى ساعة متأخرة من الليل(١).

ويطرح عبد الرحمن الرافعى سؤالا: من المسئول عن حريق العاصمة؟ ويجيب عن تساؤله قائلا: من الواجب أن نتقصى المسئولية فى حريق العاصمة، وأن نتحرى الحقائق ولو كانت لا ترضينا.. فلا شك أن أول مسئول عن حريق القاهرة هو الاحتلال البريطانى، إذ إن مجرد وجوده يدعو إلى إثارة السخط فى النفوس.. والمسئول الثانى: هو الحكومة بإهمالها القيام بأول واجباتها، وهو المحافظة على الأمن والنظام.. وثمة مسئولية أخرى تقع على رجال البوليس أنفسهم، وذلك أنهم -فى الجملة- أبدوا تهاونا جسيما فى أداء واجبهم.. ومسئولية أخرى أيضا تقع على عاتق فريق من المثقفين أو أشباه المثقفين، الذين كانوا يحرضون الغوغاء على الحريق فى ذلك اليوم المشئوم(٢).

اجتمع مجلس الوزراء فى نفس يوم الحريق، وقرر إعلان الأحكام العرفية فى جميع أنحاء البلاد، ووقف الدراسة فى الجامعات وجميع المعاهد والمدارس إلى أجل غير

(١) محمد حسين هيكل، مذكرات فى السياسة المصرية، جـ ٢، مرجع سابق، صـ ٣١١.
(٢) يذهب الرافعى إلى أن الملك فاروق لم يكن له يد فى تدبير حريق القاهرة، وإن كان قد ساعد على وقوعه بطريقة غير مباشرة، فهو بذلك شريك فى المسئولية، راجع التفاصيل: عبد الرحمن الرافعى، مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، مرجع سابق، صـ ١٢٨، ويذكر البشرى أن بعض الاتجاهات اتهمت الإخوان المسلمين، وبعضهم اتهم أحمد حسين زعيم مصر الفتاة والبعض الآخر اتهم الشيوعيين بتدبير حريق القاهرة راجع: طارق البشرى، الحركة السياسية فى مصر، مرجع سابق، صـ ٥٣٤.

مسمى، وفى اليوم التالى ٢٧ يناير ١٩٥٢، أقيلت وزارة النحاس باشا، وجاء فى قرار الإقالة ما يلى: لما أصيبت به العاصمة أمس من اضطرابات نتجت عنها خسائر فى الأرواح والأموال وسارت الأمور سيرا يدل على أن جهد الوزارة التى ترأسونها قد قصر عن حفظ الأمن والنظام، لذلك رأينا إعفاءكم من منصبكم(١).

فى اليوم الذى أقيلت فيه وزارة النحاس، عهد فاروق إلى على ماهر بتأليف الوزارة الجديدة، وكانت هذه الوزارة، وزارة تهدئة لحال البلاد.. وسعى على ماهر إلى استئناف المفاوضات مع الإنجليز لتحقيق أهداف البلاد، وفى مقدمتها الجلاء ووحدة الوادى(٢).

ويؤخذ الرافعى على وزارة على ماهر أنها اتخذت إجراءات لوقف الكفاح فى القنال وانسحاب الفدائيين، واعتقلت كثيرا من الفدائيين فى الإسماعيلية وبور سعيد، والسويس، والتل الكبير، وتخفت على عودة الكثير من العمال المنسحبين إلى المعسكرات البريطانية، وعلى استئناف أعمال الشحن والتفريغ للقوات البريطانية فى موانىء القنال وإعادة تموين المعسكرات البريطانية، وأن ذلك كان العربون الذى قدمته الحكومة للإنجليز لبدء المباحثات والعودة للمفاوضة(٣).

ويذكر البشرى أن على ماهر استدعى فى الوقت نفسه ممثلى كتائب الفدائيين، ونصحهم بالتوقف عن القتال، فاشترطوا عليه أن تكون الهدنة لأجل محدد، وألا يقبض على أحد من الفدائيين أو يصادر سلاحه، وطلبوا إليه أن تمد الحكومة الكتائب بالسلاح سراً وتطلق لها الحرية فى التدريب والاستعداد، فأجاب أنه سيحاول الوصول إلى اتفاق مع الإنجليز، وأنه إن أخفق سيدعو الكتائب بنفسه لاستئناف الكفاح(٤).

ويبدو أن السراى اعتقدت أن المدة التى بقيها على ماهر فى الحكم، كانت كافية لإعادة الهدوء والاستقرار، فدبرت له ما جعله يستقيل فى ذات اليوم المحدد لبدء مباحثاته مع السفير الإنجليزى رالف ستيفنسون، وأبلغت السفير ليعتذر عن مقابلة على

(١) عبد الرحمن الرافعى، مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، مرجع سابق، صـ ١٢٩، ١٣٠.
(٢) عبد الرحمن الرافعى، السابق نفسه، صـ ١٣٩.
(٣) عبد الرحمن الرافعى، السابق نفسه، صـ ١٣٦.
(٤) طارق البشرى، الحركة السياسية فى مصر، مرجع سابق، صـ ٥٦٢ وراجع أيضا عبد العزيز على، الثائر الصامت، مرجع سابق، صـ ٢٢٤.

ماهر، فلما طلب ماهر مقابلة الملك رفض الملك، فقدم استقالته وقبلت فى أول مارس ١٩٥٢، وفى اليوم نفسه عهد الملك إلى أحمد نجيب الهلالى بتأليف الوزارة(١).

كانت وزارة الهلالى ترفع شعار «التطهير قبل التحرير» وكان من المفترض أن تكون فى مركز أفضل من سابقتها التى تلقت عنها الصدمة الأولى، وأنها تستطيع فى يسر أن توجه الأنظار إلى مشكلة الفساد الداخلى.. ولكن يلزم لنجاح مسعى الوزارة أن تكسب ثقة الرأى العام فيها، ليتحول معها إلى ميدان التطهير، ويلزم لذلك لا أن تتحدث عن أهمية التطهير وجدواه، فهو مطلب واضح لا خلاف عليه، ولكن أن تشيع الثقة بأنها جادة فى محاربة الفساد، وكان الحجر الأساسى له فى القصر الملكى.. ولكن الملك وحاشته خشوا من حركة التطهير أن تمتد إلى أمر يمسهم، ونشطت مؤامرات الحاشية ضد رئيس الوزراء، فكان الملك يسخر من رئيس وزرائه فى مجالسه الخاصة، وعرف الهلالى وقتها أن هناك مؤامرة لإقالة وزارته، فما كان منه إلا أن قدم استقالته إلى الملك يوم ٢٨ يونية ١٩٥٢(٢).

ظلت الدولة بغير وزارة أربعة أيام، لعب خلالها رجال القصر على جوادين فى وقت واحد، هما بهى الدين بركات وحسين سرى، كان كريم ثابت المستشار الصحفى للملك وإلياس اندراوس المستشار الاقتصادى، اللذين عقدا [illegible] إخراج وزارة الهلالى، كانا يرشحان حسين سرى، وكان حافظ عفيفى رئيس الديوان الملكى يرشح بهى الدين بركات، ثم انتصر مرشح الحاشية والمال وعين حسين سرى رئيسا للوزراء فى ٢ يولية ١٩٥٢(٣).

والحقيقة أن الوقت لم يتسع لوزارة حسين سرى لتكوين رأيها واتجاهاتها فى المسائل العامة التى كانت تشغل الرأى العام، لأنها لم تبق فى الحكم سوى تسعة عشر يوما، وإن كان قد ظهر خلاف بينها وبين الملك حين تحرجت أزمة نادى ضباط الجيش إذ أصدرت إدارة القوات المسلحة أمرا بحل مجلس إدارة النادى وغلقه، بعد أن أخفقت فى إسقاطهم فى الانتخابات أو فى تنحيتهم وحملهم على الاستقالة، وذلك لأن مجلس

---

(١) طارق البشرى، الحركة السياسية فى مصر، مرجع سابق، صـ ٥٦٣.
(٢) طارق البشرى، السابق نفسه، مرجع سابق، صـ ٥٦٧، ٥٧٧.
(٣) السابق نفسه، صـ ٥٨٧.

الإدارة كان مجموعة من الضباط الأحرار، وأراد حسين سرى تهدئة الموقف، فعرض على الملك إسناد وزارة الحربية إلى اللواء محمد نجيب رئيس النادى ليكون ذلك إرضاء لضباط الجيش، ولكن الملك رفض هذا الترشيح فاشتد الخلاف بين الوزارة والسراى فى شأن أزمة الجيش فقدم حسين سرى استقالته إلى الملك فى يوم ٢٠ يولية ١٩٥٢ وقبلت الاستقالة فى ٢٢ يولية، وفى اليوم نفسه، كُلف أحمد نجيب الهلالى بتأليف الوزارة من جديد، والتى لم تدل إلا بضع ساعات، وهذه هى الوزارة الرابعة التى تألفت بعد حريق القاهرة، أى أنه قد تعاقبت على البلاد أربع وزارات فى ستة أشهر، وهذا يدلل على مبلغ الفوضى وعدم الاستقرار فى الحكم فى هذه الفترة العصيبة من تاريخ مصر.. ولم تمض ساعات على تشكيل وزارة الهلالى الأخيرة، حتى عاجلتها ثورة الجيش فى ٢٣ يولية ١٩٥٢، فأطاحت بها، وبدأت مرحلة جديدة فى تاريخ كفاح الشعب ونضاله فى سبيل تحقيق أهدافه(١).

سمات مرحلة ما قبل الثورة:

ومن خلال دراستنا لمرحلة الديمقراطية البرلمانية تبدو عدة سمات لنظام الحكم فى مصر، حينئذ، والتى تتمثل فى النقاط التالية:

١ - الاتجاه نحو نمط من القيادة الفردية، ويلاحظ ذلك لدى الملك ولدى الوفد ولدى الإخوان المسلمين، مع اختلاف المبررات والأهداف.

٢ - الازدواج فى مفهوم السلطة التنفيذية، فكانت تتكون دائما من رئيس الدولة أو الوزراء على الأخذ فى الاعتبار أن رئيس الدولة -الملك- كان يملك ويحكم، ويتمتع بسلطات حقيقية فى اتخاذ القرار السياسى.

٣ - الاستقرار على مستوى رئاسة الدولة، مع درجة عالية من عدم الاستقرار على مستوى الوزارة والبرلمان، حتى إن عدم الاستقرار الوزارى والبرلمانى يعد أحد سمات نظام الحكم فى مصر خلال هذه المرحلة.

٤ - غلبة السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية، فلم يحدث أن سحب البرلمان الثقة

---

(١) عبد الرحمن الرافعى، مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، مرجع سابق، صـ ١٤١.

من الوزارة، وهكذا فى التجربة المصرية، نقيضا للمبدأ البرلمانى، كانت الوزارة تختار وتصنع برلمانها، وليس العكس.

٥ – الدور الكبير لطبقة ملاك الأراضى فى تكوين النخبة السياسية الحاكمة.

٦ – علاقة القوى الخارجية بتطور نظام الحكم، فكما رأيناك فإن عدم الاستقرار السياسى ارتبط فى أغلب الأحيان بالتدخل الإنجليزى(١).

ولكن الفترة التى سبقت قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر، كانت تتسم بعدة سمات منها:

١ – ازدياد الهوة بين النخبة السياسية الحاكمة والجماهير، وبالذات فيما يتعلق بمطالب التغيير الاجتماعى، وعجز النخبة عن التعبير عن هذه المطالب أو الاستجابة لها.

٢ – دخول القضية الوطنية فى مأزق تاريخى بعد فشل كل المباحثات لإعادة النظر فى معاهدة ١٩٣٦، وقيام الحكومة المصرية بإلغائها فى ١٩٥١.

٣ – حدوث تحويلات على مستوى الجماهير الشعبية، التى أصبحت معبأة بمشاعر التغيير الثورى، دون أن تمتلك من أدوات التنظيم السياسى، ما يمكنها من تغيير نظام الحكم.

٤ – الوضع الاقتصادى للبلاد الذى يتسم بعدم العدالة الصارخة والتفاوت فى توزيع الدخل.

٥ – تصاعد عمليات ا ح الشعبى ضد الإنجليز، بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦(٢).

والواقع أن الشعب المصرى، كان يعيش فى السنوات السابقة للثورة، فى حالة بأس شديد، نتيجة الأوضاع الاقتصادية ولبقاء جيش الاحتلال، وكان لابد من تغيير سريع، وكان من المستحيل أن تقوم الأحزاب السياسية فى مصر بمهمة هذا التغيير بعد أن فقد الجماهير ثقتها بتلك الأحزاب، وأخذت تبحث عن شىء جديد ينير معالم الحياة فى

(١) على الدين هلال، السياسة والحكم فى مصر، العهد البرلمانى، ١٩٢٣ – ١٩٥٢، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٧، صـ ٢٨٠.

(٢) السابق نفسه، صـ ٢٧٥ – ٢٧٦.

البلد.. وكان الموقف يتطلب ظهور قيادة غير قيادات الأحزاب القائمة، فى الوقت الذى كان فيه الوعى القومى للشعب قد ازداد ارتفاعا.. وأثبت هذا الوعى وجوده فى مظاهرات فبراير ١٩٤٦ وفى المعارك المسلحة فى القنال سنة ١٩٥١، وكانت حرب فلسطين، والكشف عن مخازى القصر إيذانا بارتفاع صوت الشعب بالمطالبة بالقضاء على الملكية، وظهرت المقالات فى الصحف ضد البشوات إيذانا بالقضاء على الاحتكار.. ولم يكن الجيش بمعزل عن الشعب، فقامت فى صفوفه حركة تنظيمية سرية منذ ١٩٤٢، وبدأت الحركة تظهر فى أوساط الجيش لمقاومة محاولة التدمير التى أزمع الإنجليز القيام بها(١).

ولقد كان تنظيم الضباط الأحرار كله من جيل شباب الثلاثينات، وهو جيل تفتح إدراكه السياسى على حركتى الإخوان المسلمين ومصر الفتاة، ومنهم من شارك تلميذاً بالمدارس الثانوية فى مظاهرات مصر الفتاة أو حركة القرش، ومنهم من كان له وجه اتصال بالإخوان المسلمين فى بداية الأربعينات، وبعضهم انضم فعلا إلى الإخوان فى فترة ما، وبعضهم اتصل من بعد بالحركة الشيوعية، وقد أدى الانضمام إلى الأحزاب من مجموعات الضباط إلى خلخله التشكيل العسكرى لهم حسب وحدات عملهم بالجيش.. ولكن ما لبثت الغالبية الغالبة من هؤلاء أن انصرفت عن الارتباط بأى من التنظيمات والأحزاب السياسية، وقصروا نشاطهم على المؤسسة العسكرية، وذلك باستثناء عدد محدود إستبقى روبطه الحزبية، وما لبث هذا العدد أن استبعد من تنظيم الضباط(٢).

استقام لحركة الضباط الأحرار تشكيلها التنظيمى كحركة سياسية ألزمت نفسها بالعمل فى نطاق المؤسسة العسكرية، والابتعاد عن الحركة الحزبية فى المجتمع.. وكان جمال عبد الناصر هو السابق فى التحرك لربط المجموعات المختلفة فى هذا الكيان الواحد، فهو كيان سياسى عسكرى، يتكون من شباب الضباط فى أصاغر الرتب، وهو

(١) جاد طه، معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر، دار الفكر العربى ، القاهرة الطبقة الأولى، ١٩٨٥ صـ ٣٩٤.

(٢) طارق البشرى، الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليو ١٩٥٢ - ١٩٧٠، سلسلة كتاب الهلال رقم (٤٩٢) الطبعة الأولى، ديسمبر ١٩٩١، صـ ٦، ١، ١٠٧.

كيان غير حزبى، وحركة غير جماهيرية، بمعنى أنها لا ترتبط تنظيما بالأحزاب، ولا تتوجه فى نشاطها لجماهير شعبية خارج المؤسسة العسكرية، وإذا كانت المجموعات المختلفة تنطوى على عناصر من اتجاهات سياسية متباينة، فقد التقت جميعا على أهداف عامة يمكن أن يلتقى عليها الجميع بصرف النظر عن المشرب السياسى الذي ينتمى إليه أو يستحسنه، وهذه الأهداف هى مهاجمة الاستعمار والملكيات الكبيرة والفساد وهزيمة حرب فلسطين ومنها ظهرت الأهداف الستة التى تنبتها ثورة ٢٣ يولية وخلاصتها: طرد المستعمر، والقضاء على الإقطاع وسيطرة رأس المال على الحكم، وإقامة حياة نيابية سليمة وبناء جيش قوى.(١)

ثورة ١٩٥٢ وعهد جديد:

وفى صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ استيقظ المواطنون على أول بيان للضباط الأحرار أذيع بصوت البكباش أنور السادات من دار الإذاعة المصرية باسم «القائد العام للقوات المسلحة» ولقد استقبل الشعب المصرى بيان قائد حركة الجيش اللواء محمد نجيب بالفرح والإعجاب، وكان على قادة الحركة أن يواجهوا المسئولية وأولها تكليف وزارة لإدارة البلاد، واتفق جميع الضباط الأحرار على تعيين على ماهر رئيسا للوزراء، ويرجع ذلك لعدة أسباب أهمها: أن علاقة على ماهر الوثيقة بالملك فاروق يمكنها أن تسهل نجاح الحركة.. فاستقالت وزارة أحمد نجيب الهلالى فى ٢٤ يولية ١٩٥٢، وكلف الملك على ماهر بتأليف الوزارة.. وقدم محمد نجيب فى ٢٦ يولية لعلى ماهر إنذار الجيش للملك بضرورة توقيع وثيقة التنازل عن العرش قبل الثانية عشر ظهرا ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة مساء.. وتنازل الملك لابنه أحمد فؤاد، بناء على نصيحة على ماهر والسفير الأمريكى.. وخرج فاروق من مصر يحمله اليخت الملكى من ميناء الإسكندرية متجها نحو إيطاليا(٢).

وفى ٧ سبتمبر ١٩٥٢، قدم على ماهر استقالته، وفى نفس اليوم ألف محمد نجيب وزارة مدنية برياسته، وكان أول عمل لوزارة محمد نجيب إصدار قانون الإصلاح الزراعى، وقانون تنظيم الأحزاب السياسية، وحدد قانون الإصلاح الزراعى، فقضى

(١) السابق نفسه، صـ ١١٤ وما بعدها.
(٢) راجع: رشوان محمود جاب الله، على ماهر، مرجع سابق، صـ ١١٧، ١١٨.

بأنه لا يجوز لأى شخص أن يمتلك من الأراضى الزراعية أكثر من مائتى فدان، وله فوق ذلك أن يتصرف إلى أولاده فى مساحة أخرى لا تزيد على مائة فدان[١].

وفى ١٠ ديسمبر ١٩٥٢ أعلن محمد نجيب باسم الشعب سقوط دستور ١٩٢٣ فى بيان أوضح فيه: أنه أصبح لزاما أن تغير الأوضاع التى كادت تودى بالبلاد والتى كانت سندها دستور ١٩٢٣، وأن لا مناص من أن نستبدل بذلك الدستور دستورا آخر جديدا يمكن للأمة أن تصل إلى أهدافها حتى تكون بحق مصدر السلطات، وفى ١٣ يناير ١٩٥٣ صدر مرسوم بتأليف لجنة لوضع مشروع دستور جديد «يتفق وأهداف الثورة» وقد ألفت اللجنة من خمسين عضوا[٢].

وفى ١٧ يناير ١٩٥٣ أذيع إعلان من القائد للقوات المسلحة بصفته رئيس حركة الجيش إلى الشعب المصرى ندّد فيه بالأحزاب القديمة، ووصفها بأنها أفسدت أهداف ثورة ١٩١٩، وأرادت أن تسعى سعيها ثانية بالتفرقة، ولم تتورع بعض العناصر عن الاتصال بدول أجنبية وتدبير ما من شأنه الرجوع بالبلاد إلى حالة الفساد السابقة، بل الفوضى المتوقعة مستعينة بالمال والدسائس فى ظل الحزبية المقيتة، وأعلن عن حل الأحزاب السياسية منذ ذلك اليوم، ومصادرة جميع أموالها لصالح الشعب، وإعلان فترة انتقال لمدة ثلاث سنوات، حتى تتمكن من إقامة حكم ديمقراطى دستورى سليم، ولقد استثنى هذا القرار جماعة الإخوان المسلمين، فلم يجرعليها قرار الحل، وذلك على اعتبار أن الجماعة ليست حزبا سياسيا[٣].

وفى ٢٣ يناير ١٩٥٣ أقيم احتفال مهرجان التحرير، بمناسبة مرور ستة أشهر على نجاح الثورة، وذلك فى ميدان الإسماعيلية (التحرير حاليا)، وفى هذا الاحتفال أعلن عن قيام «هيئة التحرير» لتحل محل الأحزاب، كجبهة واحدة قومية مهمتها تحضير الناس خلال فترة الانتقال لعودة الأحزاب على أسس سليمة، وتحدد أهداف الهيئة على النحو التالى:

(١) عبد الرحمن الرافعى، ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢، تاريخنا القومى فى سبع سنوات ١٩٥٢ - ١٩٥٩، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٩، صـ ٥٧.

(٢) السابق نفسه،، صـ ٧٩، ٨٠.

(٣) السابق نفسه، صـ ٨٨ وأيضا: محمد نجيب، كنت رئيسا لمصر، المكتب المصرى الحديث، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٤، صـ ١٧٧.

١ - إتمام الانسحاب غير المشروط للقوات الأجنبية فى وادى النيل.

٢ - تقرير مصير السودان.

٣ - إقامة دستور جديد يعبر عن أمانى الشعب المصرى.

٤ - ضمان اجتماعى يحمى كل المواطنين من البطالة والمرض والشيخوخة.

٥ - نظام اقتصادى يضمن عدالة التوزيع للثروة، واستغلال الموارد الطبيعية.

٦ - نظام سياسى يتساوى فيه الأفراد أمام القانون وحرية التعبير والاجتماع والعقيدة تكون مكفولة.

٧ - نظام تعليمى يحث المواطنين على المشاركة الاجتماعية وزيادة الإنتاج لرفع مستوى المعيشة.

٨ - علاقات صداقة مع كل البلاد العربية ومع كل القوى العظمى.

٩ - سلام إقليمى يهدف زيادة فاعلية الجامعة العربية.

١٠ - الالتصاق بمبادىء الأمم المتحدة(١).

وفى صبيحة ١٢ فبراير ١٩٥٣ تم توقيع اتفاق السودان بين الحكومة المصرية وبريطانيا، بشأن الحكم الذاتى وتقرير المصير للسودان، وبذلك انفصلت السودان عن مصر، ونصب إسماعيل الأزهرى رئيسا للسودان، وفى ٥ مايو ١٩٥٣ وافقت أعضاء لجنة الدستور الخمسون على اتخاذ النظام الجمهورى أساساً لوضع مشروع الدستور الجديد، وفى ١٨ يونية ١٩٥٣، أعلن عن إلغاء النظام الملكى وحكم أسرة محمد على مع إلغاء الألقاب من أفراد هذه الأسرة، وإعلان الجمهورية وتولى الرئيس اللواء أركان حرب محمد نجيب قائد الثورة رئاسة الجمهورية مع احتفاظه بسلطاته الحالية، فى ظل الدستور المؤقت الصادر فى ١٠ فبراير ١٩٥٣(٢).

وفى أول سبتمبر ١٩٥٣ تم تشكيل محكمة الثورة، مكونة من عبد اللطيف البغدادى رئيسا وحسن إبراهيم، وأنور السادات أعضاء، وخولت هذه المحكمة سلطات محاكمة قضايا الخيانة العظمى، وبعض قضايا أمن الدولة، ويلاحظ أن الثورة تعقبت فى

---

(١) محمد نجيب، كنت رئيسا لمصر ، المرجع السابق، صـ ١٨٧، ١٨٨.

(٢) السابق نفسه، صـ ١٩٦.

محاكماتها من كانوا يتجسسون لصالح الإنجليز، وحكمت عليهم بأقسى أنواع العقوبات(١).

الثورة وبداية الصراع:

وفى ١٤ يناير ١٩٥٤ نشرت الصحف بيانا طويلا صادرا من مجلس قيادة الثورة بحل جماعة الإخوان المسلمين، واعتقال حسن الهضيبى مرشد الجماعة وبعض أعضاء الجماعة وأودعوا فى السجن الحربى، لاتهام الإخوان بالاتصال بالإنجليز دون علم قيادة الثورة، وإثارة حواث الشغب فى الجامعة(٢)، ففى ١٢ يناير ١٩٥٤ اجتمع طلاب الجامعة تحت قيادة الإخوان المسلمين لإحياء الذكرى السنوية لشهداء الجامعة، وحضر الاحتفال نواب صفوى رئيس جمعية فدائيان إسلام الإيرانية، وفى أثناء الخطب ظهرت سيارة جيش «جيب» تحمل مكبرات للصوت وقد اعتلا لها أفراد، وعرفوا بأنهم من قادة هيئة التحرير ومنظمات الشباب التى تشرف عليها الحكومة، وأخذت سيارة الجيب تلقى عبر مكبر للصوت خطابا وطنيا على الجمع الذى احتشد قريبا منها، فى أن طُلب إليهم الرحيل أو الابتعاد عن مكان تجمع الإخوان حتى تبودلت العبارات والشعارات، وعلى أثرها نشبت معركة، انتهت بسقوط عشرات الجرحى وحرق سيارة «الجيب»(٣).

وفى ٢٣ فبراير ١٩٥٤ قدم محمد نجيب استقالته إحساسا منه بأن وجوده فى السلطة قد أصبح صوريا، وليس له شأن بما يتخذ من قرارات، ولا علم له بما يدور فى اجتماعات مجلس الثورة، وأعلن المجلس قراره بالإجماع بقبول هذه الاستقالة، وأصدروا بيانا شديد العنف ضد نجيب يحوى عددا من الحقائق التى كانت جديدة تماما، منها: أن نجيب كان بعيداً عن صفوف مجموعة الضباط الأحرار، وأنه أُخطر باختياره قائدا للثورة قبل قيامها بشهرين فقط.. ولا شك أن هذه الاستقالة كانت صدمة عنيفة للوجدان المصرى فى ذلك الوقت.. وكان الإخوان المسلمون - فى الوقت نفسه- مقتنعين تمام الاقتناع بأن محمد نجيب لم يكن موافقا على حل جماعتهم، وكانوا يرون فى وجوده وانفراده بالسلطة تحقيقا لمصالحهم، ولذا كان لابد أن ينفجر الموقف،

---

(١) عبد الرحمن الرافعى، ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، مرجع سابق، صـ ١١١.

(٢) حسين محمد أحمد حموده، أسرار حركة الضباط الأحرار والإخوان المسلمون، الزهراء للإعلام العربى، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٥، صـ ١٠١.

(٤) ريتشارد ميتشل، الإخوان المسلمون، مرجع سابق، صـ ٢٤٧، ٢٤٨.

فخرجت المظاهرات تملأ الشوارع، ونشط الإخوان والقوى السياسية المصرية فى التعبير عن رفضها لما حدث لنجيب، وهتفت المظاهرات بالحرية وسقوط الديكتاتورية ونادت بحياة نجيب والسجن لجمال وصلاح، وكان لذلك كله رد فعل طبيعى، إذ قام صلاح سالم بصفته وزيراً للإرشاد القومى فى ٢٧ فبراير بإذاعة بيان لمجلس الثورة تقرر فيه دعوة اللواء محمد نجيب للعودة إلى رئاسة الجمهورية(١).

وفى ٦ مارس ١٩٥٤ قرر مجلس الثورة اتخاذ الإجراءات اللازمة لعقد جمعية تأسيسية منتخبة بطريق الاقتراع العام المباشر على أن تجتمع خلال شهر يولية ١٩٥٤ وتكون مهمتها:

١ - مناقشة الدستور الجديد وإقراره.

٢ - القيام بمهمة البرلمان إلى الوقت الذى يتم فيه عقد البرلمان الجديد وفقا لأحكام الدستور الذى ستقره الجمعية التأسيسية، ولكى تجرى الانتخابات فى جو تسوده الحرية التامة قرر مجلس الثورة إلغاء الأحكام العرفية(٢)...

وفى ٢٥ مارس ١٩٥٤ قرر مجلس قيادة الثورة السماح بقيام الأحزاب وحلّ مجلس قيادة الثورة، وقد اجتمع ضباط الجيش من جميع الأسلحة، ورأوا أن الثورة مهددة بالانحلال إذا نفذت قرارات ٢٥ مارس الأخيرة ولقد أضرب العمال احتجاجا على قرار عودة الأحزاب المنحلة وإزاء ما تجلى من شعور المواطنين من مختلف الطبقات والهيئات من حرص على استمرار الثورة فى طريقها حتى تحقق البلاد أهدافها، فقرر مجلس قيادة الثورة فى اجتماعه يوم ٢٩ مارس ١٩٥٤ حمل المسئولية كاملة على عاتقه مرة أخرى واتخذ القرارات الآتية:

١ - إرجاء تنفيذ القرارات التى صدرت فى ٦ و٢٥ مارس ١٩٥٤ حتى نهاية فترة الانتقال.

٢ - تشكيل مجلس وطنى استشار يراعى فيه تمثيل الطوائف والهيئات والمناطق المختلفة(٣).

(١) كرم شلبى، عشرون يوما هزت مصر، دراسة ووثائق فى أزمة مارس، دار أسامة للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٦، صـ ١٠، ١١.

(٢) كرم شلبى، السابق نفسه، صـ ٣، ٤.

(٣) عبد الرحمن الرافعى، ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، مرجع سابق، صـ ١٤٨.

وفى ٢٥ مارس قرر مجلس قيادة الثورة الإفراج عن حسن الهضيبى المرشد العام للإخوان المسلمين وجميع المعتقلين من الإخوان[١].

وفى ١٧ أبريل ١٩٥٤ تخلى محمد نجيب عن رئاسة الوزارة واقتصر على رئاسة الجمهورية ومجلس قيادة الثورة، وقرر المجلس قبول التخلى، وتكليف جمال عبد الناصر تأليف الوزارة[٢].

وفى ٢٧ يوليو ١٩٥٤ وقعت مصر اتفاقية الجلاء مع إنجلترا ونصت على ما يلى:

١ - إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وإحلال الاتفاقية الجديدة مكانها.

٢ - الاتفاقية الجديدة مدتها سبع سنوات، وفى نهاية هذه المدة سيجلس الطرفان لإقرار صيغة إلغائها.

٣ - إن جزءا من القاعدة البريطانية سيظل فى حالة تأهب للعمل فورًا فى حالة هجوم أى قوى خارجية على مصر.

٤ - لبريطانيا الحق فى تحريك أى مواد منها أو إليها، ولكن بشرط أن تقبل الحكومة المصرية ذلك.

٥ - أن تجلو القوات البريطانية من كل الأراضى المصرية فى خلال شهر ابتداء من يوم توقيع الاتفاقية.

٦ - أن تنص الاتفاقية على أن قناة السويس جزءا لا يتجزأ من مصر لكن بشرط احترام حرية الملاحة حسب اتفاقية عام ١٨٨٨.

٧ - أن تحظى بريطانية بمركز الدولة الأولى بالرعاية فى استخدام التسهيلات المصرية[٣].

وعندما أعلنت اتفاقية الجلاء مع إنجلترا، صرح الإخوان المسلمون أنه لا يجوز أن يتم الاتفاق دون عرضه على برلمان منتخب انتخابا حرًا، يمثل الأمة أكمل

---

(١) حسين محمد أحمد حموده، أسرار حركة الضباط الأحرار، مرجع سابق، صـ ١٠١.

(٢) عبد الرحمن الرافعى، ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، مرجع سابق، صـ ١٥٢، ١٥٣.

(٣) محمد نجيب، كنت رئيسا لمصر، مرجع سابق، صـ ٣٢٦.

تمثيل، وقد انتقد الإخوان بنود الاتفاقية فى مذكرة أو دعوها رئاسة مجلس الوزراء(١).

وكان معارضة الإخوان للاتفاقية سببا فاصلا للعداء بين الإخوان وجمال عبد الناصر، ولم تكن هذه المرة هى الأولى فى الخلاف بين الإخوان والثورة، فقد حدث الخلاف الأول حول قانون تحديد الملكية فكان الإخوان يرون أن الحد الأقصى ٥٠٠ فدان، ورأت الثورة تحديده بـ ٢٠٠ فدان، والمرة الثانية عندما رفض الإخوان الاشتراك فى وزارة محمد نجيب، والمرة الثالثة عندما رفض الإخوان الاندماج والانضمام إلى هيئة التحرير التى شكلتها الثورة.

ولقد زادت علاقة حركة الإخوان المسلمين بحكومة الثورة توتراً وسوءً وذلك بعد اتهامهم بمحاولة اغتيال الرئيس جمال عبدالناصر وهو يخطب فى الإسكندرية فى ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤ فى احتفال شعبى كبير أقيم تكريما له ولزملائه بمناسبة اتفاق الجلاء. وقد قبضت الحكومة على كثيرين من أعضاء النظام السرى للإخوان وأعضاء مكتب الارشاد وحلت الجماعة، وصودرت صحفهم. وبذلك أغلقت صفحة من تاريخ الإخوان المسلمين، وفتحت صفحة جديدة، بدأت بمحاكمتهم أمام محاكم الثورة، إذ أصدر مجلس قيادة الثورة أمراً بتأليف محكمة مخصوصة سميت «محكمة الشعب» برئاسة جمال سالم وعضوية أنور السادات وحسين الشافعى لمحاكمة الأفعال التى تعد خيانة للوطن أو ضد سلامته فى الداخل والخارج(٢).

(١) ريتشارد ميتشل، الإخوان المسلمون، مرجع سابق، صـ ٢٦٢.
(٢) ريتشارد ميتشل، السابق نفسه، صـ ٢٨٤، وأيضا: عبد الرحمن الرافعى، ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢، مرجع سابق، صـ ١٥٨.

الفصل الثانى

الواقع الثقافي الذى ظهرت فيه الصحافة الإسلامية

تمهيد:

لقد صاحب الغزو العسكرى والاحتلال الإنجليزى لمصر ١٨٨٢م، غزو حضارى وتأثير فكرى، حيث عمل الاحتلال منذ البداية على تنحية الشريعة الإسلامية من قانون القضاء، وحصرها فى الأحوال الشخصية، وفصل بين «العلم» و«الدين» بل فصل بين المدارس المدنية والمدارس الدينية، فأوجد هوة سحيقة بين النظرية الإسلامية والمذهبية المادية التى فرضها بحكم القانون والتعليم(١).

بل لا أكون مبالغاً إذا قلت: إن الغزو الثقافى غالباً ما كان يسبق الغزو العسكرى، فيمهد له الطريق، ويسهل عليه المهمة، ولتكون الفريسة جاهزة للانقضاض التام عليها، والاستيلاء الكلى على مقدراتها، والغزو الفكرى كما يقول الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد: تعبير دقيق بارع يصور خطورة الآثار الفكرية التى قد يستهين بها كثير من الناس لأنها تمضي بينهم فى صمت ونعومة، مع أنها حرب ضروس لا تضع أوزارها حتى تترك ضحاياها بين أسير وقتيل، أو ممسوخ كحرب السلاح أو هى أشد فتكا(٢).

ومن هنا فإن الغزو الفكرى لا يتوقف بتوقف الغزو العسكرى ولا يرحل برحيله، وذلك لأن الغزو الثقافى يتميز بالشمول والامتداد، فهو حرب دائمة دائبة، لا يحصرها ميدان، بل تمتد إلى شُعب الحياة الإنسانية جميعا، وتسبق حروب السلاح وتواكبها. ثم تستمر بعدها لتكسب ما عجز السلاح عن تحقيقه، فتشل إرادة المهزوم وعزيمته حتى يلين ويستكين، وتنقص تماسكه النفسى حتى يذوب كيانه فيقبل التلاشى والفناء في بوتقة أعدائه، أو يصبح امتداداً ذليلا لهم، بل ربما تبلغ حداً من الإتقان يصل بها إلى أغوار النفس فتقلب معاييرها، ومفاهيمها، وتشكل لها أنماطاً جديدة فى السلوك والأخلاق، والأذواق إلى الدرجة التى تجعل المهزوم يفخر فيها بتبعيته، ويراها شرفا خليقا بالرضا والشكران(٣).

---

(١) أنظر المقدمة الهامة التى كتبها محمود أبو السعود فى: ريتشارد ميتشل، الإخوان المسلمون، ترجمة، محمود أبو السعود، تعليق، صالح أبو رقيق، بدون ناشر ١٩٨٠، ص ٢٢.

(٢) عبد الستار فتح الله سعيد، الغزو الفكرى، مرجع سابق ص ٣٢٢.

(٣) السابق نفسه، ص ٧، ٨.

مواقع التأثير الثقافى للاحتلال:

ولذلك فإن الاحتلال الانجليزى ركز نشاطه فى جوانب متعددة ليحقق هدفه المنشود وغرضه المقصود وكان من بين هذه الجوانب التى ساعدت المستعمر على غزونا ثقافيا وتثبيت أقدامه عسكريا ما يلى:

أولا: البعثات التعليمية، وهم طلاب يوفدون فى بعثات إلي ديار الغرب ليحصلوا العلوم الأوربية الحديثة، والتى اقتبسوا جذوتها الأولى من المسلمين فى الأندلس وغيرها، وقد حرص المستعمر المتحكم على أن يجعل أكثرية المبعوثين إلى دياره يدرسون الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية، لأنها هى التى تصنع للإنسان أفكاره وقيمه ، وموازينه، وذوقه واتجاهه وسلوكه، مع أن الذى كانت تحتاج إليه البلاد فى ذلك الحين هو العلوم التطبيقية التى يترتب على التفوق فيها الرقى الصناعى، والنمو العمرانى والتقدم العسكرى ، ولكن المستعمرين الماكرين أصروا على أن يحتكروا هم هذا الجانب الهام لنظل في حاجة دائمة إلى خبرائهم ، ومعوناتهم ، ولنظل سوقا مفتوحاً لبضائعهم ومصنوعاتهم، ومن الناحية الأخرى هم يعملون بكل ما أوتوا من مكر وخديعة لبث أفكارهم وقيمهم وعاداتهم ومبادئهم – ولا غرو إذا رأينا هؤلاء المبعوثين إلى الغرب يذهبون إليه شرقيين مسلمين يعودون – إلا من عصم الله– متغربين ، علمانيين لا دينيين»، ولم يغيروا أسماءهم ولا دينهم الرسمى ولكنهم غيروا أفكارهم وقيمهم ، ونظرتهم إلى الدين والحياة، وإلى الناس وإلى الماضى والحاضر وإلى النظم والشرائع وإلى الآداب والتقاليد، وبدا ذلك واضحاً فى سلوكهم وأخلاقهم وعلاقاتهم، وفيما يكتبون وينتجون فى ميدان الفكر والثقافة والتوجيه(١).

ثانيا: المدارس التبشيرية والأجنبية: فطريق المدارس والمؤسسات التبشيرية والأجنبية التى كان الاستعمار الغالب يرعاها رعاية الأب الحانى على ولده، ويقدم لها

(١) أنظر بالتفصيل : يوسف القرضاوى ، *الحلول المستوردة، وكيف جنت على أمتنا*، الطبعة الثالثة القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٧٧ ، ص ٢٠، ٢١ أيضا: عماد الدين خليل، *البعثات التعليمية بين السلب والإيجاب*، الطبعة الأولى القاهرة، دار الاعتصام، ١٩٨٠، ص ٢٧ ومن بعدها، ويرى الباحث أن من بين المبعوثين من عاد غير متأثر بقيم الغرب وعاداته الضارة، بل نقل إلينا النافع المفيد منها فأفادت الأمة كثيرا منه، ومن ثم فإنه ليس حكما مطلقا أن البعثات التعليمية ساعدت على الغزو الثقافى لأمتنا.

كل عون مادى وأدبى على حين يضيق الخناق على المدارس والمؤسسات الوطنية وخاصة تلك التى تحافظ على عقيدة الأمة وثقافتها وتراثها، وقد صرحت «أنا مليجان» عن هدف هذه المدارس ومهمتها فى بلاد العرب والمسلمين فقالت : «إن المدارس أقوى قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحى وهذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوما ما قادة أوطانهم» ويقول المستر «بثروز» رئيس الجامعة الأمريكية فى بيروت «لقد أدى البرهان إلى أن التعليم أثمن وسيلة استغلها المبشرون فى سعيهم لتنصير سوريا ولبنان(١).

ولاشك أنه كان لنشاط هذه المدارس الأجنبية أثر على الفكر المصرى والتعليم المصرى الصميم، إذ اتجه الأغنياء من هذا الوطن إلى التعليم الأجنبى في بلادنا، وذلك ليتعود أبناؤهم وبناتهم الحياة الأوروبية، والتفكير الأوربى، فيصبح بينهم وبين سواء الشعب حائل كثيف من حيث الأخلاق والعادات والتفكير، بل إن بعضهم لا يسوؤه أن يجاهر في قحة بالغة بأنه لا يعرف العربية لأن لغته التى يتحدث بها الإنجليزية أو الفرنسية حسبما يتفق والمدرسة الأجنبية التى تعلم فيها، وإذا صح أن هؤلاء الأغنياء هم الطبقة المرموقة في المجتمع المصرى، فإن مقدرات الوطن الاقتصادية كانت بأيدى هذه الفئة، ومن هنا كان يمكنهم أن ينفذوا ما يعتقدونه أو ما يوجهون إليه من المستعمرين(٢).

وأما المدارس الأجنبية، وهى التى تقوم فيها الدراسة على أسس غربية خالصة، والتى أخذ الاستعمار يوجهها، ويراقبها، ويضع لها أهدافها ومناهجها التى يرضى عنها ويصنع لهذه الأهداف والمناهج ، الكتاب ، الذى يخدمها، والمعلم الذى يتمثلها وينقلها من السطور إلى الصدور والإدارة التعليمية التى تشرف على تنفيذها(٣).

وقد تمثلت أهداف هذا النظام التعليمى في عدة أهداف:

١- تخريج أجيال مجردة من العقيدة الدينية أو مزعزعة الإيمان على الأقل بالقيم الإسلامية..

(١) يوسف القرضاوى، المرجع السابق نفسه، ص٢٣.

(٢) عبد الحى دياب ، الإقطاع الفكرى وآثاره، الطبعة الأولى القاهرة، مكتبة الشعب- بدون تاريخ، ص ٢٦، ٢٧.

(٣) يوسف القرضاوى، الحلول المستوردة، مرجع سابق، ص ٢٤.

٢- تخريج أجيال مجردة من الاعتزاز القومى، أو مزعزعة الإيمان على الأقل بالقيم الشرقية..

٣- إقصاء كل الشخصيات التى يمكن أن تفسد عليه خطته الرهيبة في مجال التوجيه.

بل فى مجال التأثير في وزارة المعارف، ومن هنا حكم على جميع الذين لم يتثقفوا ثقافة أوربية- أيا كان عملهم، وأيا كانت كفايتهم- أن يكونوا منبوذين من الوظائف الرسمية في الوزارة أولا لكى لا يكون لهم رأى في توجيه سياسة التعليم وثانيا لكى تمتهن فيهم الثقافة العربية والصفة الدينية فتظل محتقرة في مشاعر تلاميذهم فقد كان يرمى أساساً إلى تحقير الثقافة العربية الدينية وإبعاد من يمثلونها عن مراكز التوجيه.

٤- تخريج أجيال مجردة من المشاعر الشعبية منعزلة عن كتلة الشعب لكى يبقي القادة وهم المتعلمون في جهة وتبقى كتلة الشعب في جهة، فلا يلتقى القادة والشعب فى مشاعر واحدة وأهداف واحدة.

٥- تخريج أجيال مجردة من الثقة بالنفس ومن الشجاعة ، ومن القدرة على الابتكار(١) وليس معنى هذا أن كل من ابتعث إلى الخارج إبان الاحتلال أو قبله أو بعده أو تعلم في مدارسه التى بناها أو تبناها خائن أو مخادع أو ترك دينه وقيمه، وتم مسخه أو غير ذلك، فلا شك أن هذا يكون تعميماً خاطئا ، لأن من بين هؤلاء المبتعثين وغيرهم ظلوا أوفياء لأمتهم ووطنهم وظلوا معتصمين بقيمهم وعقيدتهم، محافظين على شخصيتهم ومبادئهم، بل على العكس فمنهم من قام بدور فعال فى كشف خطط الاحتلال ، ومحاربة الفكر التغريبى الاستشراقى(٢).

ولكن لم يكن هؤلاء القاعدة ، إذ كانت خطة الغزو الثقافى والتغريب في مجال التعليم هى أشد الخطط دهاء ومكراً، من حيث احتواء المسلم عقليا وثقافيا، وهو العمل الأكبر الذى يتطلع الغرب إليه من أجل صناعة أجيال تابعة مستسلمة(٣).

---

(١) أنور الجندى، عقبات فى طريق النهضة، مرجع سابق، ص ١٤٤-١٤٥.

(٢) عماد الدين خليل، البعثات التعليمية، مرجع سابق، ص ٣٢،٣١.

(٣) أنور الجندى، عقبات في طريق النهضة، مرجع سابق، ص ٦٤٦.

وهذا ما نفذه «دنلوب» ببراعة وكفاءة، فقد عمل منذ أن تولى عمله بوزارة المعارف المصرية في ١٧ مارس ١٨٩٧م على أن ينشأ أجيال متعاقبة من تلاميذ المدارس فى البلاد يرتبطون ارتباطا وثيقا بالاحتلال عن طريق تفريغهم تفريغاً كاملا من ماضيهم كله، مع هتك أكثر العلائق التى تربطهم بهذا الماضى اجتماعياً وثقافياً ولغوياً، ومع ملء هذا الفراغ بالعلوم والآداب والفنون ولكنها فنونهم هم، وآدابهم هم، وتاريخهم هم، ولغاتهم أى الإنجليز(١).

ولاشك أن تفريغ الأجيال من ماضيها المتدفق في دمائها، المرتبط بالعربية والإسلام، يحتاج إلى فكر آخر، يغطى عليه، فجاءوا بماض بائد مغرق فى القدم والغموض، ليزاحم بقايا ذلك الماضى المتدفق الحى، الذى يوشك أن يتمزق ويختنق بالتفريغ المتواصل (٢) ولم تكن المحاولات الإنجليزية لاحتواء العقل المصرى وغزوه فكريا وثقافياً هى الوحيدة فى الميدان بل كانت هناك المدارس الفرنسية التى جاء الإحتلال الإنجليزى فوجدها قائمة وكائنة ولكن الخطة الجديدة أن يتم التغريب على الخطة الإنجليزية ، ولاعجب في ذلك، لأنه لا ينتظر من المحتل غير ذلك، وإن كان العجب أن انجلترا لم تتعرض قط للمؤسسات والمدارس الفرنسية ، وكذلك المعاهد التبشيرية وماشاكلها، رغم حرصها الشديد على طرد النفوذ الفرنسى السياسى، وذلك مرده إلى أن دول أوربا، قد تتنافس فيما بينها على النفوذ والمغانم تنافساً عنيفاً يؤدى إلى الحرب بين الحين والحين ولكنها إزاء الإسلام، وضرب الإسلام، وطمس هوية المسلمين، تتساند كلها ويحمى بعضها مصالح بعض ما دامت أهدافها تحقق فى نهاية المطاف بصرف النظر عن الجهة التى قامت بتنفيذ الأهداف(٣).

بل كانت هناك أيضا محاولات أمريكية، لاحتواء العقل المصرى ففى عام ١٩١٩م قامت الجامعة الأمريكية فى مصر، وكانت مؤلفة منذ البداية من كليات الآداب والعلوم والتربية والدراسات الشرقية، كما كانت تصدر مجلة باللغة العربية هى مجلة «التربية

(١) محمود محمد شاكر، رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا ، القاهرة، كتاب الهلال، العدد ٤٨٩ سبتمبر ص ٢٢٥.

(٢) السابق نفسه، ص٢٢٦.

(٣) أنظر بالتفصيل، محمد قطب، واقعنا المعاصر، مرجع سابق،ص ٢١٥ وما بعدها وأيضاً، محمد جلال كشك، ودخلت الخيل الأزهر، الطبعة الأولى القاهرة، دار المعارف ، ١٩٨٧ ، ص ١٧.

الحديثة» ويقينا أن الجامعة الأمريكية لم تقم فى مصر فى هذا الوقت المبكر لوجه الله- شأنها فى ذلك شأن كل المدارس الأجنبية- أو لخدمة الثقافة الإنسانية المجردة، وإنما قامت للتأثير فى عقل مصر، وخلق كوادر تنتشر فى المجتمع المصرى، وتعمل على توجيهه، وأيضا هناك محاولة أمريكية لتلوين الوجه الثقافى لمصر وقعت عام ١٩٢٦، وذلك عندما قام المليونير الأمريكى روكفلر بالتبرع بعشرة ملايين دولار للحكومة المصرية لكى تنشئ معهداً للدراسات الفرعونية، واشترط إشرافاً أمريكيا على المعهد وكان المقصود من ذلك هو مساندة الدعوة الفرعونية ، ضد دعاة العروبة والإسلام، ولكن الله سلم فلم تتم الصفقة(١).

مقاو " الغزو الثقافى:

كانت ثورة ١٩١٩، ثورة على كثير من الممارسات الاستعمارية فى مجال الفكر والتعليم، وتجلت مظاهر هذه الثورة فى مجال التعليم، ليصبح باللغة العربية فى كثير من مدارسنا ومعاهدنا بعد أن كان باللغة الإنجليزية. وأن يقوم بالتدريس مدرسون مصريون بدلا من المدرسين الأجانب(٢).

ويأتى عام ١٩٢٣، ويعلن فيه عن دستور ١٩٢٣، ولقد حوى هذا الدستور بين مواده، ثلاث مواد عن التعليم، هى ١٧، ١٨، ١٩، أما الأولى فقد جاء بها أن: التعليم حر ما لم يخل بالنظام العام أو ينافى الآداب. أما الثانية: تنظيم أمور التعليم العام يكون بالقانون. أما الثالثة: فنصت على أن التعليم الأولى إلزامى للمصريين من بنين وبنات، وهو مجانى فى المكاتب العامة. وليس من شك أن هذه المواد الثلاث، رغم ما يسودها من طابع التواضع، إذ إنها لا تكاد تمنح المصريين سوى الحق الأدنى من التعليم، لكنها مع ذلك جاءت نتيجة إعلان نظام مصرى اتضحت معالمه الأولى فى تصريح فبراير ١٩٢٢ وتأكدت فى دستور ١٩٢٣(٣).

(١) رجاء النقاش، المجلات الثقافية والتحديات المعاصرة، الكويت، كتاب العربى، رقم (٣) يوليو ١٩٨٤، ص ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، وانظر أيضاً: محمد محمود الصواف، المخططات الاستعمارية المكافحة الإسلام، مكة المكرمة، رابطة العالم الإسلامى، ص ٢٩٥.

(٢) محمد قطب، واقعنا المعاصر، مؤسسة المدينة، جدة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٩، صـ ٢١٥.

(٣) سليم نسيم، صياغة التعليم المصرى الحديث، دور القوى السياسية والاجتماعية والفكرية ١٩٢٣ - ١٩٥٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٣ صـ ٩.

ومن المؤسسات التعليمية التى كانت فى مصر، الجامعة الأهلية، والتى ظلت حتى عام ١٩٢٥ مؤسسة ثانوية بجانب المدارس العليا، إذ إن الدراسة بها حرة، واللوائح غير دقيقة، ولذلك استمرت المدارس العليا هى التى تستوعب معظم الحاصلين على شهادة الثانوية، وأرادت وزارة المعارف المصرية حينئذ أن تستفيد من الجامعة الأهلية، وكان السؤال المطروح هو: هل تتوسع الجامعة بمساعدة الحكومة وتظل أهلية؟ أم يحدث تنسيق بينهما من نوع ما؟ أو تندمج الجامعة الأهلية فى التعليم العالى، ويؤسس نظام جامعى حكومى جديد؟ ولقد تم تنفيذ الاقتراح الأخير، وتم تسليم الجامعة الأهلية لوزارة المعارف وتحويلها إلى جامعة حكومية، واتخذ قرار فى هذا الشأن فى ١٢ ديسمبر ١٩٢٣(١).

ومن المؤسسات العلمية التى كانت فى مصر إلى جانب المدارس والجامعة المصرية والجامع الأزهر، مجمع اللغة العربية، الذى توقفت حركة نشاطه إبان الثورة فى ١٩١٩ لاشتغال فريق من رجاله بالحركة الوطنية، وفى عام ١٩٢١ اجتمع بعض أهل العلم والأدب وتباحثوا فى أمر وجوب تجديد هذا المجمع، وتولى إدريس بك راغب رئيسا للمجمع، ووضعوا قانونه، وقد نصت المادة الثانية، منه على أن الغرض من هذا المجمع هو ترقية اللغة وإحياء ما تدعو إليه الحاجة مما دثر من مفرداتها، وأول أعماله جمع المواد اللازمة لوضع معجم يكون حسن الترتيب سهل التناول، شاملا للألفاظ المدونة فى المعجمات المتداولة(٢).

ظهور التيار التغريبى:

وفى الواقع، إن الذى يدرس الفترة التى تقع ما بين ١٩٢٥ - ١٩٣٠، يلاحظ أن الحركة الفكرية بلغت ذروتها، ففى عام ١٩٢٥، أصدر الشيخ على عبد الرازق كتابه «الإسلام وأصول الحكم» طرح فيه قضية فصل الدين عن الحكم، وتتمثل أهمية ا ب،

(١) سامية حسن إبراهيم، الجامعة الأهلية بين النشأة والتطور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٣، صـ ٢٠، ٢١.

(٢) عبد المنعم الدسوقى، مجمع اللغة العربية، دراسة تاريخية، الهيئة المصرية العامة ب، القاهرة الطبعة الأولى، ١٩٨٣، صـ ٢٠، ٢١.

فى أنه خرج بصورة أكثر منهجية وعمقا وارتباطا بأصول الإسلام واستند فيه صاحبه إلى حجج ومبررات دينية شرعية مستمدة من القرآن والسنة والتاريخ الإسلامى(١).

وفى عام ١٩٢٦ أصدر الدكتور طه حسين كتابه «فى الشعر الجاهلى» مستخدما منهج الشك الديكارتى والنقد التاريخى الأوربى فى غربلة الروايات والنصوص الدينية، بما فى ذلك الآيات القرآنية، مما طرح إمكانية نقد القرآن ونقضه من وجهة نظر البحث العلمى، وهنا تكمن خطورة هذا الكتاب، وليس فى مجرد تشكيكه بمصادر الشعر الجاهلى، ومن هذا المنطلق كان طه حسين يؤكد أن العلم فى ناحية والدين فى ناحية أخرى(٢).

وفى العام نفسه عام ١٩٢٦، كتب إسماعيل مظهر فى «المقتطف» يدعو إلى نقض العقلية الغيبية المخلوطة بشىء من العلم التى تميزت بها الحضارة الإسلامية، وإلى إحلال العقلية العلمية الأوربية محلها دون تقريب وتوفيق، وبأسلوب الصدام والمواجهة بين العقليتين(٣).

ولا شك أن هذا الواقع الفكرى، أحدث وتسبب فى معارك فكرية عنيفة، عبر الصحف والمجلات المصرية التى كانت تصدر حينئذ كالتى وقعت بين على عبد الرازق أو طه حسين وبين مؤيدهم ومعارضيهم، ومن الصحف التى خاضت هذه المعارك الفكرية، الأخبار، واللواء والمصرى، والمنار، والسياسة والبلاغ، فكانت هذه الصحف ساحة للجدل والنقاش بين المدارس الفكرية المختلفة(٤).

وفى إيجاز نتحدث عن كل تيار من هذه التيارات خلال الصفحات التالية:

أولا - التيار الإسلامى:

يعتبر التيار الإسلامى هو أكبر التيارات الفكرية التى كانت قائمة وظاهرة على

---

(١) محمد جابر الأنصارى، تحويلات الفكر والسياسة فى الشرق العربى ١٩٣٠ - ١٩٧٠، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، رقم ٣٥، الطبعة الأولى، ١٩٨٠، صـ ٢١.

(٢) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر، مكتبة القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٢، صـ ٢٧٨، وما بعدها.

(٣) راجع: مختار التهامى، ثلاث معارك فكرية، دار مأمون، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٦، صـ ٥٣ وما بعدها.

(٤) السابق نفسه صـ ٦٥.

الساحة الفكرية المصرية، وأقواها تأثيراً فى الحركة الوطنية؛ بل إن هذا التيار هو الأصل والأساس الذى كانت تنطلق منه وتحيا به الحركة الوطنية منذ أحمد عرابى وقد يبدو غريباً أن نتحدث عن وجود تيار إسلامى في مصر، وهى بلد الأزهر والإسلام ولكن هذه الغرابة تتبدد عندما نعلم أن الإحتلال الإنجليزى عندما جاء إلى مصر عمل بكل ما يملك على تغريب المجتمع، وإيجاد البديل الفكرى المناهض للفكر الإسلامى الذى كان غالباً وسائدا فى البلاد والمتمثل فى الأزهر وعلمائه، والذى كان يقوم بدور «الديدبان» في الحياة المصرية، خاصة فى وقت الأزمات وزمن الشدائد والكوارث ليس أدل على ذلك، من موقف علماء الأزهر من الحملة الفرنسية على مصر، وخروج علماء الأزهر وعلى رأسهم الشيخ عمر مكرم يجاهد ويحارب الفرنسيين، وأيضا إلتجاء الأهالى إلى علماء الأزهر والاستنجاد بهم ضد صلف الحكام وقسوة الأمراء وغلظة المسئولين، كل ذلك جعل الانجليز يعملون على سحب وجذب البساط من تحت أقدام علماء الأزهر بكل الوسائل من تبشير، واستشراق ، ومدارس، ومعاهدة قبل مجيئهم إلى مصر واحتلالها وبعد ذلك أيضاً (١).

ولاشك أن هذا الموقف من الاحتلال، دفع العديد من المفكرين والعلماء المسلمين إلى اتخاذ موقف مضاد للإحتلال الإنجليزى ورموزه من المناوئين للفكر الإسلامى والممالئين للإحتلال، والمتأثرين بفكره، والداعين إليه، إذ إن وجود الإحتلال في حد ذاته كافياً لإثارة المشاعر الدينية(٢).

وإذا كان تيار الفكر الإسلامى، الذى ظهر فى مصر حينئذ ليس نمطاً واحداً أو فصيلا واحداً وإنما هو أنماط شتى وفصائل متعددة إلا أنه فى النهاية لايهدف إلا مصلحة البلاد والعباد، ويكرس نفسه لخدمة الدين ورد شبهات المتشككين ودحض آراء المتغربين وكان أول من رفع لواء هذا التيار هو جمال الدين الأفغانى، الذى جاء إلى

(١) لمزيد من التفاصيل حول دور الأزهر وعلمائه فى صد الحملات الغربية على مصر، أنظر: محمد رجب البيومى، الأزهر بين السياسة وحرية الفكر، مرجع سابق، ص ٤٣، وما بعدها . وأيضاً شوقى الجمل، الأزهر ودوره السياسى والحضارى فى أفريقيا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨، ص ١٣١- ١٦٦.

(٢) زكريا سليمان بيومى، الجماعات الإسلامية، مرجع سابق، ص٣٢.

مصر قبيل الإحتلال الإنجليزي لها، فكون مدرسته الفكرية من رجال الأزهر ومن المثقفين المدنيين خريجي مدرسة الحقوق وغيرها، ثم غادر الأفغاني مصر، وبعد أن غادرها بقليل سقطت مصر في براثن النفوذ البريطاني، ولا ريب أن الحديث الذى أجراه عبد القادر المغربي مع الأفغاني في عام ١٨٨٩يكشف بوضوح وجهة النظر الإسلامية – في مواجهة الأفكار الأوربية والتغريب والغزو الثقافي، فقد رفض الأفغاني فكرة أخذ الحضارة الغربية ومدنية أوربا أساساً لبناء الحضارة الإسلامية الجديدة، وقال إن هذا طريق لا يوصل، وإننا معشر المسلمين إذا لم نؤسس نهوضنا وتمدننا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير فينا، ولايمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا من هذا الطريق .. ولابد لنا من حركة دينية، فإن الحركة الدينية الصحيحة المبرأة من الزيف هى الأساس الذى تقوم عليه النهضة (١).

ويرسم الأفغاني منهاج هذه الحركة فى عناصر واضحة هى كما يلي:

١- تنقية الإسلام مما علق به من شوائب.

٢- تأليف حكومة إسلامية رائدها التعاليم الإسلامية الحقة والعدل والشورى، واختيار خير الناس لتولى الأمور والجامعة الإسلامية لا تنافى مشاعر ومصالح أهل الديانات الأخرى.

٣- مناهضة الإحتلال، وتحرير الوطن الإسلامي عن الاستعمار والاعتماد على استرجاع قوة المسلمين في تكتلهم وتآخيهم ومناهضة الاستغلال بكل قوة والتأليب عليه من غير هوادة.

٤- طرح ما طرأ على الإسلام من عادات غريبة فى السلوك والرجوع إلى مواقف المسلمين الأول من القرآن، واستلهامهم التوجيه منه مباشرة لطبع تصرفاتهم بالطابع الإسلامي.

٥- محاربة الاتجاه الاستعماري في التفكير ، بالوقوف في وجه الشبه التى تثار والتخريجات المغرضة لنصوص مصدرى الإسلام : القرآن والسنة الصحيحة، وبيان زيفها بالأسلوب العلمي والتاريخي.

(١) راجع بالتفصيل : أنور الجندى ، عقبات فى طريق النهضة، مرجع سابق، ص ٤٩-٥٠

٦- تقريب مبادئ الإسلام من العقلية الإسلامية الحديثة والتنديد بالمثقفين الذين يصطنعون أساليب الغرب (عن علم أو غير علم) أداة لتمكين المحتل(١).

منبر العروة الوثقى:

وكان الإمام محمد عبده من أبرز أبناء مدرسة الأفغانى، وقد تعاونا في باريس على إصدار صحيفة «العروة الوثقى» بعد أقل من عامين على سقوط مصر تحت الاحتلال البريطانى المباشر(٢)، ففي ١٣ من مارس ١٨٨٤م صدر العدد الأول من العروة الوثقى، ولم تستمر طويلاً، فلم يصدر منها سوى ثمانية عشر عدداً فى خلال تسعة أشهر(٣).

صحيح أن العروة الوثقى ، صحيفة سياسية في المقام الأول(٤)، إلا أن هذا لايعنى أنها لم تؤد دوراً فكرياً وثقافياً في العالم الإسلامى، إذ أنها كانت وسيلة التوحيد بين العقول والقلوب فى مطلع النهضة ، لذا تعتبر العروة الوثقى نقطة بدء ومثال لظاهرة الصحف الثقافية العربية، فرغم اهتمامها بقضايا السياسة والمجابهة، فإنها التفتت إلى مسائل الإصلاح الدينى، والنهوض الحضارى فلفتت الإنتباه إلى الإصلاح البروتستانتى في تاريخ أوربا، واعتبره الأفغانى ظاهرة جديرة بالتأمل، كما ركز محمد عبده على أهمية السنن والقوانين الحضارية والتاريخية التى وضعها الخالق لتحديد سير التاريخ وتقرير مصائر الأمم ، إنحطاطا ونهوضا(٥).

(١) السابق نفسه، ص ٥١
(٢) بعد هزيمة العرابيين أمام الإنجليز، تم نفى العديد من الزعماء بعد محاكمتهم، وكان من بينهم الإمام محمد عبده، إذ حكم عليه بالنفى إلي خارج القطر المصرى ثلاث سنوات، فأقام في بيروت مدرسا بمدرسة جمعية المقاصد الإسلامية ثم سافر إلى باريس وهناك التقى بالأفغانى الذى كان قد خرج من مصر قبل احتلالها: أنظر: مذكرات الإمام محمد عبده، سيرة ذاتية، عرض وتعليق وتحقيق، ظاهر الطناحى القاهرة، دار الهلال، كتاب الهلال رقم (٥٠٧) ماسر ١٩٩٣ ص ٢٤٨.
(٣) منير حجاب، العروة الوثقى، دراسة تحليلية لمقومات نجاح الصحافة الإسلامية، الطبعة الأولى الإسكندرية، الهيئة المصرية العامة ب، ١٩٨٢، ص ١٤ ومابعدها.
(٤) أحمد حسين الصاوى، المجلات الثقافية والتحديات المعاصرة، مرجع سابق، ص ٩٦.
(٥) محمد جابر الأنصارى ، العروة الوثقى والمنار، التوفيق بين الأصالة والمعاصرة، المجلات الثقافية والتحديات المعاصرة ، مرجع سابق، ص٨٠.

وبذلك تكون صحيفة العروة الوثقى قد أدت دوراً لا بأس به في الدفاع عن قضايا المسلمين وتعرية الاستعمار البغيض، وبيان أضراره ومخاطره على الأمة، وتقوية النزعة الثقافية والفكرية لدى أبناء المسلمين، يتضح ذلك من خلال وقوفنا على أهم الأهداف التى سعت إلى تحقيقهاوهى:

١- إيقاظ الروح الكامنة في النفس الشرقية، ومحاربة اليأس ، ومواجهة النفوذ الأجنبى الزاحف على البلاد الإسلامية.

٢- التماس منهج القرآن فى بناء الأفراد والمجتمعات بوصفه المنقذ الوحيد للمسلمين.

٣- تنبيه الأمة إلى ذاتيتها الأصلية التى أنشأت الحضارة الإسلامية الزاهرة والتذكير بعظمة التراث الإسلامي.

٤- محاربة الاستعمار بكل ما تملك الأمة من وسائل بمفهوم الجهاد الإسلامى.

٥- الدعوة إلى امتلاك أسباب القوة والتقدم العلمى والتمدين دون التخلى عن الجذور فى دائرة مفهوم الإسلام القائم على الرحمة والعدل.

٦- مقاومة التبعية ، والحيلولة دون الذوبان فى الأممية أو الفكر العالمى(١).

ولاشك أن صحيفة كالعروة الوثقى، تظهر في مثل هذه الظروف الصعبة التى كانت تمر بها الأمة وفي فترة من أحلك فتراتها، وعلى هذا المستوى من القوة والرسوخ، لهى أكبر لطمة على وجه الإحتلال، الأمر الذى جعل الإنجليز يحاربونها فى كل مكان ويمنعونها من الدخول إلى مصر والسودان والهند، ولما كان للإنجليز من سطوة وجبروت، وفي مصر فرضت غرامة على كل من يضبط لديه عدد من العروة الوثقى، بل حدثت حرب أخري شنتها بريطانيا عن طريق الحكومة الفرنسية بعدم منح العروة الوثقى التيسيرات البريدية التى تمنح للصحف الأخرى، الأمر الذى جعلها تتوقف(٢).

المنار على طريق العروة الوثقى:

وبعد توقف العروة الوثقى بأربعة عشر عاما، أصدر الشيخ محمد رشيد رضا

---

(١) أنور الجندى ، المنار، جـ١ تاريخ الصحافة الإسلامية ، الطبعة الأولى القاهرة، دار الأنصار ، ١٩٨٣، ص ١٩، ٢٠.

(٢) أحمد حسين الصاوى، المجلات الثقافية المرجع السابق، ص ٩٦.

مجلته «المنار» وذلك في ١٥ من مارس ١٨٩٨ م ، ويذهب «تشارلز آدمز» إلى أن الغرض الذى رمت إليه «المنار» هو نفس الغرض الذى دعت إليه صحيفة العروة الوثقى ، وخاصة في نشر الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية والدينية وإقامة الحجة على أن الإسلام باعتباره نظاما دينيا لا يتنافى مع التطورات الحديثة، والنظم المعاصرة، وأن الشريعة الإسلامية أداة عملية صالحة للحكم، والسعى فى القضاء على الخرافات والاعتقادات الدخيلة فى الإسلام، ومحاربة التعاليم الضالة والتفاسير الباطلة لعقائده، ومحو الأفكار الشائعة عن القضاء والقدر، ومحاربة التعصب لمذهب من المذاهب، والتآلف بين الفرق المختلفة وترقية التعليم(١).

وهكذا أصبحت «المنار» منبراً للدعوة إلى الإصلاح، وفقا لمبادئ الإمام محمد عبده، بل إن رشيد رضا والمنار كانا يحملان بذور عودة الوفاق بين نهج الأفغانى ونهج محمد عبده، فقد كان رشيد رضا بالإضافة إلى تعمقه المنهجى في الفكر الإسلامي، واهتمامه بالجوانب الحضارية في مسار النهضة من تربوية وتشريعية، عليما بالسياسة إلى حد كبير من خلال دوره في كفاح سوريا السياسى قبل مجيئه إلى مصر(٢) ويرى أحمد طربين أن مدرسة المنار الإسلامية الإصلاحية بزعامة رشيد رضا وما نشرته من مقالات كان لها أثر في تطور التفكير الدينى المصرى فى فترة ما بين الحربين، كما قامت بدور رئيسى فى خدمة التيار العربى فى مصر(٣).

إذ إن الفترة التى كانت بين الحربين العالميتين تعتبر من أخصب فترات الحياة الثقافية، والفكرية والأدبية في مصر، وكان ذلك نتيجة طبيعية للنهضة الوطنية الكبرى التى بدأت بثورة ١٩١٩، والتى ظهر أثرها فى مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية(٤) ومعلوم أن الأزهر وعلماءه هم الذين كانوا يقفون وراء ثورة ١٩١٩ وأن الثورة انبعثت من الأزهر فأحدثت الشرارة الأولى في الشعب، ثم اندلع لهيبها فى سائر المدن والقرى، ولم يكن احتضان الأزهرلثورة ١٩١٩ حدثا غريبا على تاريخه، أو شيئا بعيداً عن رسالته فى محاربة الطغيان(٥).

(١) تشارلز آدمز، الإسلام والتجديد ، ترجمة عباس محمود، القاهرة، ١٩٣٥ ص ١٧٢، ١٧٣.
(٢) محمد جابر الأنصارى، مرجع سابق، ص ٨٢، ٨٣.
(٣) عواطف عبد الرحمن، مصر وفلسطين، مرجع سابق، ص ٣٣.
(٤) أحمد حسين الصاوى، مجلة الهلال، العدد (٢) فبراير ١٩٩٤ ص ١٠٤.
(٥) محمد رجب البيومى، الأزهر بين السياسة وحرية الفكر مرجع سابق، ص ١٢٣، ١٢٤.

وظل الأزهر يحمل مشاعل العلم والفكر فى الأمة، وإن كانت مرت عليه عصور، ضعفت فيها قواه أو قل فيها نتاجه، ولاشك أن الأزهر رغم ما حل فيه من وهن وجمود، كان دائماً يخرج العلماء الذين ينافحون عن الفكر الإسلامى، الأمر الذى يدعو المرأ إلى أن يقرر أنه ما خلا عصر أو دهر إلا وتخرج من الأزهر علماء فى الفقه واللغة والفكر ينفون عن الدين تحريف الغالين، وتشكيك المتشككين، وتأويل الجاهلين، الأمر الذى جعل المناخ الذي نشأ فيه زعماء مصر وقادتها من المفكرين الإسلاميين والسياسيين الوطنيين، مناخاً إسلامياً، فكان الأزهر -ولايزال- المثال البارز على قوة المنهل الإسلامى في الفكر المصرى، ولقد احتكر الأزهر المعرفة والتوجيه- منذ بعيد- للشعب المصرى، واستمر تأثيره إلى ما بعد الإحتلال البريطانى لمصر.(١)

ولقد ظل التيار الإسلامى الذى يشمل الوطنيين والأزهريين وغيرهم العلامة البارزة في حياة الأمة حتى ثورة ١٩١٩، ولكن هذا التيار خرج من الثورة، وقد خفت صوته، وقل نشاطه، ولكن ظل قائما على الساحة الفكرية، يحمل تراثاً فكرياً ضخماً، وينضوى معه ثلة من الأدباء والعلماء والمفكرين، ولكن هذا الجمع أو هذه الجمهرة من أنصار تيار الفكر الإسلامى لم تكن لهم هيئة تجمعهم وتنظمهم، هنا بدأ التفكير فى وسيلة تجمع هذا التيار، ويدافعون من خلالها عن هويتهم وفكرتهم فظهرت مجلة الفتح لمحب الدين الخطيب وبعدها ظهرت جمعية الشبان المسلمين، وبعدها ظهرت جماعة الإخوان المسلمين،. لترث هذا الميراث الثقافي والفكرى الذى خلفه التيار الإسلامى بدأ من جمال الدين الأفغانى مروراً بمحمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد ورشيد رضا وعبد العزيز جاويش وغيرهم من الأعلام (٢).

واستطاع حسن البنا مؤسس حركة الإخوان المسلمين أن يضع تنظيما في خدمة مشروع الأفغانى، بعد إذ كانت حركته آخذة فى الأفول، فكان ظهور الإخوان المسلمين دفعة جديدة للروح الفكرية الإصلاحية وكأن البنا قد أدرك إلى أى مدى كانت الحركة

(١) أنظر: عواطف عبد الرحمن، مصر وفلسطين، الطبعة الثانية عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، رقم(٢٦)، يونية ١٩٨٥، ص١٧ وأيضا سعيد اسماعيل على، دور الأزهر ، فى السياسة المصرية، كتاب الهلال، القاهرة ورقم (٤٣١) نوفمبر١٩٨٦، ص ٧ة

(٢) أنور الجندى عبد العزيز جاويش، من رواد التربية والصحافة والاجتماع ، أعلام العرب، رقم (٤٤)، القاهرة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، ص ٣-٩.

الإصلاحية التى بدأها الأفغانى، قد بدأت تضعف ، فجاء البنا ليكمل مشروع الأفغانى الإصلاحى الكبير (١).

وبذلك استطاع البنا أن يستفيد من تراثنا الثقافى والإسلامى والفكرى الذى تركه لنا هؤلاء المصلحون، بعد أن درسه وتأثر به، واستفاد من أسلوب الأفغانى فى العمل السياسى، ومن أسلوب محمد عبده: الاهتمام بالتربية، وحملت جماعة الإخوان جل أفكار التيار الإصلاحى الإسلامى، ونفس غايته، وهم أنفسهم امتداداً له (٢).

ثانيا - التيار التغريبى:

عمل الإحتلال الإنجليزى قبل وبعد مجيئه على تغريب الشعب المصرى، وذلك عبر وسائل عديدة، تم الحديث عنها قبل قليل والتغريب هو الاتجاه الذى يعبر فيه أصحابه عن ضرورة جعل «الغرب» الحضارى هو المنبع الرئيسى الذى يجب أن تعب منه الثقافة العربية المعاصرة ولا نبع سواه(٣) وهناك دراسات عديدة تؤكد على وجود علاقة وثيقة بين الاستعمار الأوربى من ناحية، ونشأة ونشاط اتجاه التغريب فى العالم الإسلامى الذي خضع لهذا الاستعمار من ناحية أخرى، والأمر ليس في حاجة إلى التأكيد طالما أن ممثلى السلطات الاستعمارية كانوا يصرحون في وضوح تام بأن محاولاتهم الهادفة إلى طبع العقلية الشرقية بطابع التفكير الغربي، وهنا نذكر مقولة كرومر» في هذا الصدد يقول : «يجب أن نتقدم بكل حذر ممكن.. ويجب أن نتذكر أن واجبنا الأول هو إقامة نظام تعليمى يسمح لجمهور السكان المسلمين وغيرهم على السواء، بأن يكون محكوما وفقاً للأخلاق المسيحية»(٤).

(١) أنظر فرانسو بورجا، الإسلام السياسى، صوت الجنوب، ترجمة، لورين زكريا، الطبعة الأولى القاهرة، دار العالم الثالث، ١٩٩٥ ص ٦٢.

(٢) عثمان عبد المعز رسلان، التربية السياسية، مرجع سابق، ص ١١٧.

(٣) أنظر بالتفصيل ، سعيد اسماعيل على، الفكر التربوى العربى الحديث، الطبعة الأولى عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، رقم (١١٣)، مايو ١٩٨٧ ص ١٧٥.

(٤) إبراهيم غانم البيومى ، الفكر السياسى ، مرجع سابق، ص ٦٠.

وهذا هو التغريب فى أبسط مفاهيمه ، فهو يعنى حمل المسلمين والعرب على قبول ذهنية الغرب وغرس مبادئ التربية الغربية فى نفوس المسلمين، حتى يشبوا مستغربين فى حياتهم وتفكيرهم، وحتى تجف في نفوسهم موازين القيم الإسلامية،. ويتطلب تحقيق ذلك إيجاد شعور بالنقص فى نفوس المسلمين والشرقيين عامة، وذلك بإثارة الشبهات، وتحريف التاريخ الإسلامى ومبادئ الإسلام وثقافته، وإعطاء المعلومات الخاطئة عن أهله، وانتقاص الدور الذى قام به فى تاريخ الثقافة الإنسانية، ومحاولة إنكار المقومات التاريخية والثقافية والروحية التى تتمثل فى ماضى هذه الأمة، أو محاولة انتقاص القيم الإسلامية ، والغض عن مقدرة اللغة العربية ، وتقطيع أوصال الروابط بين الشعوب العربية والإسلامية(١).

ولاشك أن التيار التغريبى الذي ظهر فى مصر في أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كانت جذوره ممتدة فى التاريخ المصرى الحديث، فنرى بعض الباحثين يرجع تأثير الفكر المصرى بالأفكار والمؤثرات الغربية إلى أواخر القرن الثامن عشر، وذلك مع قدوم الحملة الفرنسية على مصر ، ورغم قصر الفترة الزمنية لها، وإن كان لايخفى أن أسلوب الفرنسيين فى التعامل مع المصريين توخى الحذر من الاقتراب من المقدسات الإسلامية خاصة في عهدى كليبر ومينو الذى أعلن إسلامه وأخذ يرصع كل منشوراته بكلمات إسلامية كالبسملة أو آيات من القرآن الكريم(٢).

ولكن المحاكاة الحقيقية للغرب فى مصر بدأت فى عهد سعيد وخلفه إسماعيل فى الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر، حيث بدأ النفوذ الأوربى يتسرب إلى مصر، وسمح له الحكام بالتوغل فى معظم الحقول الرسمية وغير الرسمية، وأتى الوافد الأوربى بطرق شتى، رجال مغامرون ومؤسسات اقتصادية، من بنوك وبيوت إقراض ورهونات وقروض للدولة كالأطواق الحديدية وبعثات تبشيرية تتحسس الطريق

---

(١) أنور الجندى، أهداف التغريب فى العالم الإسلامي، الطبعة الأولى قضايا إسلامية معاصرة، القاهرة، الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر، ١٩٨٧ ص ١٣.

(٢) أنظر بالتفصيل ، أحمد حسين الصاوى، فجر الصحافة فى مصر، دراسة فى إعلام الحملة الفرنسية، الطبعة الأولى القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥، ص ٩١ ومابعدها.

لتكوين أقليات مصرية تدين بالولاء للغرب، ثم المحاكاة في وسائل العيش وفى طراز المسكن والملبس والعادات[1] وينبغى أن نقرر هنا أننا في هذه المرحلة من التغريب كنا نحاكي نماذج ولم نحاك فكراً وعقائد ، ولذلك كان يسهل الإمساك والإمتناع عن المحاكاة، أو يسهل الحكم على المحاكاة بالمروق، لأن معيار الإحتكام السائد في المجتمع بقي كما هو تقريبا، وحتى ما أخذناه من نظم فى السياسة والإدارة ، إنما أخذناه أساليب وتصميمات وليس فكراً ومعتقداً[2].

ولكن في خواتيم القرن الماضى وأوائل القرن العشرين، بدأ يروج الفكر الغربى متمثلا فى نظرياته السياسية والاجتماعية والفلسفية فلم يعد الأمر تنظيماً أو نمطاً يؤخذ ، أو مطلبا يستعار، ولكنه صار مذاهب ونظريات وأدبا وشعراً ، صار أساساً نظرياً وعقليا ووجدانيا متكاملا، ولم يعد الأمر محاكاة فى بناء بيت أو أسلوب حياة، أو في تأسيس نظام، أو استعارة لأسلوب أو رتقاً لفتوق، ولكنه صار إنشاء لأرض حضارية وفكرية جديدة، وغرساً جديداً ، وأسساً جديدة للتقويم وأنماط التفكير[3] ولا يستطيع الباحث أن يقطع ببداية تأثير التغريب على الفكر المصرى المعاصر ، ولكن يمكن اعتبار ما كتبه المحامى المصرى مرقص فهمى عام ١٨٨٤ تحت عنوان «المرأة فى الشرق» بداية التأثير الغربى في التفكير والثقافة المصرية، وهذا ما يؤكده كلام الدكتور سامى عزيز[4].

سياسة ‹المقطم› التدميرية:

ثم ظهرت صحيفة المقطم، لا على أنها علامة على تأثير التيار التغريبى على الثقافة في مصر فقط، ولكن لتدعو إلى تكريس الاحتلال ومناصرته، وبث الدعاية للإنجليز وشد أزرهم، وقد أعلن ذلك أصحابها بصراحة على صفحاتها قائلين: إن غرضهم السياسى من تأسيس المقطم، معلوم ظاهر، وهو تأييد السياسة الإنجليزية، ويتضح ذلك أكثر من خلال وقوفنا على سياسة المقطم وتتمثل فى :

١- أن الاحتلال احتل هذا القطر، ولايخرج منه إلا بإرادته أو بقوة تفوق قوته.

(١)،(٢)،(٣) طارق البشرى الحركة السياسية، ص٣٢، ص ٣٣ ،ص ٣٤

(٤) سامى عزيز، الصحافة المصرية، وموقفها من الاحتلال الانجليزى ، الطبعة الأولى القاهرة، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، ١٩٦٨، ص ٢٦٩

٢- أنه لا نفع للمصريين من معاندتهم ومعارضتهم أو الإستعانة بالدول الأخرى عليهم لأن المعاندة والمعارضة تضران بالمصريين ولا تخرجان المحتلين من القطر.

٣ - إن مصلحة المحتلين توافق مصلحة المصريين، ولذلك يقصد المحتلون إصلاح حال المصريين، وتنظيم أمور مصر، فلذلك يقضى حسن السياسة علينا بمسالمتهم ومحاسنتهم ومعاونتهم على الإصلاح(١).

وهكذا فإن صحيفة المقطم لأصحابها يعقوب صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس والتى صدرت ١٨٨٩ وقبلها مجلتا المقتطف العلمية والتى صدرت ١٨٨٥ و«اللطائف» التى صدرت ١٨٨٦ ذات الاتجاه الأدبى تمثل حلقة من حلقات التيار التغريبى، وتكتلا واستقطاباً لجبهة الاحتلال الإنجليزى ، لأن التيارات المتصارعة آنذاك فى مصر اتخذت شكل الاستقطاب، فمثلا كانت المدرسة الفرنسية مركزها «الأهرام»حيث يتكتل أولئك الذين يدينون بالإنتماء الفرنسى، ويتبعها من السوريين الذين ينتمون أساساً لمذهب الكاثوليك، والقطب الذى كانت تمثله «المقطم» كان يتمثل فى البروتستانت الذين كانت لهم جذور من ثقافة إنجليزية، بل إن أصحاب المقطم قد نشأوا فى أكبر مدرسة غربية تأسست فى الشرق وهى الكلية الأمريكية فى بيروت(٢) وتجدر الإشارة هنا إلى أن دعاة التيار التغريبى كانوا من أصحاب الثقافة الأوروبية الذين كان يسميهم خصومهم وقتذاك بـ «المتفرنجين» بعضهم من الشاميين المسيحيين. الذين استقروا فى مصر، وبعضهم من المصريين الذين تلقوا دراستهم فى أوربا أو فى المدارس الأوروبية، ومدارس الإرساليات الدينية التى كان عددها فى ازدياد مطرد(٣).

---

(١) أنظر بالتفصيل الاتجاه الصحفى الموالى للاستعمار البريطانى: جمال النجار، صحافة الاتجاه الإسلامى في مصر منذ مطلع القرن العشرين حتى نشوب الحرب العالمية الأولى، رسالة ماجستير - كلية اللغة العربية بالقاهرة، جامعة الأزهر ١٩٨٦ ص ١٣ ومابعدها .

(٣) أحمد حسين الصاوى، المجلات الثقافية والتحديات المعاصرة، مرجع سابق، ص ٥٨ حيث يشير الدكتور الصاوي إلى حقيقة مؤسفة مفادها أن أسرة نمر عند ما خرجت من القاهرة أوعزت إلى بعض أصدقائها أن يرسلوا خلفها بطريق التهريب أثمن مجموعة من مجلدات المقطم ، بما كانت تضمه من ملاحق ، وهى غير موجودة فى دار الكتب المصرية، وهذه الحادثة من أخطر مظاهر التأييد للإحتلال فى مصر. وأنظر أيضا: سامى عزيز الصحافة المصرية، مرجع سابق، ص٩٦، ٩٧.

(٢) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية ، جـ ١ مرجع سابق، ص ٢٣٦، ٢٣٧.

وأصبح تأثير التيار التغريبى ينفذ إلى المجتمع بقوة واندفاع ودون هوادة، يساعده في ذلك الاحتلال الانجليزى، ويدفعه إلى الأمام بفضل سياسة اللورد كرومر الذى نشر كتابه «مصر الحديثة» عام ١٩٠٨ يزعم فيه أن الإسلام إذا لم يكن ميتا، فإنه فى طور الاحتضار اجتماعيا وسياسيا، وأن تدهوره المتواصل حسب زعمه لايمكن إيقافه مهما أدخلت عليه من إصلاحات تحديثية بارعة، لأن التدهور كامن في جوهره الاجتماعى منذ الأصل- وهو جوهر قائم على تخصيص دور متخلف للمرأة فى المجتمع، وعلى التغاضى عن نظام الرق، وعلى جمود الشرع وقطعية العقيدة، وإنه لابديل عن التحديث الكامل بدون الإسلام»(١).

حركة التأليف بمو . ˉ التغر . . :

ثم يقوم منصور فهمى بكتابة أطروحته «حالة المرأة فى التقاليد الإسلامية وتطورها» عام ١٩١٣، وينهج فيها منهج النقد التاريخى المتحرر من الإلتزام بحقيقة الوحى، في تفسير سلوك النبى وعلاقاته وتشريعاته، الأمر الذى جعل الجامعة المصرية بعد أن راجعت نصوص الكتاب تستغنى عن منصور فهمى(٢) إلا أن ما كتبه ظل يمثل ضربة من ضربات التغريب ويشتد عود التيار التغريبى بعد الحرب العالمية الأولى، بسبب ملاحقة الإحتلال لأصحاب الفكر الوطنى الإسلامى، وهزيمة الدولة العثمانية فى الحرب، ويأتى عام ١٩٢٢م ليعلن كمال أتاتورك فى تركيا تمرده على قوانين الشريعة الإسلامية وتطبيقه للقوانين الغربية وفى عام ١٩٢٤ يعلن أتاتورك رسميا إلغاء الخلافة العثمانية، وفى عام ١٩٢٥م يصدر الشيخ على عبد الرازق كتاباً باسم - الإسلام وأصول الحكم «ينكر فيه الخلافة، وأنه ليس فى أصول الشريعة ما يلزم بها إلى غير ذلك من الآراء التغريبية، الأمر الذى انتهى بمؤلف الكتاب إلى المحاكمة أمام هيئة كبار

(١) أنظر بالتفصيل: محمد جابر الأنصارى، تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربى ١٩٣٠-١٩٧٠، عالم المعرفة- الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآراء، رقم (٣٥) الطبعة الأولى، نوفمبر ١٩٨٠ص ١٨ وللإطلاع على رد الفعل فى الفكر الإسلامى ضد كتاب كرومر يراجع كتاب الشيخ اللبنانى مصطفى الفلايينى: الإسلام روح العصر، الذى صدر فى العام ذاته، وألف خصيصا للرد على آراء المعتمد البريطانى لمصر.

(٢) مختار التهامى، ثلاث معارك فكرية، القاهرة، دار مأمون للطباعة ، الطبعة الأولى، ص ٦٦.

العلماء، فأصدرت حكمها فى ٢٢ المحرم ١٣٤٤ هـ - ٢أغسطس ١٩٢٥ م وهو يقضى بإخراج الشيخ على عبد الرازق أحد علماء الأزهر والقاضى الشرعى بمحكمة المنصورة الإبتدائية الشرعية ومؤلف كتاب الإسلام وأصول الحكم» من زمرة العلماء(١).

وفى عام ١٩٢٦م أصدر طه حسين كتابه «فى الشعر الجاهلى» مستخدما منهج الشك الديكارتى والنقد التاريخى الأوربى في غربلة الروايات والنصوص الدينية - بما فى ذلك آيات القرآن - مما طرح فكرة: نقد القرآن و[illegible] من وجهة نظر البحث العلمي، ومن أقوال طه حسين فى هذا الكتاب الذى صودرت نسخة: «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الإسمين فى التوراة والإنجيل لايكفى لإثبات وجودها التاريخى»(٢).

وقد أحدث كتاب طه حسين «فى الشعر الجاهلى» دوياً كبيراً فى الأوساط العلمية والفكرية والأدبية، وقام العديد من العلماء والمفكرين بالرد عليه وتفنيده، وبيان ما فيه من أخطاء علمية وتاريخية فادحة، ويذكر أنور الجندى أن هذا الكتاب كان له عدة أهداف منها:

١- محاولة تاكيد نظرية مسمومة كتبها المستشرق اليهودى «مارجليوث» ملخصها أن الشعر الجاهلى موضوع جله، إن لم يكن كله بعد الإسلام، والهدف هو تحطيم الدعائم التى يقوم عليها تفسير الألفاظ العربية الموجودة فى القرآن الكريم..

٢- دعوى أن المسلمين قضوا على الفكر السابق للإسلام.

---

(١) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، جـ ٢ مرجع سابق، ص ٨١.

(٢) محمد جابر الأنصارى، تحولات الفكر والسياسة فى الشرق العربى، مرجع سابق ص ٢٢ وانظر أيضا أحمد بهجت ، جريدة الأهرام، يوم ٢٢، ٢٣، ٢٤، ١٩٩٤/١/٢٤م ص٢ فى عموده المتميز «صندوق الدنيا» حيث يذكر أن طه حسين كتب كتابه بعد أن عاد من أوربا وهو يحمل داخله انبهاراً خاصاً بحضارة الغرب وثقافته!

٣- الدعوة إلى تخلى الأديب عن العاطفة الدينية والقومية ودراسة الأدب كما يدرس العلم الطبيعى، وعلم الحيوانات والنبات (١).

صحيح أن طه حسين قام بتعديل بعض النقاط فى كتابه، وقام بتغيير عنوان الكتاب نفسه إلى «في الأدب الجاهلى» إلا أن هذا الكتاب كان يمثل حلقة كبرى من حلقات التيار التغريبى الذى لم يتوقف عند هذا الحد، بل إننا نرى كاتبا أخر وهو سلامة موسى يصدر فى العام التالى وهو عام ١٩٢٧م كتابه «اليوم والغد» الذى يقول فى مقدمته «كلما ازدت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامى، أغراضى في الأدب كما أزاوله، فهى تتلخص فى أنه يجب علينا أن نخرج من أسيا وأن نلتحق بأوروبا، فإنى كلما زادت معرفتى بالشرق زادت كراهيتى له وشعورى بأنه غريب عنى، وكلما زادت معرفتى بأوربا زاد حبى لها وتعلقى بها، وزاد شعورى بأنها مني وأنا منها هذا هو مذهبى الذى أعمل له طول حياتى سرا وجهرة، فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب»(٢) فسلامة موسى بكتابه هذا بلغ الذروة، ووصل بتيار التغريب إلى منتاه إن لم يكن جاوز هذا المنتهى، فالرجل صراحة يريد أن يهدم شرقيتنا لأن «الرابطة الشرقية سخافة» ويريد أن يهدم عروبتنا لأنه يقول: لنا من العرب ألفاظهم فقط، ولا أقول لغتهم، بل لا أقول كل ألفاظهم ، فإننا ورثنا عنهم هذه اللغة العربية، وهى لغة بدوية لا تكاد تكفل الأداء إذا تعرضت لحالة مدنية راقية» ويريد سلامة موسى أن يهدم الإسلام والتدين فهو يقول: نحن في حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان» ويقول في خاتمة

(١) أنظر تفاصيل محاكمة فكر طه حسين: أنور الجندى، محاكمة فكر طه حسين، القاهرة،د ار الاعتصام ، ١٩٨٤م ص ١٤٢، وما بعدها - حيث يشير إلى أن أكثر من سبعة من الكتاب ردوا على كتاب طه حسين في كتابه ، وتقرير علماء الأزهر فى الرد على طه حسين ونعتهم له بأنه أضاع على المسلمين الوحدة والعاطفة الدينية والإيمان بتواتر القرآن، وأضاع عليهم كرامة السلف والثقة فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنظر أيضا: محمد عمارة، الصحوة الإسلامية والتحدى الحضارى ، القاهرة دار المستقبل العربى، الطبعة الأولى، ١٩٨٥ ص ٤٨، إذ يقول عمارة: إن كتاب طه حسين يمثل ثانى عمل فكرى يكتبه شيخ أزهرى بعد كتاب «الإسلام وأصول الحكم» للشيخ على عبد الرازق، والعملان يمثلان اقتحام «التغريب» لمقدسات المسلمين واستفزاز الروح المادية، للحضارة الغربية لمشاعر المسلمين.

(٢) راجع : محمد محمد حسين الاتجاهات الوطنية جـ٢ ، مرجع سابق، ص ٢١٣، وأيضا: سعيد إسماعيل على الفكر التربوى العربى الحديث، مرجع سابق، ص ١٧٧.

كتابه « وها نحن أولاء نجد أنفسنا الآن مترددين بين الشرق والغرب، لنا حكومة منظمة على الأساليب الأوروبية ولكن فى وسط الحكومة أجساما شرقية مثل وزارة الأوقاف والمحاكم الشرعية تؤخر تقدم البلاد ولنا جامعة تبعث بيننا ثقافة العالم المتمدين ، ولكن كلية جامعة الأزهر تقف إلى جانبها تبث بيننا ثقافة القرون المظلمة، ولنا أفندية قد تفرنجوا لهم بيوت نظيفة، ويقرأون كتبا سليمة، ولكن إلى جانبهم شيوخاً لايزالون يلبسون الجبب والقفاطين ولايتورعون من التوضؤ على قوارع الطرق فى الأرياف ولايزالون يسمون الأقباط واليهود «كفاراً» كما كان يسميهم عمر بن الخطاب قبل ١٣٠٠ سنة »[١].

التغريب ورد الفعل الإسلامي:

هذا، وقد أدت قوة وغلبة التيار التغريبي إلى استفزاز الشعور الإسلامي، وإيقاظ الوعي العام، فأدى علو صوت تيار التغريب وانفراده بالساحة في المدرسة والجامعة والمنتدى والصحافة وفى طرائق العيش ومناهج التفكير، بل وفى القيم والمعايير والأخلاق، أدى كل ذلك إلى أن يجعل الأمة تتحصن بحصنها العتيد وهو الإسلام ، وحدثت هذه الأحداث جميعا في حين كانت .. المشاعر الإسلامية للشيخ حسن البنا تتبلور ويكتمل نضجها ، فكانت العامل الحاسم الذى دفعه إلى تكوين جماعة «الإخوان المسلمين » عام ١٩٢٨ بمدينة الإسماعيلية.[٢] وهكذا، نشأت جماعة الإخوان المسلمين كرد فعل لحركة التغريب فى المجتمع المصرى[٣] وظهرت كموقف مناضل ، ضد التحدى التغريبي، ومظاهر السيطرة الغربية- على اختلاف ميادينها علي مقدرات الأمة، فلقد كانت الجوانب الحضارية في الغزوة الاستعمارية هى التحدى الرئيسى في طريق الأمة، لأن الحضارة الغربية، بمبادئها المادية قد انتصرت فى هذا الصراع الاجتماعي على الحضارة الإسلامية، بمبادئها القويمة الجامعة للروح والمادة معاً[٤] ويشير «ليونارد بايندر» إلى أن الإخوان المسلمين قامت كاعتراض على أنظمة الحكم غربية

---

(١) السابق نفسه، ص ٢١٧.

(٢) محمد عمارة، الصحوة الإسلامية والتحدى الحضاري، مرجع سابق ، ص ٤٨.

(٣) عبد العظيم رمضان، الإخوان المسلمون والتنظيم السرى القاهرة، دار روز اليوسف ، ١٩٨١، ص٢٥

(٤) حسن البنا، مجموعة الرسائل، رسالة بين الأمس واليوم، مرجع سابق، ص ١٤٠

الطراز وإلى أن الإخوان المسلمين أصبح لهم عند ظهورهم قاعدة جماهيرية واسعة النطاق [1].

ويذهب الدكتور محمد عمارة إلى أن جماعة الإخوان المسلمين نشأت كموقف مناضل ، ضد التحدى الغربى الحضارى أولاً، باعتبار أن الانتصار الإسلامى على جبهة الصراع هذه هو السبيل لإنقاذ النفس المسلمة وتسليمها بالإسلام ، كى تستطيع تحقيق النصر على الحضارة الغربية فى ميادين الفكر والثقافة والسياسة والاقتصاد [2].

ثالثا- التيار القومى العربى:

فى الواقع إن انتماء مصر العربى ليس موضع شك، فهى قد أخذت اللغة العربية فى أعقاب الفتح العربى الإسلامى، وتحولت بالتدرج إلى الإسلام، كما وفدت إليها على مر العصور كثير من القبائل التى امتزجت بمضي الوقت بسكانها وتبنت من خلالها كثيراً من العادات والتقاليد والأساليب الحياتية العربية التى أصبحت جزء لا يتجزأ من الحياة العامة للمجتمع المصرى بالإضافة إلى الدور الهام الذى لعبته مصر فى نشر وإثراء الثقافة العربية [3] فبدخول الإسلام إلى مصر امتزجت الحياة المصرية بالإسلام ولغته العربية، وامتزج الإسلام ولغته أيضا في الحياة المصرية، فصارت اللغة العربية هى لغة المصريين والإسلام دينهم الرسمى وأ . - مصر مع مرور الأيام وتعاقب الدهور والأزمان موئل العروبة وحصن الإسلام المنيع، ولم نقف على مصدر علمى يثبت أن فى مصر قد ظهر فى أى وقت من الأوقات أو فى أى مرحلة من مراحل تاريخها الطويل أية ردة عن الإسلام وعقيدته لأن الإسلام قد صهر جميع المصريين فى بوتقته، وأخرج منهم أمة لا تعتز إلا بدينها، ولا تفخر إلا بعقيدتها حتى الذين ظلوا على ملة غير ملة الإسلام، عاشوا بين إخوانهم المصريين المسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، لا تستطيع أن تفرق بين أحد منهم لأن الكل يعيش فى ظل الإسلام.

(١) ليوناردو بايندر ، الثورة العقائدية فى الشرق ، ترجمة خيرى حماد، الطبعة الأولى القاهرة، دار القلم، ١٩٦٦، ص ٧٨.

(٢) محمد عمارة، الصحوة الإسلامية، المرجع السابق، ص ٤٩ .

(٣) أنظر: عواطف عبد الرحمن، مصر وفلسطين، مرجع سابق، ص ٤٦، ٤٧.

صحيح أنه كانت تظهر فى بعض الولايات الإسلامية دعوات ونعرات شعوبية(١) بعد أن دخل فى الإسلام كثير من الشعوب غير العربية، وحتى هذه الدعوات كان يشعلها ويذكيها من فى قلوبهم مرض، والمنافقون، ولكن هذه الدعوات ما كان لها أن تحدث كل ما تعمل له وترنوا إليه فى ظل دولة الإسلام العاملة به وله، والمحتكمة إليه، ولكن بعد أن ضعفت شوكة المسلمين وقلت هيبة الخلافة الإسلامية في أواخر زمن العثمانيين وكثر المتآمرون عليها، والمتربصون بها، ظهر تيار غريب فى دولة الخلافة العثمانية يفرق بين العرب والترك وهم جماعة «الاتحاديين(٢)» واستأثر هؤلاء الاتحاديون بالسلطان والنفوذ وخاصة بعد أن قاموا بعزل السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩م، وعز عليهم أن يعطوا العرب حقهم في الحرية والعدل والمساواة، وقل تعويل الاتحاديين على العرب فى الإدارة والحكم، وعولوا على العناصر التركية، وبها فتحوا الباب لحركة عنصرية جديدة، وغالوا فى ذلك حتى أحفظوا صدور العرب عليهم فصاروا ينصرفون جملة عنهم ويتجهون وجهة « قومية عربية»(٣).

ولقد ساند الاستعمار هذه الدعوات بل عمل على إيجادها ، هو والقوى الأخرى المعادية للإسلام والمسلمين وعلى رأسها اليهودية والصهيونية العالمية، فهؤلاء هم الذين أوجدوا التيار الداعى إلى «الطورانية» فى تركيا كبديل عن الجامعة الإسلامية، ولقد كان النفوذ الغربى قد هيأ «الاتحاديين» منذ وقت بعيد من خلال المحافل الماسونية للدور الذى سيقومون به لتمزيق الدولة العثمانية والقضاء على ترابط الإسلام والعروبة، فكانت الدعوة إلى «الطورانية» التى تعلى من شأن الأتراك وتزرى من شأن العرب، الأمر الذى جعل العرب يتخوفون من إخوانهم الأتراك، ويعملون للانفصال عنهم والإلتفات إلى رابطة عربية تجمعهم، وهذا ما كان يبتغيه الاستعمار، وهو أن يفرق بين المسلمين

---

(١) الشعوبية: حركة ظهرت فى القرن الثالث الهجرى، وهي أن يزهد فريق من الناس فى نسبه الإسلامى، مؤثرا عليه معينة خاص، ونسبه القومى راجع: محمد الغزالى حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربى، القاهرة، دار الكتب الحديثة، الطبعة الثالثة، ١٩٧٧، ص ١٦٦، وما بعدها.

(٢) والاتحاديون هم أنصار جمعية الاتحاد والترقى» وتركيا الفتاة» والتى نشأت فى سالونيك بدعم وتخطيط من يهود الدونمة، وكان من أبرز رجالها كمال أتاتورك، الذى ألغى الخلافة العثمانية، وأعلن عن علمانية تركيا عام ١٩٢٤ انظر: أحمد سويلم العمرى، معجم العلوم السياسية الميسر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥، ص ٦٢، بتصرف.

(٣) أنظر التفاصيل: محمد عبد الغنى حسن، صراع العرب خلال العصور، القاهرة، مؤسسة المطبوعات الحديثة ، الطبعة الثانية، بدون تاريخ، ص ٩٩.

ويجعل الأتراك يرفعون راية التركية، والعرب يرفعون راية العروبة والكل يتعصب لدعوته(١) وقد برز إلى الوجود أول كيان سياسى يدعو إلى «العروبة» وهو حزب اللامركزية والحركة الإصلاحية والمؤتمر العربى فى باريس، وقد تأسس الحزب اللامركزى في مصر عام ١٩١٢. أما الحركة الإصلاحية فقد قامت فى بيروت(٢).

وأخطر ما فى هذه الدعوات هو تنصلها من الإسلام وابتعادها عنه وهذا ما أعلنه مؤسسو حركة القومية العربية بأن «الرابطة الدينية» عجزت دائماً عن إيجاد الوحدة السياسية(٣). وعلى الجانب السياسى وجد العرب أنفسهم إزاء سياسة الاتحاديين يقفون ضد دولة الخلافة في الحرب العالمية الأولى على أمل أن تعطى انجلترا الفرصة للعرب بأن يشكلوا خلافة عربية وإعطائهم الاستقلال إذا ما انتصر الحلفاء فى الحرب، وانتهت الحرب بانتصار الحلفاء، وأدرك العرب قيمة الوعود الاستعمارية التى لم تؤلب العرب على الأتراك- وهم أخوة فى الإسلام - إلا لمصلحة ذاتية ليس للعرب فيها حظ ولا نصيب، ولم يأخذوا من المستعمرين إلا الخداع والسراب(٤).

وهذا يؤكد ما ذهب إليه فريق من الباحثين على أن الدعوة للقومية العربية والفكر الذى تبنته، نتاج غربى لا صلة له بالفكر السياسى الإسلامى، وأن هذه الدعوة إن هى إلا محاولة للبحث عن هوية جديدة لسكان الولايات العربية فى الدولة العثمانية بعد أن أصاب الفتك والانحلال هذه الدولة، وتعرضت ولاياتها العربية للغزو العسكرى الأوروبى(٥).

والذى لا شك فيه هو أن الفكر القومى العربى رافق تطور الأمة العربية، وكان وليد

(١) راجع: أنور الجندى، العروبة والإسلام.. القاهرة، دار الاعتصام، الطبعة الأولى، ١٩٧٦، ص ١٨٥ ومابعدها.

(٢) عبد العزيز رفاعى، أصول الوعى القومى العربى، القاهرة، مؤسسة المطبوعات الحديثة، الطبعة الأولى، بدون تاريخ، ص ٧٨، ٧٩، وانظر: ابراهيم العدوى، قادة التحرير العربى فى العصر الحديث، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٦٤، ص ١٥٩ ومابعدها وأيضا: عبد العظيم رمضان، الغزوة الاستعمارية للعالم العربى وحركات المقاومة، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الأولى، ١٩٨٥ ص ٢٣.

(٣) عبد العزيز رفاعى أصول الوعى القومى العربى، مرجع سابق، ص ٨٠.

(٤) محمد عبد الغنى حسن، صراع خلال العصور، مرجع سابق. ص ١٠٥

(٥) راجع: سعيد إسماعيل على، الفكر التربوى العربى الحديث، مرجع سابق، ص ١٣٠

الظروف التاريخية التى عاشتها الأمة، وأن الفكر العربى أخذ أشكالا واتجاهات متعددة بتعدد المشكلات التى واجهها[1].

ولكن يذهب أحد الباحثين إلى أن معظم دعاة الجامعة العربية كانوا من دعاة الجامعة الإسلامية قبل الحرب العالمية الأولى، أو من زعماء الحركة العربية الذين كانوا يتصورونها تصوراً إسلامياً ويعملون لنقل الخلافة إلى العرب، وأن الذي يقرأ ما كتبه هؤلاء يحس أن الفكرة الإسلامية لا تغيب عن تفكيرهم حين يتكلمون عن العرب وعن الجامعة العربية[2] ومهما يكن من أمر، فإن العروبة والإسلام اقترنا من أمد بعيد، في حضارة واحدة وتاريخ مشترك، وشعر العالم كله بهذا الرباط القوى الجامع، فهو إذا تصور الإسلام، لا يستطيع أن ينسي العرب الذين آمنوا به وطوفوا أرجاء العالم برسالته، وهو إذا تصور العروبة لا يستطيع أن ينسى الدين الذى أعلى من شأنها وخلد أدبها وجمع من شتاتها دولة قدمت للإنسانية أزكى المثل وأرجح القيم[3].

موقف حركة الإخوان من القومية العربية:

ولكن السؤال الذى يطرح نفسه الآن هو: ما موقف جماعة الإخوان المسلمين من تيار القومية العربية؟ هل تؤيده أم تعارضه؟ ولكى نقف على إجابة شافية وكافية لهذه التساؤلات ينبغى أن نعود إلى ماكتبه مؤسس الجماعة حسن البنا فى هذا الصدد. فنراه يقول: والعروبة أو الجامعة العربية، لها في دعوتنا كذلك مكانها البارز وحظها الوافر، فالعرب هم أمة الإسلام الأولى، وشعبه المتخير، ويحق ما قاله صلى الله عليه وسلم: «إذ ذل العرب ذل الإسلام» ولن ينهض الإسلام بغير اجتماع كلمة الشعوب العربية ونهضتها، وإن كل شبر أرض في وطن عربى نعتبره من صميم أرضنا ومن لباب وطننا، فهذه الحدود الجغرافية والتقسيمات السياسية لا تمزق في أنفسنا أبداً معنى الوحدة العربية الإسلامية التى جمعت القلوب على أمل واحد وهدف واحد وجعلت من هذه الأقطار أمة واحدة مهما حاول المحاولون وافترى الشعوبيون، ومن

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٣١.

(٢) راجع بالتفصيل : محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، جـ ٢ مرجع سابق ، ص ١٠٧ومابعدها.

(٣) أنظر التفاصيل، وحديثا مسهبا وعميقا حول علاقة العروبة بالإسلام: محمد الغزالى، حقيقة القومية العربية، مرجع سابق، ص١١٨، ومابعدها.

أروع المعانى في هذا السبيل ما حدد به الرسول صلي الله عليه وسلم معنى العروبة إذ فسرها بأنها اللسان والإسلام(1).

ثم يقول الشيخ البنا: ونحن نعتقد أننا حين نعمل للعروبة نعمل للإسلام ولخير العالم كله، ومن ثم كانت وحدة العرب أمراً لابد منه لإعادة مجد الإسلام، وإقامة دولته وإعزاز سلطانه، ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها(2) وبذلك يكون الإخوان المسلمون نظروا إلى فكرة القومية على أنها واقعية بغض النظر عن خلفياتها والأسباب التى دعت إلى ظهورها، ولأن الموقف الحاضر لا يستدعى استرجاع الماضى بآلامه وأوجاعه فذلك لن يفيد القضية، وإنما الذى يفيدها هو النظر إليها بمنظور الإسلام، الذى لايفصل العروبة عن الإسلام ولا يفصل الإسلام عن العروبة.

وبذلك يمكن القول بأن الإخوان في موقفهم من تيار القومية العربية يعتبرون امتداداً لموقف رشيد رضا والكواكبى وشكيب أرسلان وغيرهم من المفكرين العرب الذين يمزجون ويربطون ربطاً وثيقاً بين الإسلام والعروبة.

رابعا- التيار القومى المصرى:

إلى جانب ذلك التيار القوى الغلاب الذى كان ينادى بوحدة الشعوب الإسلامية، ويستنهض الهمم باسم الإسلام، كانت هناك دعوة - فى مصر- ناشئة تنادى بالقومية المصرية، وتبث الشعور بالوطنية الإقليمية فى الأمة التى تقوم- حسب تصورهم- على الجنس لا على الدين، منادية بقصر الاهتمام على المصالح المصرية ومعالجة مشكلاتها مستقلة عن مشاكل الدولة العثمانية والأقطار الإسلامية(3).

وكان المبشرون بهذه الدعوة الجديدة فى مصر متأثرين تأثراً واضحاً بالتفكير

(1) أنظر : حسن البنا، مجموعة الرسائل، دعوتنا فى طور جديد، مرجع سابق، ص ١١٣.

(2) المرجع السابق نفسه ، ص ١٧٦، والبنا يرفض القومية التى تقام على عصبية الدم وعنصرية الجنس، فيجعلون ذلك أساس وحدتهم ورمز جامعتهم، ويحاكون مطالبهم من خيوط هذه الوحدة وتلك الجامعة، وينسوا أن الناس لآدام وآدم من تراب وأيضا يعارض دعاة القومية الذين يفهمون القومية أنها الحدود الجغرافية والرقعة الأرضية ، ويقول: إن كل ذلك لا ينفع والإسلام دين شامل جاء الإنسانية بكل ما تحتاج إليه من النظم والقوانين الكلية ووصف لها طريق السعادة فى بيان ووضوح. أنظر: حسن البنا، «جريدة الإخوان المسلمين» الأسبوعية العدد (٢٩) ٨ ذى القعدة ١٣٥٢ هـ، ص٢٢.

(3) محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية جـ١، مرجع سابق، ص ٥٠.

الأوربى كما يبدو من خطبهم وكتاباتهم وشعرهم وعن ذلك يقول عبد العزيز جاويش: إن الشعور بالوطنية اصطلاح أفرنكى انتقلت بذوره إلى الشرق من مفاهيم العلوم العصرية وأصول المدنية الحديثة التى اهتدى إليها أهل الغرب»(١).

ولاشك أن التيار الفكرى الذى أصبح ينادى بالقومية المصرية لم يكن على نمط واحد في التعبير والتفكير، فقد كانت هناك مدرسة مصطفى كامل التى تنادى بالاهتمام بالوطن المصرى لكن لم يفهموا أن هذا الاهتمام يتنافي مع دينهم وعقيدتهم، وفي ذلك يقول مصطفى كامل: قد يظن بعض الناس أن الدين ينافى الوطنية، أو أن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية ولكنى أري أن الدين والوطنية توأمان متلازمان ، وأن الرجل الذى يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حباً صادقاً ، ويفديه بروحه وما تملك يداه(٢)، بهذا الكلمات يعبر مصطفي كامل عن مفهوم الوطنية تعبيراً سليماً ، لا يتنافى مع أصول الدين أو مع طبائع البشر، في حين أنه كانت هناك مدرسة حزب الأمة وصحيفة الجريدة بقيادة أحمد لطفى السيد الذى يحارب فكرة الجامعة الإسلامية ، ويدعو إلى أن يقصر المصريون إهتمامهم على مصالح مصر، ويحصروا تفكيرهم فيما يعود عليها بالنفع، ويصور الوطنية على أنها المصلحة المشتركة التى تجمع بين المواطنين، إذن فالداعون إلى التيار القومى المصرى والجامعة المصرية قسمان: قسم يدعو إليها وإلى الجامعة الإسلامية فى آن واحد، ولا يرى تعارضا بينهما، «فاهتمام الفرد بمصالح أخيه وابن عمه لا يعني تفريطاً في مصالحه» وقسم آخر ينكر الجامعة الإسلامية والرابطة العثمانية ويهاجمهما في عنف ويقيم الجامعة القومية على أساس من المصلحة المشتركة وحدها، وهؤلاء يعنون بالمصريين القاطنين فى مصر(٣).

وما إن نشبت الحرب العالمية الأولى حتى تلاشى أثر القسم الأول الذى ينادى بالقومية المصرية المرتبطة بالجامعة الإسلامية، وعلا صوت القسم الآخر، ووجد تشجيعا من الاحتلال، وتقوية له لاستخدامه فى محاربة التيار العربى، وتطبيقا للقاعدة البريطانية المعروفة في إنعاش القوميات المحلية لضرب امكانية التجمع العربى بعد أن تم لها بعد الحرب السيطرة على العالم العربى وتقسيمه(٤).

---

(١) صحيفة العلم ، العدد الأول، ٧ مارس ١٩٦٠، نقلاً عن المرجع السابق، ص ٥١.

(٢) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، مرجع سابق ، ص ٦٥.

(٣) السابق نفسه، ص ٨٩، ٩٠.

(٤) عواطف عبد الرحمن، مصر وفلسطين، مرجع سابق، ص ٤٢.

إذن فسياسة الاحتلال قامت على التخلص من أنصار الجامعة الإسلامية وتيارها الفكرى وذلك بتشجيع التيار القومى العربى الكاره للخلافة العثمانية والجامعة الإسلامية، وعندما يتم لها ذلك يتجهوا إلى الناحية الأخرى فيشجعوا التيار القومي المصرى الكاره للعرب والجامعة العربية ويدعموه فإذا ما تم لهم ذلك، استطاعوا أن يحكموا سيطرتهم على فريستهم وهذا هو المقصود بعينه، وقد تم لهم ما أرادوا ، ونجحوا فى ذلك أيما نجاح، وبذلك يكون الاستعمار قد لعب دوراً كبيراً في مساندة وتشجيع الحركات القومية لتقويض هيبة الدولة العثمانية أولاً، وتفتيت وحدة العرب والمسلمين ثانيا(١).

ولقد كان لهذا القسم الثانى شق آخر، وينحصر في الاتجاه الفرعوني، فكان يركز اهتمامه ببعث المجد المصرى الفرعونى القديم كأحد الطاقات الهامة لإذكاء روح الوطنية المصرية، ولم يكن الجديد في هذه الدعوة أنها تدعو المصريين لجمعهم على الاهتمام بشئون وطنهم، فالجامعة المصرية "ـ" لايمكن تجاهلها أو إنكارها كما أنه لايمكن إنكار أن هناك جامعة إقليمية يجتمع عليها أهل كل بلد وأهل كل إقليم من أقاليم مصر نفسها، وأن هناك جامعة مهنية يجتمع عليها أبناء الحرفة الواحدة، ولكن الجديد فى الجامعة المصرية الفرعونية أنها قد أصبحت دعوة انفصالية تنزع نحو الأنانية والإنطواء على النفس ، وتعارض الجامعة الإسلامية ، والجامعة العربية وترى أن جامعة الوجود المكانى التى تربط بين من يعيشون على هذه الأرض اليوم وبين من عاشوا عليها منذ آلاف السنين هى أحق وأقوى بالرعاية من الجامعة الزمانية التى تربط بينهم وبين أبناء جيلهم ممن يعيشون في غير مصر، ومن الجامعة العقلية والثقافية التى تربط بينهم وبين أبناء لغتهم(٢).

ويشتد صوت التيار المصرى الفرعوني، وتشترك بعض الصحف في تقويته ودعمه والدعوة إليه وكانت صحيفة «السياسة» لسان حال حزب الأحرار الدستوريين تقوى هذه الموجة، فيكتب رئيس تحريرها ، «محمد حسين هيكل» داعيا إلى إحياء الفرعونية، كما تبنت الصحيفة نفس الدعوة ، وتخيلت أن تكون هذه الدعوة ديناً جديداً يغزو

(١) أنظر بالتفصيل: إبراهيم غانم البيومى ، الفكر السياسى ، مرجع سابق، ص ٧٩ حيث يشير إلي أهمية كتاب لويس عوض، تاريخ الفكر المصرى الحديث: في الكشف عن دور الاستعمار في مساندة وتشجيع الحركات القومية في دولة الخلافة العثمانية.

(٢)محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، جـ٢ مرجع سابق، ص ١٤٠ .

بمبادئه العالم هاديا ومبشراً ليحقق للناس السعادة، والطمأنينة، كما دعت الصحيفة نفسها إلى «فن» مصرى النزعة صريح في مصريته يضاهى المذاهب الذائعة فى أوروبا(١).

ولاشك أن هذا التيار الفكرى الذى يدعو إلى المصرية ويتبنى مفهوم الفرعونية ، كان لجماعة الإخوان المسلمين منه موقف اعتدالى وسطى فهم لم ينكروه كلية وإنما أنكروا منه ما قد يتعارض مع الإسلام وفى ذلك يقول حسن البنا: والمصرية أو القومية لها في دعوتنا مكانها ومنزلتها وحقها في الكفاح والنضال ، إننا مصريون بهذه البقعة الكريمة من الأرض التى نبتنا فيها ونشأنا عليها، ومصر بلد مؤمن تلقي الإسلام تلقيا كريماً وزاد عنه، ورد عنه العدوان في كثير من أدوار التاريخ وأخلص فى اعتناقه وطوى عليه أعطف المشاعر وأنبل العواطف، وهو لايصلح إلا بالإسلام، ولا يداوى إلا بعقاقيره ولا يُطب له إلا بعلاجه، وقد انتهت إليه بحكم الظروف الكثيرة حضانة الفكرة الإسلامية، والقيام عليها، فكيف لا نعمل لمصر ولخير مصر؟ وكيف لا ندفع عن مصر بكل ما نستطيع؟ وكيف يقال إن الإيمان بالمصرية لايتفق مع مايجب أن يدعو إليه رجل ينادى بالإسلام ويهتف بالإسلام؟ إننا نعتز بأننا مخلصون لهذا الوطن الحبيب عاملون له مجاهدين فى سبيل خيره، وسنظل كذلك ما حيينا معتقدين أن هذه هى الحلقة الأولى في سلسلة النهضة المنشودة، وأنها جزء من الوطن العربى العام، وأننا حين نعمل لمصر نعمل للعروبة والشرق والإسلام(٢).

موقف حركة الإخوان من تيار الفرعونية:

وعن موقف الإخوان المسلمين من الدعوة إلى الفرعونية وإحياء تراث مصر القديمة يقول الشيخ البنا: وليس يضيرنا في هذا كله أن يعنى بتاريخ مصر القديم، وبما سبق إليه قدماء المصريين، الناس من المعارف والعلوم، فنحن نرحب بمصر القديمة كتاريخ فيه مجد، وفيه علم ومعرفة، ونحارب هذه النظرية بكل قوانا كمنهاج عملى يراد صبغ مصر به ودعوتها إليه، بعد أن هداها الله بتعاليم الإسلام، وشرح لها صدرها، وأنار به بصيرتها وزادها به شرفا ومجداً فوق مجدها، وخلصها بذلك مما لحق هذا التاريخ من أوضار الوثنية وأدران الشرك وعادات الجاهلية(٣).

(١) زكريا سليمان بيومى، الإخوان المسلمين، مرجع سابق، ص ٤٩.

(٢) حسن البنا، مجموعة الرسائل ، دعوتنا في طور جديد، مرجع سابق، ص ١١٢،١١٣.

(٣) حسن البنا، المرجع السابق، ص ١١٣ وانظر أيضا: ج أ م ن ش، العدد الثالث السنة الأولى، ٢٦ سبتمبر ١٩٤٢، ص ٥.

وبهذا البيان يكون البنا قد وضع النقاط على الحروف، وهذا الموقف يراه الباحث صدى لموقف مصطفى كامل والحزب الوطنى الذى لم ينكر الوطنية المصرية مادامت فى إطار الإسلام ، ولا تتعارض معه، وبهذا الموقف الذى ظهر به الإخوان المسلمون وأكده حسن البنا عبر كلمته السالفة ، يكونون بذلك أحيوا فكر مصطفى كامل السياسى وأخذوا عنه، واستفادوا منه، وردوا على من يغمزون الإخوان المسلمين في وطنيتهم ، ويعتبرون تمسكهم بالفكرة الإسلامية مانعا إياها من الإخلاص للناحية الوطنية(١).

ولاشك أيضا أن موقف الإخوان المسلمين هذا، من القومية المصرية، يتعارض مع موقف دعاة هذا التيار الذين دعوا إليه، وتشيعوا له أمثال لطفى السيد وطه حسين، وسلامة موسى وغيرهم ممن يعتبرون الجامعة المصرية بديلا عن الجامعة العربية والجامعة الإسلامية، بل يعلنون عدم تمسكهم وولائهم لهاتين الجامعتين ويحصرون تيار الثقافة المصرية في الحدود الإقليمية الضيقة، ومن هنا فقد تصدت جماعة الإخوان، لهذا التيار مؤكدة الانتماء العربى الإسلامى لمصر، وأخذ مفهوم الوطنية المصرية عندهم بعداً متميزاً(٢). وهنا يمكن القول إن تيارى الفكر القومى العربى والمصرى اللذان كانا قائمين فى مصر قبل ظهور حركة الإخوان كان لهما أثر واضح في تحريك كوامن التفكير المصرى وإشغال الفكر المصرى بأفكار وآراء وثقافات من شأنها أن تصقل العقل وتنميه مهما كان على هذا الأفكار من مآخذ أو تحفظات، وكان حسن البنا أحد هذا العقول المصرية التى نشأت وسط هذه التيارات الفكرية والتى استفاد منها وتأثر بها، وعندما أنشأ جماعته وأقام حركته أعلن رأيه في هذه التيارات – كما تقدم- مما يعكس من خلال آرائه وأقواله أنه أخذ عن هذه التيارات الفكرية وترك منها، وتمسك ببعضها وأنكر البعض الآخر.

خامسا - التيار الاشتراكي:

تدل الدراسات التحليلية لتطور الأفكار السياسية والاجتماعية على أن ظهور فكرة جديدة لايتم من فراغ، ولا تنشأ بمعزل عن تطور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ولا عن الوضع الثقافى العام وطبيعة النخبة المتعلمة واتجاهاتها في المجتمع، ورغم أنه من المؤكد أن المفكرين الاشتراكيين الأوائل قد تعرفوا على فكرة الاشتراكية عبر احتكاكهم بالمؤلفات المتعلقة بهذا الموضوع ، فإن بروز هذه الفكرة من منظور التطور الثقافى

(١) أنظر بالتفصيل ، حسن البنا، مجموعة الرسائل ، رسالة المؤتمر الخامس، مرجع سابق، ص ١٧٥ ومابعدها، حيث يذكر البنا أن موقف الإخوان من المصرية هو موقف الإسلام نفسه ثم أبان موقف الإسلام من القومية المصرية.

(٢) عثمان عبد المعز رسلان، التربية السياسية، مرجع سابق، ص ١٢٠.

العربي تأثر بعاملين أساسيين أولهما: دور «السان سيمونيين» - أتباع سان سيمون- في مصر خلال عصر محمد علي، وثانيهما: الوعي المتزايد بضرورة الحاجة إلى الإصلاح والعدل الاجتماعي اللذين عبر عنهما الشيخ رفاعة الطهطاوي في كتابه مناهج الألباب[(١)].

وفي عام ١٨٩٩ نرى شبلي شميل يكتب في جريدة «البصير» يبرز بؤس الفقراء ويندد بالمستغلين من الأغنياء، ثم يكشف شميل أكثر عن وجهته عندما ينشر مقالا في جريدة «المؤيد» ١٩٠٧ يرد فيه على سليم سركيس مؤكداً على أن «الإشتراكية» ليست وصمة تتطلب منه أن يدافع عن اتهام الناس له بأنه يدعو إليها[(٢)].

وفي أثناء الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى مباشرة، كثرت الاتجاهات الفكرية في مصر في هذه المرحلة، وظهر بشكل واضح الاتجاه والنزعة الاشتراكية، التي سادت وسيطرة على عقول بعض المفكرين، وظهر ذلك بوضوح فيما كانت تنشره صحافة ذلك الحين من مقالات متفرقة، حتى جاء عام ١٩١٢ فقام سلامة موسى بنشر كتيب عن «الاشتراكية» يرد فيه على الاتهامات التي توجه إلى هذا التيار[(٣)].

وفي أوائل عام ١٩١٥ صدر كتاب .. تاريخ المذاهب الاشتراكية «لمصطفى حسين المنصوري ليصبح بهذا العمل أول اشتراكي مسلم في العالم العربي ينقل صوت الفقراء . ويعلن أن في الاشتراكية علاجا للأوضاع القائمة»[(٤)].

وفي أعقاب ثورة ١٩١٩ تجمعت الحلقات الماركسية المصرية والأجنبية مكونة الحزب الاشتراكي المصري ، والذي أعلن برنامجه الأول في ١٨ أغسطس ١٩٢١، وفي يناير ١٩٢٣ تقرر تغيير اسم الحزب إلى الحزب الشيوعي المصري[(٥)].

وتأسس الحزب الاشتراكي الأول على يد اليهودي الإيطالي الأصل «جوزيف روزنتال» ونشر بيان الحزب موقعا بأسماء سلامة موسى وعلي العناني ومحمد عبد الله عنان ومحمود حسني العرابي وذلك يعني أن قيادة الحركة الشيوعية في مصر كانت ساقطة في يد اليهود في بدايتها[(٦)].

---

(١) أنظر بالتفصيل، علي الدين هلال، التجديد في الفكر السياسي المصري الحديث، القاهرة معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٥ ص ٥٥- ٥٧ وأيضا: سعيد إسماعيل علي الفكر التربوي العربي الحديث، مرجع سابق، ص ٣٠٥.

(٢) سعيد اسماعيل ، السابق نفسه، ص٣٠٨

(٣) لطيفة محمد سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى، مرجع سابق، ص٢٢٢- ٢٢٣.

(٤) محمد جابر الأنصاري، تحولات الفكر والسياسة ، مرجع سابق، ص ٢٥.

(٥) عواطف عبد الرحمن ، مصر وفلسطين ، مرجع سابق، ص ١٢٩.

(٦) عثمان عبد المعز رسلان، التربية السياسية، مرجع سابق، ص ١٢١.

ولايقتصر دور اليهود في هذا الجانب على مصر وحدها بل إن اليهود خاصة والأجانب عامة هم الذين حاولوا تكوين هذه المنظمات الشيوعية في البلاد العربية، الأمر الذي يوحي بأن نشاطهم موجه لخدمة الحركة الصهيونية رغم انتقاد اليهود الماركسيين للصهيونية فى الظاهر ومهاجمة الدين الإسلامي، وقد ظل الأجانب يشكلون غالبية هذه التنظيمات فقد بلغ عددهم في منظمة «ايسكرا» كبرى المنظمات اليسارية ٤٠٠ من المجموع الكلى ٩٠٠ مع أن الرقم الأخير مبالغ فيه (١).

وتمكن التيار الشيوعى فى مصر من أن يستأجر بعض الصحف مثل جريدة «الشبيبة» وهى جريدة أسبوعية أدبية اجتماعية، تم تحويلها إلى اشتراكية وقد صدر عددها الأول من أوائل يوليو ١٩٢٢ هذا إلى جانب النشرات السرية التى كان يصدرها الحزب، وفى مارس ١٩٢٥ استأجر الحزب رخصة جريدة «الحساب» وتم صدورها على يد رفيق جبور وكوارد الحزب الشيوعى المصرى(٢).

ولقد تم رصد تحركات هذا التيار منذ ظهوره، وقد وقعت عليه عقوبات بسبب مواقفه ، وقيامه بقيادة الإضرابات العمالية مما جعل حكومة سعد زغلول تصدر قراراً بحل الحزب واتحاد العمال، ولكن الحزب الشيوعى لم ينته بل استمرت خلاياه في معظم المدن المصرية، وظل الحزب معترفا به من قبل الدول الشيوعية، وعلى صلة بالأحزاب الشيوعية في الدول الأخرى(٣)

مو ّ ٌ حركة الإخوان من تيار الاشتراكية:

ولقد كان للتيار الإسلامي موقف مشهود من التيار الشيوعى في مصر، فبرغم أن التيار الإسلامى قد هاجم كافة التيارات التغريبية إلا أنه كان يدرك أن عداءه تجاه التيار الشيوعى كان مزدوجا لأنه مقتبس من مفكرين أجانب من جهة، ولكونه يجاهر بعدائه للأديان من جهة أخرى وبالتالى فقد نال هذا التيار القسط الأكبر من الهجوم من قبل التيار الإسلامى(٤).

وليس هذا فقط هو الذى دفع التيار الإسلامى إلى مهاجمة الاشتراكية والشيوعية ، ولكن بسبب هجومهم على الأزهر وعلمائه ومن ذلك ما كتبه محمود حسنى العرابى في

(١) زكريا سليمان بيومي، الإخوان المسلمون، مرجع سابق، ص ١٨١،١٨٢ .
(٢) راجع التفاصيل، عواطف عبد الرحمن، مصر وفلسطين، المرجع السابق، ص ١٣٠،١٣١ .
(٣) المصدر نفسه، ص ١٣٠، ١٣١ .
(٤) زكريا سليمان بيومي الإخوان المسلمون، المرجع السابق، ص ١٧٩ .

مجلة «الحياة الجديدة» في ٢٩ يناير ١٩٢٨ مهاجماً الأزهر لدرجة جعلته يدعو إلى تحويله إلى «كلية لاهوت كما هو الحال في جمهوريتى تركيا وألمانيا وغيرهما» ويسخر من تسمية الأزهر «بالشريف» ومن كلمة «هيئة كبار العلماء» والزي المكون من «العمامة والقفطان» وقوله: إن الأزهريين جيش كبير لو وجه به إلي عمل منتج في أعمال الدولة لخطت البلاد خطوة واسعة إلى الأمام(١).

ولاشك أن ظهور هذا التيار وتناميه يوما بعد يوم، ومهاجمته الأديان كان من أكبر الدوافع إلى قيام حركة إسلامية منظمة توقف المد الإلحادى المتمثل في حركة الحزب الشيوعي المصرى، فكانت حركة الإخوان المسلمين التى ما قامت إلا لنشر الفكرى الإسلامي ومحاربة الفكر الإلحادى فعندهم «أن الفكر لايقاومه إلا فكر أسلم منه وأقوى» ومن هنا كان الشيخ البنا يهيب بالمجموعات الشيوعية أن تتفهم الإسلام الذي يتضمن من الأسس الإصلاحية ما يسمو على المذهب الشيوعى بكثير(٢).

ويذهب أحد الباحثين إلى أن موقف جماعة الإخوان المسلمين من هذه المنظمات كان ينم عن عداء كامل، وبالتالى إصرار على ضرورة محاربة هذا التيار، وأنهم كانوا يعتبرونه أشد خطراً على الإسلام والمسلمين من حركة التبشير، وأن خطره يهدد كيا المجتمعات حيث إنه إذا نجح، سيهدم المساجد، ويعطل العبادة ويبيح الأعراض، ويا الأديان بعد عزة وحينئذ يكون موقف الإخوان المسلمين من التيار الفكرى الاشتراكي الشيوعى هو نفس الموقف الذى اتخذه أنصار تيار الفكر الإسلامى قبل ظهو الإخوان، إذ اتسم هذا الموقف بالعداء المزدوج للفكر الشيوعى، والرد والهجوم العني على هذا الفكر الإلحادى المادى.(٣)

ويرى محمود عبد الحليم أن فى معاناة الطبقات الفقيرة فى البلاد الإسلامية مرة خصيبا للشيوعية، ولذا أخذت دعوة الإخوان تحتضن كل تجمع عمالى صناعى زراعى ضد مستغليهم من أصحاب المصانع وملاك الأراضى.. وأن الشيوعية باعتبار فكرة تريد أن تغزو بلادنا، والفكرة لا يقهرها إلا فكرة .. وأن الشيوعية العالمية ت الإخوان المسلمين من ألد أعدائها وأكبر عائق فى طريقها.(٤)

---

(١) راجع بالتفصيل: سعيد إسماعيل على، الفكر التربوى العربى الحديث، مرجع سابق ٣١٢-٣١٣

(٢) ريتشارد ميتشل، الإخوان المسلمون، مرجع سابق، ص ١٢١.

(٣) زكريا سليمان بيومي، الإخوان المسلمون، مرجع سابق، ص ١٨٨.

(٤) محمود عبد الحليم، الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ، جـ ١، دار الدعوة والإسكندرية، ١٩٧٩، صـ ٤٨٢ - ٤٨٣.

الفصل الثالث

الواقع الاجتماعى الذى ظهرت فيه الصحافة الإسلامية

تمهيد :

لاريب فى أن الإحتلال الإنجليزى لمصر فى ١٨٨٢ كان له أثره السيىء فى الحياة الاجتماعية المصرية، فمنذ أن وطئت أقدام الانجليز البلاد أهملوا الإصلاح الاجتماعى بإطلاق، ولم ينفقوا من الإيرادات العامة شيئا على هذا الإصلاح فتدهورت حالة الأمة الاجتماعية تدهوراً بالغاً، والإحتلال هو المسئول من الوجهة الاجتماعية عن سوء حالة طبقات الشعب، وأترك للمؤرخ المصرى عبد الرحمن الرافعى ـ لنا واقع وحال هذه الطبقات فيقول:(١)

إن الطبقة الخاصة من الأغنياء والكبراء والمثقفين قد اتجهت فى مجموعها وجهة الولاء للإحتلال، والحياة النفعية فخلت الحياة الاجتماعية من المفاخر والعظائم لأن الولاء للحكم الأجنبى يتولد عنه صغار فى النفوس، يتنافر مع كل عظيم ونبيل، واجتمع إلى ذلك الإسراف فى الترف والبذخ والرغبة فى الظهور الكاذب، واقتباس مفاسد المدنية الغربية دون محاسنها فصارت هده فى مجموعها عنوان الإنحلال فى الوطنية والأخلاق، وأداة للاستغلال الأجنبى فى البلاد، وتقطعت الروابط بين هذه الطبقات لانصراف أفرادها إلى المنافع الشخصية دون الحياة القومية..

أما الطبقة المتوسطة فى اليسار والعلم فهذه أيضا إنصرفت إلى الحياة النفعية تبتغى بلوغ مراتب الطبقة الخاصة، ومحاكاتها فى مظاهر الأبهة والبذخ، فلم يعد فى البلاد من جهودها أية فائدة. والطبقة الفقيرة من الفلاحين والعمال، وهم أغلبية الشعب، قد ساءت حالتهم فى عهد الاحتلال، فالاحتلال هو السبب الأساسى فى انتشار الجهل والأمية بينهم طوال أربعين سنة ونيف، فهو بسياسته التعليمية قد حال دون تعليمهم وتهذيبهم وتثقيفهم فحرموا نور العلم والتربية الأخلاقية والدينية، وساءت حالتهم المادية والمعنوية، وفقدوا مع الزمن أخلاق الصدق والوفاء وحب الغير والبر والإحسان، وأهمل

(١) عبد الرحمن الرافعى. مصر والسودان. فى أوائل عهد الاحتلال، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ١٩٨٣. ص١٩٤ و١٩٥

الإحتلال حالتهم المادية والصحية والمعنوية وانتشرت فيهم الأمراض الحسية والمعنوية.(١)

ويشبه الزعيم الوطني مصطفى كامل المصائب التى حلت بالمجتمع المصرى من جانب الإحتلال الإنجليزى بالصواعق فكتب فى جريدة الأهرام فى ٤ مارس ١٨٩٥ تحت عنوان «صواعق الإحتلال» يقول: لله من صواعق تصب علينا بغير حساب، ومصائب نُرمى بها بلا أسباب، وبلايا تتدارك قطرات السحاب ورزايا تتصدع بها القلوب والألباب، حتى أصبحنا نتقلب بين أنياب هذا الشر وأظفار ذلك السوء، ولانعرف من الأيام غير ظلماتها، ولا من الحوادث إلا مزعجاتها كل ذلك على أيدى فئة جاءت البلاد بحجة الإصلاح، فأفسدت ما شاءت وغيرت وبدلت ما استطاعت إجابة لداعى هواها، ورغبة فى بلوغ مناها، وإذا سألتها ما هذه الصواعق التى تصبينها علينا؟ قالت. هى أدوية أدوائكم ومراهم جروحكم فتلقوها بالصبر والسكون، هذا شأنهم معنا شأن القوى مع الضعيف ينتهكون كل حرمة، ويطأون كل عزيز نفيس.(٢)

القيم الوا ة:

ولقد صاحب الإحتلال الأجنبى لمصر انتشار بعض العادات والتقاليد الأوروبية التى كان لها أثرها الفتاك فى المجتمع المصرى، والتى قلد فيها المصريون الأوروبيين تقليداً أعمى باعتبارها تمدنا من التمدن، فعمل الأوربيون جاهدين على أن تغمر موجة الحياة المادية بمظاهرها الفاسدة وجراثيمها القتالة جميع البلاد الإسلامية التى امتدت أيديهم إليها، ووقعت تحت سلطانهم مع حرصهم الشديد على أن يحتجزوا دون هذه الأمم عناصر الصلاح والقوة من العلوم والمعارف والصناعات والنظم النافعة، وقد أحكموا خطة هذا الغزو الاجتماعى إحكاما شديداً، واستعانوا بدهائهم السياسى وسلطانهم العسكرى حتى تم لهم ما أرادوا.. وجلبوا إلى هذه الديار نساءهم الكاسيات العاريات

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول أمراض المجتمع المصرى فى هذه المرحلة أنظر: لطيفة محمد سالم، مصر فى الحرب العالمية الأولى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٩٨٤، ص١٥٧ وما بعدها.

(٢) راجع بالتفصيل، مصطفى كامل، المقالات، تحقيق يونان رزق مرقص القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦ ص ١٥١-١٥٢.

وخمورهم ومسارحهم ومراقصهم وملاهيهم وقصصهم ورواياتهم، وعبثهم ومجونهم وزينوا هذه الدنيا الصاخبة العابثة التى تعج بالإثم وتطفح بالجور في أعين البسطاء الأغرار من المسلمين، والأغنياء وذوى الرأى فيهم وأهل المكانة والسلطان.(١)

ولاشك أن النظام الاجتماعى للبلاد الأوروبية يختلف اختلافا كبيراً عن النظام الإسلامى، فبين الإسلام وكثير من الأنماط الأوروبية تباين عميق لا سبيل معه إلى لقاء، وخاصة فى أصول الفكر والاعتقاد، وضروب السلوك والأخلاق، وطرائق المعاملات، وهو نفس الفارق بين حياة تنبعث من الإيمان، وحياة تنبعث من الإلحاد، ومع ما يتبع ذلك فى كل نواحي الحياة من سلوك ملتزم بمنهاج الله رب العالمين، وسلوك متمرد على دينه الحق يدعو إلى التحرر من كل التزام إلا ما أشربه هواه وأضاليل قادته.(٢)

والواقع أن الأمة المسلمة كانت تعيش حينئذ وكأنهالا إرادة لها ولا مشيئة، ولايؤبه بقدرها أو يكترث لوجودها فكانت تعيش هدفا للسياط، وحشواً للسجون والمعتقلات وكانت تعيش أداة مسخرة تسخر قواها حتى تُستنفد، وكان الشباب عابثا لاهيا إما بين أحضان الرذائل والشهوات أو بين جدران الملاهى والمواخير، وإما بين أركان العزلة لايشعر بالدنيا ولاتشعر الدنيا به، وإما إمعة يسير مع الدنيا حيث تسير إن أحسن الناس أحسن وإن أساءوا أساء.(٣)

وكانت مصر محيطا متلاطما من المذاهب والأفكار، وأضحت الحضارة الأوروبية تقذف الشرق كل يوم بقذائف جبارة من الأفكار الإلحادية والنظم المنحلة، وكان المجتمع ينحرف شيئا فشيئا، ليلبس ثوبًا فضفاضًا من المجون السافر والفتنة المكشوفة والإباحية المارقة، وأخذت الحياة الأسرية تتقوض تحت ضربات معاول الأوضاع الجديدة، وكانت الصحافة بأقلام كتابها المستغربين تقذف الشعب المستيقظ فى دهشة تحت ضغط معاول الاستعمار ألوانا من الأفكار المستهجنة والإباحية الآثمة وكانت تركيا قد أعلنت خروجها عن جلال الشرق وعزة الإسلام بإلغائها الخلافة وانضوائها تحت

(١) حسن البنا، مجموعة الرسائل، رسالة بين الأمس واليوم، مرجع سابق ص١٣٨.

(٢) أنظر بالتفصيل: عبد الستار فتح الله سعيد، *الغزو الفكرى، والتيارات المعادية للإسلام*، القاهرة دار الأنصار الطبعة الأولى، ١٩٧٧ ص ١٤٨.

(٣) محمد عبدالله السمان، *الدعوة*، العدد (٩٥) السنة الثانية، ٩ ديسمبر ١٩٥٢، ص٣.

لواء الحضارة الغربية، فانتهز بعضهم الفرصة ليكتب طويلا وطويلا عن تفضيل القبعة على الطربوش وحرية المرأة وحرية الفكر، حتى بلغت بهم الجرأة إلى إنكار للسلطة الزمنية للخلافة الإسلامية وأنكر آخر، ما ورد فى القرآن الكريم عن سيدنا إبراهيم عليه السلام.(١)

والحقيقة أنه لا غرابة فى أن يحدث ذلك وأكثر من ذلك على يد الاستعمار فى البلاد الإسلامية، وذلك لأن هناك حقيقة مؤكدة أنه مع كل مخطط سواء أكان سياسيا أم عسكريا أم مخطط هدم أم ضغط أم احتواء أم تصفية كان الغزو الاجتماعى يرافقها ويهدف إلى التأثير على عقيدة المسلمين حسب مناهجهم الاجتماعية، وذلك ليساير المسلمون الأوروبيين فى حياتهم المادية، ولايلتفتوا إلى الحياة الروحية بل يهملونها وتستأثر بهم الفوضى ويتفشى فيهم الفساد، وينقادون إلى شهواتهم وغرائزهم.(٢)

ولقد كان اللورد «كرومر» هو المنوط به مهمة تنفيذ هذا المنهج الاجتماعى الغربى، وكان مدركا لطبيعة المصريين تمام الإدراك وعلاقتهم بدينهم الإسلامى، ومن خلال عبارة له يتبين لنا مدى هذا الإدراك وتتكشف الأهداف التى كان يرمى إليها إذ يقول: «فالمصريون يتمسكون تماما بالإسلام الذي هو أحد الكلمات المرادفة للوطنية فى الشرق والانجليز لايهدفون إلى نشر المسيحية، ولكنهم يريدون نشر حضارة تقوم على أساس «مسيحى» ومن ثم عمد رجال الإحتلال إلى العمل على زيادة عدد المصريين الآخذين بنصيب من الحضارة الأوروبية، وجعلوا لبعضهم مقاما كبيراً فى الدور السياسى الذى تمر به مصر منذ الاحتلال، وإذا استمر المضى فى هذا الطريق أصبح المصرى الأخذ بحضارة أوربا أقل مصرية وأكثر ميلا لأوربا، إذ يصبح المصريون بهذا الفيضان المتدفق من الحضارة الأوربية أقل إسلاما، وهم فى الوقت نفسه لم يحصلوا بعد على العمود الفقرى فى الحضارة الأوروبية، أو كما يصفهم فى عبارة قصيرة «بأنهم مسلمون وليست فيهم خواص إسلامية وأوربيون وليست فيهم خواص أوربية».(٣)

---

(١) أنور الجندى، الإخوان المسلمون، اليومية، العدد (٧٢٧)، ١٤ سبتمبر ١٩٤٨، ص٦.

(٢) أنظر بالتفصيل، محمود شاكر، العالم الإسلامى، ومحاولة السيطرة عليه بيروت، المكتب الإسلامى، الطبعة الثالثة، ١٩٨٤، ص١١٧ وما بعدها.

(٣) أنظر بالتفصيل: سامى عزيز، الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الانجليزى، القاهرة، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٦٨ ص ٣٠٠ وما بعدها.

وبالفعل عاد بعض المبعوثين لأوربا، ممتلئين غروراً بالحضارة الأوربية، ينفرون من أوطانهم ومن دينهم نفرة عجيبة، ويطالبون بتلوين الحياة المصرية باللون الغربى الخالص ويذيعون فى الناس أن الشــرق لايَصلُح أمة إلا إذا أخذ الحضارة الأوربية كاملة غير منقوصة شرها وخيرها، حلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب وكان الحديث عن الإسلام، يلقى في ذلك الوقت سخرية وإعراضاً، فأين الناس من الفكرة الإسلامية فى هذا البحر المتلاحم الذاخر من الشهوات المكشوفة والنزوات المغرقة، والإباحية البالغة، والاستهتار الماجن.. فهذه الأوضاع ولاشك -أخذت من الناس الألباب، ودفعتهم إلى ميدان الحياة المادية دفعًا حتى لم تعد الدنيا فى نظرهم إلا مالاً يجمع وامرأة تجلب وخمرًا تشرب وانطلقت قافلة الحياة إلى هذا الشر تندفع فيه وتعب منه.(١)

ويصف أيضا أحد الكتاب حالة البلاد خلال تلك الفترة فيقول: بأن الملاهى الليلية فى القاهرة كانت غاصة ببائعات الهوى اللواتى جاءت بهن الحرب العالمية الأولى من مختلف بلاد البحر الأبيض المتوسط للترفيه عن أفراد القوات البريطانية المحاربة، وكانت هذه الملاهى الليلية تكاد تكون أرضا غير مصرية من نهايات ١٩١٤ إلى نهاية ١٩١٨، وفجأة فى شهر اكتوبر سنة ١٩١٨ زحف أغنياء الريف المصرى على هذه الملاهى فأجلوا عنها القوات البريطانية.. فلم تعد بائعة الهوى تحتفى بجندى الاحتلال، فقد احتل مكانه فلاح مصرى باع أقطانه بعشرين ريالا للقنطار الواحد، بعد أن كان ثمن القنطار من قبل لايزيد على سبعة ريالات.. وذاعت قصص «العمدة» الذى كان يشعل السيجارة فى هذه الملاهى بورقة من ذات المائة جنيه، وذاعت فى الوقت نفسه قصص العذاب التى كان يقصها الكادحون من الفلاحين وأعمال العائدين من المعسكرات البريطانية التى سيقوا إليها قهرًا..(٢)

(١) أنور الجندى، الإخوان المسلمون، اليومية، العدد (٧٢٧)، ١٤ سبتمبر ١٩٤٨، صـ ٦.
(٢) حافظ محمود، أسرار الماضى، من ١٩٠٧ إلى ١٩٥٢ فى السياسة الوطنية، مجلة روز اليوسف العدد الخامس، ١٩٧٣، ص١٠، ١١.

صور من البلاء الاجتماعي:

وهذه الصورة الأخرى التى كان عليها المجتمع المصرى فى ظل الاحتلال الإنجليزى يصفها الشيخ الغزالى بقوله: ولاتزال هذه الصورة تلاحقنى، وتنشر ظلا من الكآبة على نفسى صورة الخواجة، وهو يتنقل بين ربوع الريف، مراقبا أمواله التى أخرجها بالربا، ومراقبا ما يضمن هذه الأموال من أطيان وأعيان، وليس ذلك ما آلمنى، وإنما الذى ضقت به أشد الضيق منظر «على» خادم الخواجة، وهو يتبع سيده الأجنبى هنا وهناك وكان آخر مناظر هذه الخدمة المهينة منظر «الخواجة» السيد، وهو يمتطى حماره الفاره، يسير عليه بهمة وقوة، ومن خلفهما «على» الخادم يجرى حافي القدمين، غارق الرأس فى لبدته القذرة، لاهث الأنفاس من ملاحقته للحمار النشيط، ولصاحبه المستعلى المنتفخ المنطلق!!(١)

وإذا تركنا هذه الصورة الهزلية التى كان عليها نفر من الفلاحين، لنقف على صورة أخرى يذل فيها المصرى بشكل قهرى لتحقيق مآرب الاحتلال وتتمثل فى قيام الإنجليز بأعمال وحشية فى البلاد إبان الحرب العالمية الأولى، حيث قاموا بجمع الأهالى كرها، وحشدهم قسرا لخدمة السلطة العسكرية وتسخير الرديف فى أشق الأعمال، والاستيلاء على المحاصيل الزراعية بأبخس الأثمان، وجمع الدواب بأقل الأسعار، وساقت السلطة العسكرية البريطانية بالسياط وفى مهانة ما يربو على المليون من العمال من أهل الريف، ولم ترحم فى ذلك شابا ضعيفًا، أو شيخا كبيراً، وأرسلتهم للعمل بالإكراه فى خدمة جيشها بسيناء والعراق وفلسطين والدردنيل باسم المتطوعين، وماهم بمتطوعين، وجمعت من رديف الجيش حوالى ١٢ ألفا أطلقت عليهم اسم «أنفار السلطة» وسخرتهم فى تعبيد الطرق بسيناء ورصفها بالمكدام، وإعدادها لسير المركبات والمدرعات ومد خطوط السكك الحديدية، وحفر الخنادق، والآبار، وبناء الحصون والاستحكامات إلى غير ذلك من أشق الأعمال، فمات منهم الآلاف من قسوة المعاملة وسوء التغذية، وفتك المرض، واستولت السلطة العسكرية على محاصيل البلاد من قمح وشعير وذرة وأرز وعدس.. الخ كما جمعت الخيل والبغال والجمال والحمير، واشترتها قهراً بأبخس الأثمان فعم الكساد البلاد وذاق الأهالى مرارة الجوع والحرمان.(٢)

---

(١) محمد الغزالى، فى موكب الدعوة، القاهرة، دار الكتب الحديثة، الطبعة الرابعة ١٩٦٥، ص٢٨٨.

(٢) عبد العزيز على الثائر الصامت، مرجع سابق، ص٥٠.

ولاشك أن هذه الممارسات من قبل الاحتلال الإنجليزى تحمل فى طياتها كل معانى الإذلال والاستعباد، والحقيقة أنه لا فرق عند الاستعمار بين التغيير الاجتماعى والإذلال الاجتماعى فكلا الأمرين مطلوب ويحقق له أهدافه التى يسعى إليها من السيطرة والهيمنة على الشعوب، والمستعمر لايستطيع أن يحقق إذلال واستعباد المستعمرين إلا بعد أن يفرض عليهم منهجه الاجتماعى، وبعد أن يُحدث لهم عملية «التحلل الاجتماعى» فينسلخ المستْعمَر من قيمه، ومُثله ومبادئه وعقائده شيئا فشيئا فإذا ما تحقق ذلك أولا للمستعمِر تحقق له بالتبعية كل شيء بعد ذلك من إذلال واستبعاد واستغلال للشعوب المستعمرة، لأن الإنسان إنما تحركه وتسيره مبادىء وقيم وعقائد فإذا فقد هذه الأشياء أو ضعفت لديه، فقد فَقَدَ التحكم فى نفسه، وصار يلعب به ويحركه الاخرون كيفما يشاءون وأينما يريدون وهذا ما حدث فى مصر، ومع جميع الشعوب المستعمرة.(١)

والواقع أن هذا الوضع المتردى الذى أحدثه الاحتلال لم يكن يرضى عنه الكثير من الوطنيين الأحرار وعلماء الدين، فراحوا يدافعون عن الشعب المصرى، وينبهونه إلى خطورة التأثر بمظاهر الحياة الأوروبية، ويدعونه إلى التمسك بأهداب الدين والابتعاد عن الوقوع فى حبائل الخمارات والبارات والربا وغير ذلك من العادات الرذيلة التى صاحبت التغلغل الأجنبى فى الحياة المصرية كشرب الخمر، ولعب الميسر، والتحلل الجنسى، والسفه فى الانفاق.. الخ.(٢)

أخطر الآفات الاجتماعية:

ويحدد أحد الباحثين أهم الآفات الاجتماعية التى انتشرت فى مصر مع الأوروبيين، واستشرت فى ظلال الاحتلال البريطانى واستبسلت الصحافة الإسلامية فى حربها وهى:-

١- الخمر:

لم تكن الخمر من الآفات الاجتماعية المعروفة والمنتشرة فى مصر قبل الاحتلال

(١) لمزيد من التفاصيل حول ماهية التغيير الاجتماعية وأساليبه وصلته بالتغيير السياسى أنظر: على جريشة ومحمد شريف الزيبق، أساليب الغزو الفكرى للعالم الإسلامى، القاهرة، دار الاعتصام، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩، ص٥٥-٥٦.

(٢) هذا لايعنى أنه لم يكن هناك قوى داخل مصر تحبذ صنيع الاحتلال وتدعو إليه، وتدافع عنه كالمجلات والصحف الموالية للاحتلال مثل «المقطم» «والمقتطف» انظر: سامى عزيز، الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الانجليزى، مرجع سابق ص ٢٠٣ وما بعدها.

الانجليزى لها، ولكن المصريين عرفوا الخمور وانتشرت بينهم انتشاراً بعد الاحتلال، ووفود الأجانب بأعداد كبيرة إلى مصر، ويصف الشيخ رشيد رضا فى مجلته «المنار» الحانات حينئذ فيقول: إذا تجولت فى شوارع القاهرة وأسواقها فلا يغيب عن نظرك مرأى الحانات دقيقة واحدة، حتى يخيل للجائل أن هذه الحانات تزيد على حاجة السكان ولو كانوا كلهم من السكارى، وأنها تمثل لعينى ناظرها كأنها ثكنات، عساكرها القوارير المصفوفة المرتبة. وقوادها الغيد والغادات من الطليان وسائر أصناف الإفرنج.(١)

وبذلك استبيحت الخمر بسلطة القانون وزعم المدنية فلا يعاقب شاربها ولا يصادر بائعها، ولايضرب على أيدى المدمنين الذين كثر سوادهم، وعظمت جرائمهم، وفسدت عقولهم، واعتلت جسومهم، وذهبت أموالهم، وتشرد أبناؤهم وأيمت زوجاتهم ورزئت الأمة والملة بهم، وشقيت بحياتهم الأيام والسنون فذاقت الأمة وبال أمرها لأنها لم تسمع قوله تعالى ﴿يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾(٢) فانتشرت الخمور الفتاكة بين سكان المدن، وصارت محلات المسكرات تفتح عَلَنًا فى بعض القرى بين الفلاحين، وفى الأحياء الآهلة بالعمال فى المدن برعاية الحكومة وحمايتها، وفي كنف الامتيازات الأجنبية، ففتكت بهم فتكا ذريعًا وأفسدت عليها صحتهم ودينهم وأخلاقهم ونقصت قدرتهم على العمل والانتاج. وساعدت على زيادة حوادث الإجرام والإخلال بالأمن العام.(٣)

٢- الميسر:

زاد عدد دور القمار فى عهد الاحتلال الانجليزى زيادة كبيرة، ففى ثمانى سنوات زاد إلى ٧٤٧٥ داراً للعب وكانت قبل ذلك ٣١٦ داراً فقط أى أن الزيادة بلغت ٧١٥٩ داراً فى القاهرة وحدها(٤)

---

(١) أنظر بالتفصيل، سامى الكومى، الصحافة الإسلامية، فى القرن التاسع عشر، القاهرة، دار الوفاء الطبعة الأولى، ١٩٩٢، ص٢٣٠ وما بعدها.

(٢) سورة المائدة الآية ٩٠.

(٣) عبد الرحمن الرافعى، مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال، مرجع سابق ص ١٩٥ - ١٩٦.

(٤) عبد اللطيف حمزة: مستقبل الصحافة فى مصر، ط١، ص١٤٢، ١٤٣.

ومعلوم أن الميسر فى الأصل القمار، وكل قمار ميسر محرم بالنص إلا ما أباحه الشرع من المراهنة فى السباق والرماية، والميسر مثار للعداوة والبغضاء أيضا ولكن بين المتقامرين، فإن تعداهم فإلى الشامتين والعائبين، ومن تضيع عليهم حقوقهم من الدائنين وغير الدائنين، وإن المقامر ليفرط فى حقوق الوالدين والزوج والولد حتى يوشك أن يمقته كل أحد.(١)

ولاشك أن تفشى هذا الوباء فى المجتمع المصرى حينئذ أدى إلى ضعفه وتدهوره، وقوة تحكم الاحتلال فيه. كل ذلك جعل الصحف الإسلامية تندد بهذه الرذيلة وتحذر المصريين من الوقوع فى شراكها وتكتب عن ممارسات الانجليز بأنهم «تسوروا بلادنا، ونصبوا لنا شباكا ليستنزفوا ماء الثروة، ويمتصوا عروق الحياة، ويشرح رشيد رضا الآثار المخربة للقمار والتى استشرت بانتقال عدواه من الرجال إلى النساء اللاتى يقلدنهم فى كل ما يفعلونه، فكيف بالأبناء الذين يتولدون من هذه الأصول الخبيثة؟! كيف يستطيع مثل هؤلاء النساء أن يقمن بإدارة المنزل وتربية الأبناء، وهن اللائى شببن عن الطوق، وتشبثن بأذيال من التمدن الأوربى مسحوبة على أرض قذرة تجرّ من تعلق بها عليها حتى يكون عبرة للناظرين؟!.(٢)

٣- البغاء:

وقد زاد زيادة كبيرة فى عهد الإحتلال أيضا، وكثرت المحلات المخصصة له وخاصة فى القاهرة والاسكندرية، فكنت أينما ذهبتتنجد دور الدعارة الأوروبية التي عمل الانجليز على تشجيع وجودها وانتشارها.(٣)

وبذلك صار البغاء علنيا أباحته الحكومة وأعانت عليه، ورضيت به الأمة التى تنتسب إلى الإسلام وتستتر بأثوابه، كأن الحياء لم يكن من الإيمان، ففقد الشباب الحياء والعفة وكسبت البلاد المهانة والمذلة، وظهر الفساد فى الأرض وتلطخ بقذارته وجه الفضيلة وحل عاره فى الشوارع الآمنة، والبيوتات الطاهرة، والأعراف الشريفة، وعم خطره حتى

(١) أنظر بالتفصيل، رشيد رضا، تفسير المنار، جـ٧، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٩٧٣، ص٥١-٥٣.

(٢) سامى الكومى، الصحافة الإسلامية، مرجع سابق، ص٢٣٤.

(٣) السابق نفسه، ص٢٣٥.

ما يكاد يخلو منه شارع. ولا تأمن مخازيه ناحية، وتردت في هوته السحيقة هذه الأمة المسكينة البائسة التي ضلت سبيل الهداية وسلكت طريق الغواية فاختلطت عليها السبل وتشعبت بها المناحي فغربت شمس سعادتها.(١)

وأنقل هنا ما ذكره الأديب الكبير يحيى حقى عن السلبيات التي تفشت في مجتمعنا على يد هذا المحتل الغاصب فيذكر الأديب أنه كان يعمل في بداية حياته في منفلوط إحدى مدن الصعيد واحتاجوا إلى مجموعة من النساء يزغردن عندما يمر القطار «بالملك» كالعادة، فلم يتردد مأمور المركز في أن يستدعى «مومسات» مدينة منفلوط «ولأول مرة في تاريخ هؤلاء المومسات» أصبح كلام المركز لهن رجاءً لا زجراً!! ثم يقول: في ذلك اليوم رأيت سرب المومسات يسير في الطريق إلى المحطة على وجه كل منهن ابتسامة جمعت بين فرحة الخروج للنزهة في يوم عطلة رسمية من وجع الشغل، وبين الزهو بمكانة جاءهم الإقرار بها على غير انتظار!! ويستطرد كاتبنا الكبير فيقول:

ولم تكن نقطة «المومسات» في منفلوط ذات شهرة مستفيضة، ولا أظن لها أصلا عريقا وأقدميه تاريخية مثل نقطة المومسات في «بهجورة» في الصعيد الجواني!!(٢) وعن صورة أخرى يقول: ويقودنا الحديث عن نقطة «المومسات» إلى الخمارة، وكان المفروض هو العكس، لم تخل منفلوط من خمارة تقع وسط البندر، يملكها أجنبي. كنا في أواخر عهد لايزال يُعد فيه ارتياد الخمارة فضيحة علنية.. وكانت خمارة البلد تثير في نفسي تأملات عن تطور مجتمعنا، لا أظن أن البشرية أثبتت في سجلها الطويل جيلا لايعرف نوعا من المسكرات، ولكن على كثرة ما قرأت في التاريخ قبل الإسلام لم أعثر على حملة عنيفة تحارب الخمر.. ثم جاء الإسلام فأنزل بها ضربة قاضية، إذ جعلها إثما مجلبا لسُخْط الله في الدنيا بقلة البركة والإنذار بالفقر، وفي الآخرة بنار جهنم، أجيالنا القريبة السابقة، كانت تؤمن أن الخمر أم الكبائر، إذا ذاع عن رجل أنه يشربها سقطت كرامته ورفضت شهادته وربما طلقت منه امرأته، فلا عجب أن لم يجرؤ واحد من أهل

---

(١) عبد الرحمن الساعاتي «جريدة الإخوان المسلمين» الأسبوعية، العدد (١٩) جمادى الآخر ١٣٥٢، السنة الثانية ص٢٨.

(٢) يحيى حقي، خليها على الله، القاهرة، الهيئة المصرية العامة ب، الطبعة الأولى ١٩٨٧، ص ٢٣٣.

البلد على فتح خمارة، ثم استشرت الامتيازات الأجنبية وتبعها الاحتلال البريطاني فتمشت الخمامير من العواصم إلى مدننا الصغيرة، وقرانا الكبيرة يملكها أجانب، وتجذب الناس أيضا بإعداد وجبات نظيفة وقهوة طيبة وأنس وسفور زوجة أو إبنة وانقلب صاحبها أغلب الأمر إلى مراب يعرف أسرار العائلات، يقرض بخراب البيوت، الفلاح المعثور عند الدودة أو الجمع، والأعيان غير المعثورين ليمد لهم حبل الفساد وتخرج أملاكهم من أيديهم له أو لنفر من شيعته!!(١)

ولاشك أن هذه الوقائع تعكس مدى التخريب الذى أحدثه الأجانب في البلاد، الأمر الذى يدفع كل العقلاء والغيورين على العرض والشرف والوطن أن يثوروا فى وجه الاحتلال البغيض.

٤- السفه والإسراف والربا:

ولاشك أن هذه الرذيلة موجودة فى كل الأمم، وفي كل الدول، وكانت بمصر قبل الاحتلال الانجليزى، إلا أنه بقدوم الاحتلال تفشت هذه الظاهرة وانتشرت بين أوساط المجتمع، فهاجمت الصحافة الإسلامية هذه العادات المهلكة التى ازدادت بين المصريين، إذ تكالب الجميع على المحسنات الغربية يشتريها بنفيس الذهب، وقد أماتوا بهذا الاسراف الاقتصاد والشرف، وماتت معه ثروة كثير من أصحاب الحرف.. والمالك الذى كان يعيش فى رغد صار الآن» يزرع المائة فدان، ولا تراه إلا مقترضا(٢) وبيت الصحافة الإسلامية المنهج الإسلامى الذى يعالج هذه الأمراض، وهو الاعتدال فى الانفاق، انطلاقا من قوله تعالى ﴿ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط ملوما محسورا﴾(٣) وقوله: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾.(٤)

وجاء الربا ليحكم الدائرة الشيطانية التى جعل الغرب المجتمع المصرى يدور فيها، فإن الذى يدمن الخمر والميسر وينجرف إلى البغاء وينفق فى سرف وسفه على الملذات،

(١) يحيى حقى، السابق نفسه، ص٢٤١- ٢٤٢.

(٢) سامى الكومى، الصحافة الإسلامية، المرجع السابق، ص٢٣٦.

(٣) سورة الإسراء الآية (٢٩).

(٤) سورة الفرقان، الآية (٦٧).

والمظاهر لابد أن يمد يده ليستدين «ووجد المرابون في هذا الضعف، ومن النظم والقوانين ورعاية المحاكم المختلطة ما جعلهم يتغلغلون في مختلف الأوساط في العواصم والبنادر والقرى، فكبلوا الأهالي بالديون، مما أفضى إلى ضياع ثروات الكثيرين منهم وانتشار الفقر والبؤس في الطبقات الفقيرة والمتوسطة فهذا ما كانت تسير إليه حالة المجتمع المصرى، ويتضح من خلال هذه الفترة مدى الدور الذى قامت به الصحافة الإسلامية للمحافظة على الأصالة والأخلاق الإسلامية في مواجهة هذا الطوفان العنيف القادم من الغرب في هذه الفترة من التاريخ المصرى».(١)

وموقف الصحافة الإسلامية إزاء هذه الموجات التغريبية، يعتبر موقفًا أصيلا، ينم عن يقظة مبكرة لخطر هذا العدوان الفكرى وذلك الغزو الثقافى والإذلال الاجتماعى الذى كان يقع على كاهل المواطن المصرى المسالم من قبل محتليه ومغتصبيه الذين بيتوا النية على ضرب هذه الأمة فى أعز ما تملك من قيم ومبادىء وأخلاق وعقائد.

وتمر الأيام والسنون والاحتلال على صدر المصريين يرميهم كل يوم بسمومه كما رماهم من قبل بسهامه، وكان اللورد «كرومر» المعتمد البريطانى فى مصر ١٨٨٣م إلى ١٩٠٧م رجلا متعصباً نال المصريون بسببه ومن ورائه الكثير من العنت والاضطهاد إذ إن سياسته كانت تتصف بالشدة والعنف والمكر والخداع معًا، والحدث الذى تتجسد فيه شخصية كرومر بوضوح حادثة دنشواى، فقد رأى كرومر أمام اشتداد واتساع نفوذ الحركة الوطنية ضرورة أن يسلك سبيلا إرهابياً يخضع به هذه الحركة، فانتهز إشاعة اعتداء بعض الفلاحين على بعض الضباط البريطانيين فى دنشواى من قرى المنوفية، ورأى أن الوقت قد حان لينفذ ما عزم عليه من شنق الفلاحين الأبرياء وسجن عدد آخر.(٢)

فهذه الحادثة مثال فقط لسياسة العنف والقسوة للاحتلال والتى تتمثل فى شخص كرومر وأذكر مثالا يبين الجانب الآخر من شخصية كرومر، وهو جانب المكر والخداع، وذلك عندماقام باختيار سعد زغلول وزيراً للمعارف فى أعقاب حادثة دنشواى وذلك

---

(١) سامى الكومى، الصحافة الإسلامية، مرجع سابق، ص٢٣٨

(٢) زكريا سليمان بيومى، الحزب الوطنى ودوره فى السياسة المصرية ١٩٠٧- ١٩٥٣، الفاروقية عة والنشر القاهرة ١٩٨١، ط١، ص٣٦ مع الأخذ فى الاعتبار أن اعتداء الفلاحين فيه نظر.

للتغلب على المشاكل الثلاث الرئيسية التى تواجهه فى مصر وهى «الحزب الوطنى» والجرائد الوطنية والجامعة الإسلامية، ولامتصاص غضب الجماهير بسبب أفعاله الشنيعة وجرائمه[1] وكان الاحتلال يمارس هذه الأعمال الوحشية ضد الفلاحين الذين لا حول لهم ولا طول إذ أن الريف المصرى وقتئذ متخلف، وكان الفلاح فيه كمًا مهملاً، فلم تكن القرية حينئذ تحظى بشىء اطلاقا مما تتميز به المدينة من بعض الاصلاحات والمشروعات العمرانية والثقافية والاجتماعية والصحية على قلتها، ولاشك أن مرد تلك الصورة المحزنة والمخزية. فضلا عن التخلف العام فى الريف والمدن للسياسة الجائرة التى انتهجها المحتل، وساعده فيها عملاؤه منذ أن وطئت أقدامه المدنسة أرض الوطن الطاهرة.[2]

ويأتى عام ١٩١٤، عام الحرب العالمية الأولى، وتدخل انجلترا الحرب، ويعيش الشعب المصرى حالة من القلق والاضطراب بسبب الحرب، وانجلترا تبكى وتستبكى على الحرية المسلوبة والإنسانية المعذبة والحرمات المنتهكة والعهود المنقوضة، وترمى الألمان بالوحشية وتنادى بوجوب صد اعتدائهم، وتغرر انجلترا بهذه الأغنية المعسولة بالشعوب المستضعفة فى الشرق وأعطتهم الوعود والعهود بالاعتراف بالاستقلال فتأمن بذلك جانبها، بل [illegible] مساعدتها وجذبتها إليها تحارب فى صفها ضد الأتراك والألمان.

ولكن الذى حدث أن حكمت انجلترا البلاد طول مدة الحرب بالحديد والنار فلا سلطان إلا سلطانها العسكرى، ولا قانون إلا الأحكام العرفية، فألجمت الأفواه وحطمت الأقلام، وصادرت الصحف، وأغلقت الأندية، ونفت واعتقلت رجالا ممن تخشى بأسهم، وبثت جواسيسها فى كل ناحية، وفرضت رقابتها على كل شىء، ووضعت يدها على كل مرافق القطر وحولته إلى ميدان قتال، واستولت على كل ما يملك الفلاح من مال وغلال، وجمعت ثروة الوطن جميعا ورصدتها لجيوشها فى ميدان القتال، وما إن انتهت الحرب وانتصرت فيها انجلترا، فعادت إلى طبيعتها، وتناست وعودها المعسولة،

(١) زكريا سليمان بيومى المرجع السابق ص١٥٤.
(٢) عبد العزيز على الثائر الصامت، مرجع سابق، ص٥٣ . ٥٤.

وتجاهلت تلك الحريات المسلوبة والإنسانية المعذبة التى ملأت الدنيا صُراخا من أجلها، وأنها ما دخلت الحرب إلا للدفاع عنها وصيانتها.(١)

وهكذا تمارس انجلترا هوايتها فى خداع الشعب المصرى، فتنتهى الحرب ١٩١٨م وتنتهى معها وعود وعهود انجلترا لمصر بالاستقلال، ويشعر المصريون بخيبة الأمل، ويثور الشعب ثورته فى ١٩١٩م لأسباب عديدة سياسية واقتصادية واجتماعية وإن غلب عليها الطابع السياسى كما يؤكد ذلك المؤرخ المصرى عبد الرحمن الرافعى،(٢) ولاشك أن الثورة كان لها أثرها الواضح فى الناحية الاجتماعية إذ أنها حركت الشعب من حالة الركون والخمود التى كانت قد حلت به خاصة بين الشباب والعمال، فأقبل الشباب على الرياضة وتأليف الأندية والجماعات وفرق الكشافة، وأقبل العمال على تأسيس لنقاباتوالجمعيات(٣).

فئات المجتمع المصرى:

ولقد بلغ تعداد مصر السكانى عام ١٩١٩، اثنى عشر مليونا، وهو عدد يزيد على ضعف العدد الذى كانت عليه فى بدء الاحتلال البريطانى(٤)، وكان لثورة ١٩١٩ أثر واضح على الواقع الاجتماعى المصرى، إذ أسهمت الثورة فى تطور النهضة الاجتماعية، فأخذت عناصر المجتمع، تحت تأثيرها، تسلك مرحلة جديدة من مراحل العمل والنهوض، وكان للثورة أيضا أثر ملموس فى النهضة التعاونية والعمالية، بعد أن ركدت الحركة التعاونية خلال الحرب العالمية الأولى، ولكنها بعثت بعثا جديداً فى أعقاب ثورة ١٩١٩، فازدادت جمعياتها، واتجهت أفكار المتعاونين وعزائمهم إلى استئناف نشاطهم، وكذلك نشطت الحركة العمالية خلال الثورة وفى أعقابها، فازداد شعور

---

(١) عبد العزيز على، السابق نفسه، ص٢٨٣، ٢٨٤.

(٢) أنظر بالتفصيل عبد الرحمن الرافعى، ثورة ١٩١٩، دار الشعب، القاهرة، ١٩٦٨، ص٤٠ وما بعدها.

(٣) عبد الرحمن الرافعى، المرجع السابق، ص٦٤.

(٤) جاك بيرك، مصر الإمبريالية والثورة. ترجمة يونس شاهين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، صـ ٢٦.

العمال بالتضامن لتحسين حالتهم، والمطالبة بحقوقهم، وترقية شئونهم، ومن هنا، فإن روح الثورة قد طافت بالمجتمع على اختلاف طبقاته وبيئاته واستثارت فيها عوامل الوعى والتقدم(١).

وكان المجتمع المصرى حينئذ يتكون من فئات ثلاث: **الفئة لأولى**: فئة الفلاحين والعمال الزراعيين وعمال الورش وما إليها، وهؤلاء يمثلون السواد الأعظم من الشعب، وكان منهم نسبة ٧٠٪ لا يملكون إلا ١٣٪ من الأرض الزراعية، ومتوسط ما يملكه الفرد منهم خمسة قراريط، منهم مليون عامل متجول لا يملك شيئا، وكان هؤلاء يعانون من البؤس والأمراض والجهل والاستغلال، مما يدل على فساد النظام الاجتماعى الذى كان قائما. وكذلك بروز الطبقية، وانعدام العدالة الاجتماعية(٢).

الفئة الثانية: كبار الملاك الزراعيين، وأصحاب العقارات فى المدن، ففى الفترة من ١٩١٩ حتى ١٩٥٢، كان ٪ من إجمالى الملاك يملكون ما بين ٣٣,٩٪، و٣٥,٢٪ من الأرض الزراعية، عملوا فيها على زيادة ثروتهم بشتى الطرق، وكانت هذه الملكيات الكبيرة أساس سلطتهم السياسية، وكان كل القادة الحزبيين والسياسيين عموما ينتمون إلى هذه الفئة، التى تمتعت بأشياء كثيرة. أما **الفئة الثالثة**: فهى فئة الموظفين من المهنين والمثقفين والطلاب(٣).

وإذا قلنا بأن النهضة الاجتماعية فى مصر قبل الحرب العالمية الأولى كانت من أسباب الثورة فى ١٩١٩، فإن الثورة ذاتها كان لها أثرها فى تطور هذه النهضة، وازدياد عناصر النشاط فيها، إذ أخذت طبقات المجتمع تحت تأثير الثورة تسلك مرحلة جديدة من مراحل العمل والنهوض، وأول ظاهرة لهذا التطور ذيوع الروح الرياضية فى الشباب وغير الشباب، وكانت من قبل محصورة فى أضيق دائرة، فبدأ الشباب يؤلفون الجماعات والنوادى الرياضية، وتألفت فرق الكشافة المصرية فى المدن والأقاليم(٤).

---

(١) عبد الرحمن الرافعى، ثورة ١٩١٩، مرجع سابق، صـ ١٦٩.

(٢) عبد الرحمن الرافعى، فى أعقاب الثورة المصرية، جـ ١، مرجع سابق، صـ ٣٢٤، ٣٢٥.

(٣) رول ماير، الدراسات التاريخية المصرية المعاصرة عن الفترة ١٩٣٦، ١٩٥٢، ترجمة أحمد صادق سعد، دار شهدى للنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، صـ ٢٧، ٢٩.

(٤) عبد الرحمن الرافعى، ثورة ١٩١٩، مرجع سابق، صـ ١٦٨.

ومن مظاهر التقدم الاجتماعى مساهمة المرأة المصرية فى الثورة، واشتراكهن بأقلامهن وأفكارهن فى إذكاء الروح الوطنية، وحثهن الرجال على التضحية وتأليفهن المظاهرات والجمعيات واللجان للتعبير عن شعورهن الوطنى، والمساهمة فى تدعيم النهضة الوطنية، وقد استهدفن أحيانا للعنت والمشقة فى سبيل اشتراكهن فى ا ٠ ح[1].

فروح الثورة قد طافت بالمجتمع، على اختلاف طبقاته وبيئاته، واستثارت فيها عوامل الوعى والتقدم، بما أشاعت فى النفوس كافة، من التطلع إلى المثل العليا وتحقيق ما يجيش بها، من أمان وآمال، وظهرت هذه الروح أكثر ما ظهرت فى الطبقات الشعبية، ولا غرو فهى التى احتملت أكبر قسط من أعباء الثورة وتضحياتها، فكان من حقها أن تساهم فى الحياة العامة بأكثر مما كان لها من قبل[2].

ولكن ظل الاحتلال الإنجليزى رابضًا على أرض مصر، وظلت حركة الشعب المصرى مقيدة بقيوده، إذ لم تحقق الثورة أهدافها الحقيقية، وهى الجلاء والاستقلال، ويظهر حزب الوفد بعد انتهاء الثورة، وتبدأ سلسلة أو مرحلة جديدة من الجهاد والمطالبة بالاستقلال والدفاع عن حقوق الإنسان المصرى، هذه المرحلة تصطبغ بصبغة الوطنية فقط، لا الوطنية الإسلامية التى كان يتبناها الحزب الوطنى، وبذلك يغيب البعد الإسلامى فى الحركة الوطنية التى يتزعمها حزب الوفد، والتى تظهر آثارها فى العديد من القضايا الاجتماعية التى مرت بها الأمة سواء كانت هذه القضايا خاصة بالمرأة أم العمال أم الفلاحين أو غير ذلك من الفئات التى يضمها المجتمع وأكتفى هنا بالتركيز على قضية تحرير المرأة كمثال ونموذج لنقف على قسماتها وظروفها فى ظل الوضع القائم فى البلاد أنذاك، ولم للمرأة من مكانة ودور فى المجتمعات وتطورها أو عكس ذلك.

---

(١) السابق نفسه، صـ ٦٥، ولمزيد من التفاصيل حول دور المرأة فى المشاركة الاجتماعية، والمؤسسات التى أسستها للعمل الاجتماعى أنظر: لطيفة محمد سالم، المرأة المصرية والتغيير الاجتماعى ١٩١٩، ١٩٤٥، *الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى*، ١٩٨٤، صـ ٥١ وما بعدها.

(٢) عبد الرحمن الرافعى، ثورة ١٩١٩، مرجع سابق، صـ ١٦٩.

قضية تحرير المرأة:

لاشك أن قضية تحرير المرأة كانت فى نهاية القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين هى المحور الأساسى للناحية الاجتماعية فى الحياة الإسلامية عامة والمصرية بصفة خاصة، وكذلك احتلت هذه القضية مساحة كبيرة فى الصحافة الإسلامية وغيرها من أجل هذا نفرد لقضية الدعوة إلى تحرير المرأة، هذه الصفحات لنقف على جذورها ومعالمها وقسماتها وخطواتها ومراحلها وماهيتها، والنهاية التى انتهت إليها. ومن الحق أن نعترف بأن المسلمين فى العصور الأخيرة فتكت بهم أمية طامسة، وكانت بالنساء أفتك، وغابت عنهم هدايات الله فى تفتيق الألباب، وتنمية الفضائل، وكانت عن النساء أبعد واختفت "ـ" الإنسان وراء تزاويق ومراسم مفتعلة، وكان نصيب النساء بعد هذا الاختفاء أن أمسين أجساداً تُلف بالثياب وتربى وراء الأبواب، فلا علم ولا عمل، ولا رأى ولانصح، ولا عبادة ولاجهاد!(١)

ولكن الأمر بدأ يتغير شيئا فشيئا، فالبعثات التى أوفدها «محمد على» إلى أوربا، واطلعت على نظامها وعاداتها أعجبت بالكثير منها، وكان من بين ما نقل وحاز إعجاب البعض تعليم المرأة واشتراكها فى خدمة المجتمع، وتحررها من القيود المفروضة عليها التى كان يمثلها «نظام الحريم التركى»، وكذلك تأثر بعض المفكرين فى مصر بما قرءوا عن نظام الغرب، وعاداته ووضع المرأة فيه، كما ظهرت كتابات تنقد المجتمع المصرى، وتعيب عليه حجاب المرأة، فهب هؤلاء المفكرون ينادون بتحرير المرأة، ويدفعون الشبه عن الحجاب أو يطالبون بالغائه.(٢)

وكان رفاعة رافع الطهطاوى أول من نادى بالاهتمام بالمرأة وتحريرها وذلك فى كتابه «المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين» ولايخرج كتاب الطهطاوى عن كونه محاولة للعودة إلى المنبع والأصل وهو الإسلام الذى أعطى المرأة حقوقها كاملة وأنزلها منزلة عالية، ونثبت ذلك هنا فى شأن الطهطاوى لأن مسألة تحرير المرأة فى مصر فى القرن التاسع عشر كان لها معنيان مختلفان اتخذ كل معنى منهما فريق من فريقين:

(١) أنظر بالتفصيل: محمد الغزالى، سر تأخر العرب والمسلمين، دار الصحوة، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٥، ص٢١-٢٥.

(٢) عطية صقر، موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، جـ٢ الحجاب بين التشريع والاجتماع، الدار المصرية للكتاب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٠ ص ٢٥١.

المعنى الأول: هو تقليد المرأة المصرية للمرأة الأوربية فى فكرها وسلوكها الاجتماعى، وزيها وما تتمتع به من حقوق نابعة من التقاليد الغربية، وكذلك ما تتمتع به من حرية شخصية قد تصل إلى حد المغالاة.

المعنى الثاني: هو النهوض بالمرأة المصرية لتأخذ دورها الإيجابى فى المجتمع فى إطار الشريعة الإسلامية وذلك بتعليمها وتهذيبها وتثقيفها، ومنحها مالها من حقوق وقيامها بما عليها من واجبات.(١)

ولاشك أن الطهطاوي ومحمد عبده وقاسم أمين ومن سار على دربهم كانوا يطالبون بتحرير المرأة باسم الإسلام لا أن يحرروها من الإسلام ويجعلوها تسير على نمط المرأة الغربية التى تحللت من الكثير من القيم والمبادىء التى تعد من صلب ديننا الإسلامى، وإذا كان الاتجاه الإسلامى المطالب بتحرير المرأة بدأ من الطهطاوى، فإن الاتجاه التغريبى لتحرير المرأة ظهر على يد محام مصرى يدعى مرقص فهمى عام ١٨٨٤ وذلك فى كتابه «المرأة فى الشرق» حدد فيه خطة الاستعمار فى المطالبة بتحقيق الأغراض التالية:

١- القضاء على الحجاب الإسلامى.

٢- إباحة الاختلاط للمرأة المسلمة بالأجانب عنها .

٣- تقييد الطلاق ووجوب وقوعه أمام القاضى.

٤- منع الزواج بأكثر من واحدة.

٥- إباحة الزواج بين المسلمات وغير المسلمين.(٢)

---

(١) سامى الكومى، الصحافة الإسلامية فى مصر، مرجع سابق، ص٢٣٩.

(٢) راجع بالتفصيل، محمود محمد الجوهرى ومحمد عبد الحكيم خيال، الأخوات المسلمات وبناء الأسرة القرآنية، دار الدعوة ، الطبعة الأولى، الإسكندرية، ١٩٨٠، ص٢٤٥ وأيضا سامى الكومى: المرجع السابق، الذى يؤكد أن الاتجاه التغريبى لتحرير المرأة بدأت بوادره مع الحملة الفرنسية، وظهر فى عصر اسماعيل الذى أراد أن يجعل مصر قطعة من أوربا ومع كثرة عدد العائدين من البعثات فى عصره، وكثرة عدد الأجانب فى مصر ووجد هذا الاتجاه قوة تفرضه على الواقع المصرى بالاحتلال الانجليزى لمصر صـ ٢٣٩.

الصحا`` وتحرير المرأة:

ويظهر عدد من الصحف الموالية للاحتلال الانجليزى والتى تنادى بتحرير المرأة على الطريقة التغريبية، وتتصدر مجلة «الراوى»(١) الصحف الداعية للعناية بالمرأة إذ بدأ كاتبها سلسلة من المقالات عن الحب لدى المرأة «فإذا كانت خالية من العمل فارغة الفؤاد من حب زوج يكون كبحًا لجماح شهواتها فلا تأ من غائلة هواجسها». ويعلق الدكتور سامى عزيز على ذلك بقوله: ويبدو على ا تب التأثر بالآراء الغربية، فإن مناداته بذلك فى المجتمع المصرى العربى فى مثل هذه الآونة -التى كان «الحجاب» سائدًا فيها- تعد نغما نشازًا بالنسبة لمجموع الشعب وطفرة ضخمة من الصعب القيام بها.(٢)

ويبدو أن الصحف التى كان يصدرها الرجال لم تكن فى نظر أصحاب الاتجاه التغريبى لتحرير المرأة، كافية للقيام بالدور المطلوب على نحو ما فعلت «الراوى» و «المقطم» و«النيل»، وغير ذلك من الصحف الموالية للاحتلال، الأمر الذى جعل من فتاة لبنانية تصدر أول مجلة نسائية فى مصر وهى مجلة «الفتاة» لهند نوفل وذلك فى عام ١٨٩٢م، ومن قراءة افتتاحية العدد الأول من المجلة يتضح أن هندًا أرادت أن تصنع ما تصنعه غيرها من نساء أوربا حتى تتقدم الحياة النسائية فى مصر وتتشابه مع زميلتها فى الغرب.(٣)

ويتأكد اتجاه المجلة أيضا من العدد الأول عندما تفرد عدة صفحات بعد الافتتاحية مباشرة للإشادة «بجلالة فكتوريا ملكة انجلترا المعظمة، وهى ملكة المملكة المتحدة فى بريطانيا العظمى وأيرلندا، ومن مهاجريها وملحقاتها فى أوربا وآسيا، وحامية الدين والإيمان وامبراطورية الهند» وكذلك باتخاذها من مظاهر الحياة الانجليزية مصدرًا للاقتباس والاستشهاد والمحاكاة.(٤)

---

(١) مجلة الراوى ظهرت فى أول مايو ١٨٨٨.

(٢) أنظر بالتفصيل سامى عزيز، الصحافة المصرية، مرجع سابق، ص٢٩٦ وما بعدها.

(٣) أنظر بالتفصيل: إجلال خليفة، الحركة النسائية الحديثة، المطبعة العربية الحديثة، الطبعة الأولى ١٩٧٣، القاهرة، ص٣٦.

(٤) سامى عزيز، الصحافة المصرية، مرجع سابق، ص٢٩٨ وما بعدها.

وهكذا نرى أن أول مجلة نسائية فى مصر بل فى الشرق، تولد ولادة غربية وتتجه اتجاها تغريبيا، وتظهر لتؤدى ما عليها من دور نحو تحرير المرأة من الموروث إلى الوافد حتى وإن كان من هذا الموروث قيم وأخلاق ومبادىء هى من صميم الدين الإسلامى، وحتى وإن كان هذا الوافد أعرافاً وأخلاقاً تبعد عن ديننا و ـ تنا بل وتتصادم معهم.

ولم تتوقف الصحف النسائية ذات الصبغة التغريبية عن الظهور ـ رت بعد مجلة الفتاة، مجلة «أنيس الجليس» لصاحبتها ورئيسة تحريرها «الكسندرة أفرينو» فقد قامت بترجمة الكثير من التقاليد والعادات الحديثة الأوربية عن اللغات الأجنبية، وطلبت من المرأة اكتسابها وقد ظهرت المجلة من ١٨٩٨ حتى ١٩٠٨م.(١)

ثم توالت بعد ذلك أيضا العديد من المجلات النسائية التى تنحو فى توجهها منحى تغريبيا حتى قامت الحرب العالمية الأولى، وكانت فرصة سانحة لاخفات صوت الإسلام وتشريد دعاته فاعتقلت السلطات الانجليزية رجال الحزب الوطنى، وأوعزت إلى بعض أتباعها بإصدار مجلسة «السفور»(٢) التى أخذت على عاتقها الدعوة ضد الحجاب.(٣)

وإزاء تصاعد الدور التغريبى لتحرير المرأة، وذلك عن طريق الصحف التى يصدرها الرجال أو الصحف النسائية التى صدرت بإيعاز من قوى الاحتلال، لم يقف أنصار الاتجاه الإسلامى لتحرير المرأة مكتوفى الأيدى بل راح قاسم أمين يكتب مفنداً تلك الشبهات التى تثار حول المرأة المسلمة، فكتب كتاب «المصريون» يرد فيه على «دوق دراكور» الكاتب الفرنسى الذى تهجم على المصريين وحاول الطعن على الإسلام والمسلمين.(٤)

---

(١) إجلال خليفة، الحركة النسائية الحديثة، مرجع سابق، ص٤٢.

(٢) أصدرها عبد الحميد حمدى أسبوعية عام ١٩١٥م يدعو فيها إلى التخلص من الحجاب، ومن كافة مظاهره.

(٣) راجع بالتفصيل مسلسل المؤامرة علي الأسرة المسلمة فى مصر: سعد الدين السيد صالح، إحذروا الأساليب الحديثة فى مواجهة الإسلام، دار الأرقم، الطبعة الأولى، ١٩٨٩، الزقازيق، ص٢٣٢ وما بعدها.

(٤) محمد عمارة، قاسم أمين وتحرير المرأة، دار الهلال، القاهرة، ١٩٨٠، ص١٣٥.

وكذلك فعل محمد عبده وتلاميذه مثل عبد العزيز جاويش والسيد رشيد رضا وغيرهم، ولكن الذى أعطى هذه القضية أ ـ خاصة هو قاسم أمين وهو أحد تلامذة الإمام محمد عبده، فكتب عدة مقالات عن تحرير المرأة نشرها بصحيفة «المؤيد» للشيخ على يوسف ثم جمع هذه المقالات ونشرها فى كتاب أسماه «تحرير المرأة» وذلك عام ١٨٩٩، ولكن هذا ا ب هاجمه جمع كبير من ا ب والعلماء، فكتب قاسم أمين كتابه الثانى «المرأة الجديدة» وذلك عام ١٩٠٠م رد فيه على الذين هاجموه، والحقيقة أن ظهور الكتابين أثار ضجة شديدة فى ذلك الوقت وظلا موضع أخذ ورد فى الصحف طوال قرن تقريبا.(١)

ومهما يكن من أمر، فإن موقف ورأى قاسم أمين من تحرير المرأة لم يكن خروجا بحال عن الإسلام بل إن الرجل أعلن ذلك فى كتابه الأول إذ يقول: ربما يتوهم ناظر أننى أرى الآن رفع الحجاب بالمرة، ولكن الحقيقة غير ذلك، فإننى لا أزال أدافع عن الحجاب واعتبره أصلا من أصول الأدب الذى يلزم التمسك به، غير أنى أطلب أن يكون منطبقا على ما جاء فى الشريعة الإسلامية.(٢)

والمعروف أن أصل القضية ومحل النزاع بين قاسم أمين ومخالفية كان يتعلق بالدرجة الأولى فى كشف الوجه، إذ إن الوضع الذى كان سائداً وقتئذ، هو أن تغطى المرأة وجهها، وهذا خلاف قديم بين العلماء فمنهم من يرى أن تغطية الوجه هو الأصل والآخرون يرون أن كشف الوجه هو الأصل وبين المدرستين آراء واجتهادات(٣)، والذى حدث أن قاسم أمين اختار الرأى الثانى وهو القول بكشف وجه المرأة، وإن كان هذا الرأى له سنده وأصله الشرعى إلا أنه لم يكن هو المعمول به فى هذه المرحلة، فكانت المرأة إذا خرجت تخرج وهى «منتقبة» وكان هذا الوضع من اللباس تسير عليه الطبقة

(١) أنظر بالتفصيل، عرض كامل لكتابى تحرير المرأة والمرأة الجديدة والحملة التى أثيرت ضدهما فى: محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، حـ١، مرجع سابق، ص٢٧٣-٢٩١.

(٢) راجع: قاسم أمين، تحرير المرأة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣، ص٦٠ ومابعدها.

(٣) راجع بالتفصيل آراء العلماء حول حكم كشف الوجه للمرأة والأدلة الشرعية لكل فريق فى: أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصارى، القرطبى، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، دار الشعب، حـ٥١، ص٤٦١٤-٤٦٣١، وأيضا حـ٥٨، ص٥٣٢٢ - ٥٣٢٦.

المتوسطة من الأمة المصرية، وهي تمثل الأغلبية المطلقة، فكان اختيار قاسم أمين في هذا التوقيت والإعلان به، يمثل خروجًا على ما اجتمعت عليه الأمة، فظهر وكأنه يدعو إلى حكم جديد أو على أنه أتى في الدين ما ليس منه، والحقيقة أن الأمة كانت معذورة، إذًا، فقاسم أمين بآرائه الجديدة لم يكن خارجًا على الدين، وإنما كان خارجا على أعراف المجتمع، وما استقر عليه الرأى في القول والعمل في مسألة لباس المرأة، الأمر الذى جعل الكثير يتهمونه باتهامات عديدة، ولكن الباحث يرى أن قاسم أمين لم يأت في آرائه بجديد عن الإسلام، بل إن ما ذهب إليه، هو مذهب الكثير من علماء الأمة في القديم والحديث، وقد سبقه بهذه الآراء من المحدثين الطهطاوى والأفغانى والإمام محمد عبده بل إن البعض من الباحثين يرجع كتابة المسائل الشرعية التى وردت فى كتاب «تحرير المرأة» إلى الإمام محمد عبده.(١)

والحق يقال، إن قاسم أمين لما كتب ما كتب لم يكن يتصور أن الأمر سينتهى إلي ما انتهى إليه، فتخرج المرأة على أخلاق الإسلام وآدابه فى اللباس والعادات والأعراف، وغير ذلك فقد أخذت الأمور تتطور تطوراً سريعًا حتى أصبحت دعوة قاسم أمين وقد استنفدت فى وقت وجيز كل أغراضها، واندفع الناس إلى ما وراءها فى سرعة غير منتظرة، فقد خلعت المرأة النقاب، ثم استبدلت المعطف الأسود بالحبرة، ثم لم تلبث أن نبذت المعطف وخرجت بالثياب الملونة، ثم أخذ المقص يتحيف هذه الثياب فى الذيول وفى الأكمام وفى الجيوب، ولم يزل يجور عليها فضيقها على صاحبتها حتى أ . - كبعض جلدها، ثم إنها تجاوزت ذلك كله إلى الظهور على شواطىء البحر فى المصايف بما لا يكاد يستر شيئا.(٢)

التيار التغريبى وتحرير المرأة:

وهكذا فلم تثمر دعوة قاسم أمين ثمارها المرجوة، ولكن الذى حدث أن دعاة الاتجاه التغريبى لتحرير المرأة تلقفوا دعوة قاسم أمين واستندو إليها فى دعوتهم، فانحرفوا بها عن وجهتها، ساعدهم على ذلك الاحتلال البغيض الذى كان له اليد الطولى فى تقوية شوكة هذا التيار التغريبى، وبدلا من أن يستفيد أصحاب الاتجاه الإسلامى فى تحرير

(١) راجع بالتفصيل سامى الكومى، الصحافة الإسلامية، مرجع سابق، ص ٢٥٨، ٢٦٠.
(٢) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، جـ٢، مرجع سابق ص٢٣٧.

المرأة من دعوة قاسم أمين، انقسموا على أنفسهم واختلفوا فيما بينهم ما بين مؤيد ومعارض لهذه الدعوة، وكان من نتيجة هذا الخلاف وذلك الانقسام أن خسروا الجولة، وضاعت جهودهم وخفت صوتهم، وعلا صوت المتغربين حتى جاءت ثورة ١٩١٩، وخرجت المرأة فى المظاهرات تندد بالاحتلال وتطالب بالاستقلال، واستشهدت بعض النساء خلال المظاهرات، ومن الثابت أن المرأة عندما شاركت في المظاهرات كانت محجبة، ترتدى البرقع ولاتختلط بالرجال(١).

ولكن هذه الصورة التى ظهرت بها المرأة فى المسيرات والمظاهرات إبان ثورة ١٩١٩ لم تستمر طويلا، فقد تم تغيير مسيرة المرأة عن الوجهة والراية التى كان يرفعها من قبل مصطفى كامل ومحمد فريد ورجال الحزب الوطنى حتى قبيل ١٩١٩م، ولا غرابة فى ذلك، لأن الأمر كان على ما أبانه أنور الجندى إذ يقول: «ولما كان النفوذ الاستعمارى يريد تثبيت إقامته وتركيز دعائمه فقد عجز عن التفاهم مع هؤلاء المؤمنين الصادقين بربهم ودينهم وأوطانهم وقاومهم شر مقاومة وعمل على تحطيمهم وتدميرهم، إما بالسجن أو النفى أو الإبادة وأخذ فى نفس الوقت فى بناء زعامات جديدة داخل نطاق دائرة نفوذه، زعامات تؤمن به وت[illegible] له، وتلتقى به في منتصف الطريق وتتحرك فى إطار مفاهيمه أساساً، ولا بأس أن تختلف معه خلافا ظاهراً، مادامت هذه الزعامات تؤمن بوجوده وتتعامل معه، وتقبل سلطانه وتقر بتنفيذ قانونه الوضعى ونظامه السياسى وتخضع لمندوبيه، وتنفذ نصائحه باعتبارها أوامر. هذه النبتة المسمومة التى صنعها النفوذ الاستعمارى فى أرض الإسلام، إنما كان يعدها لتحكم هذه الأقطار طويلا، ولذلك فقد اختارها بعناية ورباها ومنحها القدرة على أن تكسب إعجاب الجماهير بالخلاف الفرعى معه، ولكنها كانت فى مجموعها من صنع يده، وصاحبه ولاء أكيد له.(٢)

ولكن الذى حدث بعد انتهاء الثورة وعودة سعد زغلول من منفاه، وقد أقيم له حفل بعد عودته حيث بدأ خطابه فيه بقوله: سادتى، وأرجو أن أبدأ خطابى فى حفل قريب بقول: سيداتى، فلما كان الاجتماع الثانى حضر بعض النسوة محجبات، فامتدت يده

(١) محمد فهمى عبد الوهاب، الحركات النسائية فى الشرق، وصلتها بالاستعمار والصهيونية العالمية، دار الاعتصام، القاهرة ١٩٧٩، ص٢٢.
(٢) أنور الجندى، عقبات فى طريق النهضة، مرجع سابق، ص ٦٠، ٦١.

إلى نقاب امرأة قريبة منه في سرادق النساء ونزعه عن وجهها وأبى أن يخطب إلا إذ سفرن جميعًا.(١)

ولاشك أن الخطوة التى خطاها سعد زغلول لم تقف عند حد السفور الذى طالب به النسوة، ولكن الأحداث والأحوال أخذت تتطور تطورًا سريعا على نحو ما بينت فى الأسطر الماضية، وبدأ النساء يشكلن اللجان ويعقدن المؤتمرات ويشاركن فى الأعمال السياسية، فتألفت لجنة للسيدات الوفديات، شاركت مشاركة فعالة فى حركة المقاطعة الاقتصادية ١٩٢٢، وقفزت زعيمة النساء صفية زغلول بالمرأة إلى وضع لم يكن يحلم به قاسم أمين أن تبلغه في هذه المدة الوجيزة.(٢)

وهكذا انحرف أنصار الاتجاه التغريبى بقضية المرأة. عن الاتجاه والهدف الذى أعلنوه من البداية، وهو أن تتعلم المرأة وأن تسفر عن وجهها، وأن تنال حقوقها، إلى غير ذلك مما ظلوا يرددونه طويلا، ولكن ما إن أفلت الزمام، وخلعت المرأج الحجاب، فكانت هذه هى الخطوة الأولى نحو تغريب المرأة وإخراجها عن قيمها وأخلاقها ومبادئها فبدلاً من أن تتعلم المرأة فقط، نراها تعلمت وتتحررت وتبذلت، حتى وصل حال المرأة العربية إلى حد لا يمكن أنه جال فى خاطر من طالبوا فى بدايات القرن العشرين بتحررها من العادات والتقاليد المنفافية للإسلام والإنسانية، ونادوا بتعليمها وتثقيفها وتهذيبها، حقاً، ما أسرع الهدم !! وما أسهل التدمير!!(٣)

ولقد ظلت قضية تحرير المرأة تراقبها أعين المحافظين والفيورين على الدين والوطن بل وترعاها وتساندها وتدعو إليها فى إطار الإسلام وشريعته، حتى جاءت ثورة ١٩١٩ وخفت صوت التيار الرسلامي الوطني، وتسلم قيادة الثورة من يعلن ولاءه للوطنية، ويرفع راية العلمانية، ويحجم دور الدين فى الحياة، فعلا حينئذ صوت التيار التغريبى فى تحرير المرأة، والذى كان يتزعمه من النساء ... زغلول حرم سعد زغلول وهدى

(١) راجع بالتفصيل: عطية صقر، موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، جـ٢، مرجع سابق ص ٢٥٤، ٢٤٥.

(٢) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، جـ٢، مرجع سابق، ص٢٣٩-٢٤٠.

(٣) راجع بالتفصيل أنور الجندى، *المرأة المسلمة فى وجه التحديات*، دار الاعتصام، القاهرة ١٩٧٩، صـ ٣-٨.

شعراوى، وتساندهم الصحافة التغريبية الموالية للاحتلال، ولم تستطع صيحات المحافظين أن --- فى وجه ذلك التيار الجارف، بل لم تستطع أن تقلل من حدته أو ---- من سرعته، لأن المسألة لم تكن منحصرة فى السفور، ولا هى مجرد أن تعطى المرأة المسلمة حريتها في الذهاب والمجئ كيفما تشاء، بل هى سلسلة طويلة متصلة حلقاتها، بعضها ببعض أولها السفور وآخرها التدمير(١)

وفى عام ١٩٢٣ م بدأت حركة تحرير المرأة خطوة جديدة نحو تأكيد هويتها و... أقدامها، إذ تم إنشاء الاتحاد النسائي المصرى برياسة هدى شعراوى، واستجابت المرأة لدعوة حضور المؤتمر النسائى فى روما، وسافر وفد نسائى ترأسه هدى شعراوى ورجع النساء من المؤتمر رافعات الحجاب، ومنذ ذلك التاريخ أخذت -- تحرير المرأة تأخذ شكلا أكثر سرعة وتطوراً، ومما شجعها على ذلك الدعايات الأجنبية الكاذبة، ورمى المرأة المصرية بخاصة والشرقية بعامة بالجمود ، ولصق أسباب تأخرها بالإسلام، وكانت هذه الدعايات مرتبة ومقصودة من الهيئات والجماعات التى تخدم الاستعمار فى مصر وفى خارج مصر، لأن الانحلال الأخلاقى من أهم الدعائم التى يثبت عليها الاستعمار بناءه(٢)

ولقد غفلت أعين المحافظين عن هذه الخطوات الجريئة للمرأة نحو التبرج والسفور، والتى أ- - الثورة عليها لونا من النبل تحفظها من أن تهاجم أو تمس، بل أضفت عليها لونا من ألوان البطولة الزائفة، فتخفى ما وراءها من أعمال ومواقف هى تدمير وتخريب وهدم _ ن المرأة المسلمة، وإلا فما تفسير أن تخلع المتظاهرات الحجاب ويلقين به على الأرض ويسكبن عليه البترول ويشعلن فيه النار؟(٣)

ولكن هذا هو الذى حدث، ووقف أنصار الاتجاه التغريبى لتحرير المرأة يذكون هذه الخطوات ويباركونها ويدافعون عنها، وكان لتحول تركيا عن الإسلام إلى العلمانية، وإلغائها الخلافة الإسلامية أثره البالغ فى تطور قضية المرأة، إذ حرم أتاتورك الحجاب

(١) محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية، جـ ٢ ، مرجع سابق ، صـ ٢٤٧.

(٢) سعد الدين محمد الجنزاوى ، العامل الدينى فى الشعر المصرى الحديث، من ثورة ١٩١٩ إلى ثورة ١٩٥٢ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة ، ١٩٦٤، صـ ١٤٣.

(٣) أنظر قضية تحرير المرأة بالتفصيل: محمد قطب، واقعنا المعاصر، مؤسسة المدينة للصحافة، جدة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٠، ص٢٥٠ – ٢٩٥.

على المرأة، وبدأت الصحف المصرية التغريبية والموالية للاحتلال تشيد بما فعله أتاتورك، وتشيد بالتطور الاجتماعي الذى حدث للمرأة التركية من سفور وتبرج وغير ذلك، وليت الأمر وقف عند السفور، بل إننا نرى كاتبا يعلن صراحة بأننا لم نخط بعد الخطوة الحاسمة فى سبيل تطبيق روح الحضارة العصرية على عاداتنا وأخلاقنا وأساليب حياتنا، إن نساءنا العصريات المتعلمات اللواتى يطالعن الصحف ويقرأن القصص ويغشين المسارح ودور السينما ما يزال يحال بينهن وبين الظهور فى المجتمعات البيئية أمام رجل غريب فنحن سلمنا بمبدأ تعليم نسائنا، ولكنا لم نسلم بعد بقدرة هؤلاء النساء على الانتظام فى حفل كبير يضم عدداً مختاراً من أفراد الجنسين ويتألف منه مجتمع مصرى أشبه بالمجتمعات الأوربية التى نشاهدها فى مصر ونحسد الأجانب عليها.(١)

وهكذا، نرى أن حركة تحرير المرأة وصلت فى نهاية المطاف إلى أن يتولى أمرها، ويقود مسارها من ينتمون إلي التيار التغريبى، وإلى فريق من السيدات استطاع المستعمر أن يحركهن ليؤدين دورهن باتقان، وهل كان فى النساء أفضل من صفية زغلول حرم سعد زغلول وهدى شعراوى زوجة على شعراوى وسيزا نبراوى وغيرهن من النساء اللاتى تربين وتغذين على الثقافة الغربية، وأصبحت الجمعيات والاتحادات النسائية التى تم تشكيلها فى البلاد يقودها هذا الفريق من النساء، وخلت الساحة لهذا التيار، فلم يعد لأصحاب الاتجاه الإسلامى صوت يسمع وليس ثمة جمعية أو اتحاد يتولى شئون المرأة، من مفهوم ومنظور إسلامى، ولذلك كان ولابد من قيام تجمعات وهيئات تنطلق من المنطلق الإسلامى، وترتكز على الفهم الصحيح للإسلام لتصحح المسار، وتواجه هذا التيار التغريبى العاتـى، الذى أصبح هو الصوت الوحيد الذى يقود تيار المرأة ويعبر عنها ويوجهها الوجهة التى يريدها.

صحيح أن مجلة المنار ظلت تنافح وتدافع عن المرأة من المنظور الإسلامى، وتحذر دعاة التغريب من أن ينحدروا بالمرأة المسلمة إلى هوة سحيقة من التبعية للغرب فى العادات والتقاليد والقيم والمبادىء، ولكن من يسمع للمنار؟ وماذا تفعل المنار وحدها في مواجهة الاتحادات والهيئات والجمعيات والصحف والمجلات؟!

(١) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، جـ ٢، مرجع سابق، ص ٢٤٨.

تحرير المرأة ورد الفعل:

إذًا، كان ولابد من أن تظهر جمعية أو هيئة تدافع عن المرأة باسم الإسلام، وتردها إلى صوابها ورشدها، فكانت دعوة الإخوان المسلمين التى ظهرت فى عام ١٩٢٨ فى مدينة الاسماعيلية دعوة إسلامية شاملة تهتم بالمرأة كما تهتم بالرجل على حد سواء، ولم تقف دعوة الإخوان فى حركتها ونشاطها الخاص بالمرأة المسلمة عند حد الكلمات الوعظية أو الخطب المنبرية، بل راحت تفتح لها المدارس وتؤسس لها الجمعيات حتى تستطيع هذه الدعوة أن توقف هذا التيار التغريبى الذى اكتسح البلاد طولا وعرضا، وترد المرأة المسلمة إلى أصالتها وجذورها وتمنحها حقوقها التى أعطاها لها الإسلام من الحرية الصحيحة والتعليم النافع، والثقافة الإنسانية الرفيعة، فضلا عن حقوقها المادية والمالية والأدبية.(١)

ولذلك فلم تمر خمس سنوات على تأسيس جماعة الإخوان المسلمين حتى تم تأليف فرقة الأخوات المسلمات وذلك فى غرة المحرم سنة ١٣٥٢، ٢٦ أبريل سنة ١٩٣٣ بمدينة الاسماعيلية، وكان الغرض من تكوين هذه الفرقة هو: التمسك بالآداب الإسلامية، والدعوة إلى الفضيلة، وبيان أضرار الخرافات الشائعة بين المسلمات.(٢)

وإيمانا من الجماعة بدور المرأة فى بناء الأسرة المسلمة، وضرورة تعليمها وتثقيفها وتهذيبها، وحتى يتم ترجمة أهدافها واقعيا وعمليا أنشأت الجماعة فى ١٩٣٣م أيضا مدرسة للبنات أطلق عليها اسم «مدرسة أمهات المؤمنين» ووضع لها منهاج عصرى

(١) لمزيد من التفاصيل حول حقوق المرأة فى الإسلام، أنظر: البهى الخولى، الإسلام والمرأة المعاصرة، دار القلم، الكويت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٤، ص٢٠١ وما بعدها وأيضا: محمد رشيد رضا، نداء للجنس اللطيف فى حقوق النساء فى الإسلام وحظهن من الإصلاح المحمدى، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٢، ص٢١ وما بعدها.

(٢) لمزيد من التفاصيل حول لائحة فرقة الأخوات المسلمات ووسائلها ونظامها أنظر.، حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية، مرجع سابق، ص١٥٠-١٥١ وأيضا: أحمد ربيع خلف الله، الفكر التربوى وتطبيقاته لدى جماعة الإخوان المسلمين، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٤، ص١٩٠، ١٩١.

إسلامى يجمع بين أدب الإسلام وتوجيهه السامى للفتيات والأمهات والزوجات وبين مقتضيات العصر ومطالبه من العلوم النظرية والعلمية، وكان يقوم بالتدريس فى هذه المدرسة مدرسات متخصصات من أبناء الاسماعيلية.(١)

وبذلك تكون جماعة الإخوان المسلمين سدت ثغرة كبيرة فى حياة الأمة وغطت فجوة هائلة فى البناء الاجتماعى فى حياتنا المعاصرة.(٢) فبعد أن كنا لانرى ولانسمع إلا من يدعو المرأة إلى التبرج والسفور وإلى والتحلل والاختلاط وإلى الجرى وراء البدع والخرافات والعادات والتقاليد الغربية، رأينا جماعة تبنى المدراس لتعليم الفتيات ما ينفعهن من الدين والحياة، وجمعيات تدعو المرأة إلى التمسك بآداب الإسلام، ولاشك أن ذلك أحدث تغييراً فى المجتمع وأضعف المد التغريبى لتحرير المرأة وأحدث ما يمكن أن يسمى بتوازن القوى فى الأمة، ويمكن القول إن هذه الحركة أول حركة نسوية -على حد تعبير الدكتور اسحاق الحسينى - فى مصر قامت على أساس متين بهدف إلى تحرير المرأة تحريراً حقيقيا، يعطيها كل حقوقها، ويرتقى بملكاتها ويهذب كل مواهبها، ويربيها على أسمى ما أعرفت الإنسانية من مبادىء الشرف والفضيلة والعفاف.(٣)

ولايعنى هذا الاهتمام من دعوة الإخوان المسلمين بالمرأة أنهم كانوا وحدهم الذين يعملون فى هذا الميدان، ولكن كان قد ظهرت دعوة الشبان المسلمين وغير ذلك من الجمعيات والصحف الإسلامية التى أولت هذه القضية جزءا من اهتمامها.

---

(١) حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية، المرجع السابق، ص١٠٧، ١٠٨. وأيضا: زكريا سلمان بيومى، الإخوان المسلمون، مرجع سابق، ص١٩٢ وما بعدها.

(٢) زكريا سليمان بيومى، *الحزب الوطنى ودوره فى السياسة المصرية*، دار أسامة، القاهرة، ١٩٨١ ص٢٣.

(٣) إسحاق الحسينى، *الإخوان المسلمون*، مرجع سابق، ص٩٠.

الفصل الرابع

الواقع الاقتصادي الذى ظهرت فيه الصحافة الإسلامية

تمهيد:

يقول العلامة محمد فريد وجدى: إن الذين لم يروا فى مصر إلا الاحتلال العسكرى لم يروا من أحوالها الاجتماعية شيئا، لأن أنواع الاحتلالات الأجنبية فى مصر كثيرة، ففى مصر احتلال عادى خاص بالعادات أسقط العادات الإسلامية والمصرية أمامه، وحول الناس وجهات مختلفة، وتبع الإنحراف فى العادات إنحراف فى الأخلاق وإنحراف فى الآداب، وفى مصر إحتلال مدنى سلب ذوى العقول عقولهم، فأصبح الأب أكثر عناية بتعليم ابنته «البيانو» من تعليمها أصول الأدب والدين، وفى مصر إحتلال إلحادى زين للناس القول بأن الأديان من الشئون الأثرية وأن العقيدة بالله والروح والخلود بعض الخيالات القديمة التى كانت تتلهى بها القلوب فى إبان سذاجتها، وفى مصر إحتلال اقتصادى أبار الصناعة المصرية، وجعلها أثراً بعد عين، بل هو دائب فى إخراج الثروة من المصريين إلى أيدى الأجانب(١).

وقبل الإحتلال أغرى الإنجليز الحكام بالاستدانة منهم، والتعامل معهم، وسهلوا لهم ذلك وهونوه عليهم، واستطاعوا بذلك أن يكتسبوا حق التدخل الاقتصادى فى مصر وأغرقوا البلاد برؤوس أموالهم ومصارفهم وشركاتهم، وأن يديروا دولاب العمل الاقتصادى كما يريدون وأن يستأثروا دون الأهلين بالأرباح الطائلة والثروات العظيمة(٢).

ولأن الاستدانة سبيل الاحتلال والإذلال، فقد وصل حجم الديون على مصر قبل الاحتلال الإنجليزى لها بست سنوات أى فى عام ١٨٧٦م بـ ٩٠ مليون جنيه، ومن ثم أنشىء صندوق الدين المصرى العام ويتكون من مندوبين عن الدول الدائنة، ويتلخص عمل هذا الصندوق فى تسلم المبالغ المخصصة للديون من مصادرها وتوزيعها على الدائنين، وتم تعيين مراقبين أجنبيين أحدهما إنجليزى لمراقبة إيرادات الحكومة والآخر فرنسى لمراقبة المصروفات(٣).

(١) جمال النجار، صحافة الاتجاه الإسلامى فى مصر منذ مطلع القرن العشرين حتى نشوب الحرب العالمية الأولى، رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية اللغة العربية بالقاهرة ـ جامعة الأزهر ١٩٨٦، ص٥.
(٢) حسن البنا، بين الأمس واليوم، القاهرة، دار الطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ص٦٠.
(٣) أحمد فارس عبد المنعم، السلطة السياسية والتنمية، كتاب الأهرام الاقتصادى، العدد (٦٤) يونية ١٩٩٢، ص١٩.

الاحتلال الاقتصادى:

فلم تمر هذه السنوات الست إلا وقد قامت إنجلترا باحتلال مصر عام ١٨٨٢ بحجة تدعيم سلطة الخديوى، والقضاء على الثورة العرابية، ثم راحوا يبررون الوجود البريطانى بالعمل على تنظيم الإدارة المصرية بصورة تحقق استقرار مالية البلاد، وتكفل سداد الديون، ومن ثم أسندوا مناصب نظارة المالية الكبرى إلى عدد من الموظفين الإنجليز على رأسهم المستشار المالى، كما عينوا عددا من المهندسين الإنجليز بنظارة الأشغال العمومية، شغلوا المناطب الرئيسية التى تتحكم فى أمور الرى باعتباره الأساس الذى تقوم عليه حياة البلاد الزراعية(١).

ولكن، منذ أن احتل الإنجليز مصر كانت خطتهم تعتمد على تحطيم الصناعة القائمة، ولذلك فقد اغلقوا أبواب المصانع الحكومية، كمصنع الورق ببولاق ١٨٨٥م، ودار سك النقود، فأصبحت نقودنا تسك فى إنجلترا، وبيع مغازل القطن، ومصانع النسيج، وعطلت الترسانة التى تصب المدافع، وتصنع البنادق والذخائر، وبيعت البواخر النيلية بأرخص الأثمان، وكانت خطة الاستعمار تقوم أيضا على تحطيم الحرف الصغيرة، حتى تحل السلع الإنجليزية محل المصنوعات المحلية، حتى بين أفراد الجماهير الكادحة، فشرد الآلاف من صغار الحرفيين بما فرض عليهم من ضرائب باهظة وقوانين جائرة(٢).

كما قام الإحتلال بتحطيم الاكتفاء الذاتى فى الريف، وأغلقوا كل ما من شأنه أن يعود ببعض التقدم الصناعى، وفتحوا أبواب الجمارك على مصراعيها أمام السلع الأجنبية، بل وحاربوا الصناعة المصرية بالوسائل الفكرية، فأصبحت صبية المدارس يُلقنون أول ما يُلقنون أن مصر بلد زراعية لا يمكن أن تكون فيها صناعة بسبب عدم

---

(١) أنظر التفصيل: رؤوف عباس حامد، النظام الاجتماعى فى مصر فى ظل الملكيات الزراعية الكبيرة، القاهرة، دار الفكر الحديث، الطبعة الأولى، ١٩٧٣، ص١١٢.

(٢) راجع التفاصيل حول الاستعمار ودوره فى السيطرة الاقتصادية فى مصر: شهدى عطية الشافعى، تطور الحركة الوطنية المصرية، ١٨٨٢ - ١٩٥٦، القاهرة بدون ناشر ١٩٥٧ ص٥ وأيضا، عبد الرحمن الرافعى، مصر والسودان، فى أوائل عهد الاحتلال مرجع سابق، ص١٧٩.

وجود الفحم والحديد، لأنهم أرادوها مزرعة قطنية تمد مصانعهم في إنجلترا بالقطن المصرى بأبخس الأثمان(١).

ولاشك فى أن سياسة الإحتلال هذه أوقعت مصر فى التبعية الاقتصادية، فقد نجم عن هذه السياسة القضاء على الحياة الصناعية فى البلاد مما جعلها عالة على انجلترا، وعلى الدول الأوروبية فى حياتها الاقتصادية، إذ أن القطن لا يباع إلا إذا استوردته البلاد الصناعية مادامت مصر محرومة من المصانع لغزله ونسجه، الأمر الذى جعل مصر دائما فى حالة تبعية اقتصادية للدول الأجنبية جرّت فى ذيولها تبعية سياسية للبلاد التى تستورد قطنها وبخاصة إنجلترا(٢).

وقد نتج عن اضمحلال الصناعة فى عهد الاحتلال حرمان البلاد موارد عظيمة للثروة، وحرمان المصريين مصدرا سائغا للرزق والرخاء، ولما كانت الموارد الزراعية لا تكفى لسد حاجات الشعب، مع ازدياد عدد السكان، فقد ترتب على ذلك انتشار الفقر، وكثرة عدد العاطلين، وانحطاط مستوى المعيشة فى البلاد(٣).

وإذا كان الاحتلال سمح ببعض الصناعات فى مصر فهى من قبيل الصناعات التى لا مفر منها وذلك لتحقيق مصالحه فى الداخل والخارج، فى الوقت نفسه صار هذا النشاط الاقتصادى يتركز فى يد العناصر الأجنبية التى تمول وتشرف عليه فيما عدا الأعمال البسيطة، فأنشأ الأجانب المصانع برؤوس أموالهم، وغزت الصناعات الأوروبية البلاد(٤).

وهذا الموقف من قِبَل الاحتلال ليس بغريب ولا مستغرب، لأن الدول الاستعمارية من طبيعتها أن تجعل البلاد التى تحتلها مخزنا للمواد الأولية

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور، ثورة شعب، عرض للحركة الوطنية فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين، القاهرة، دار النهضة المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٦٥، ص٨٠ وأيضا: شهدى عطية الشافعى، تطور الحركة الوطنية، مرجع سابق، ص٦.

(٢) أنظر بالتفصيل: عبد الرحمن الرافعى، مصر والسودان فى أعقاب الاحتلال، مرجع سابق، ص١٨٨، ١٨٩ وأيضا: فاطمة علم الدين عبد الواحد، التطورات الاجتماعية فى الريف المصرى قبل ثورة ١٩١٩، القاهرة، الهيئة المصرية العامة ب، الطبعة الأولى، ١٩٨٤، ص١٠

(٣) عبد الرحمن الرافعى، مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال، مرجع سابق، ص١٩٠.

(٤) شهدى عطية الشافعى، تطور الحركة الوطنية، مرجع سابق، ص٧.

والأيدى العاملة الرخيصة، تأخذ من هذه الدول ما تشاء، ومصباً تفرغ منه الفائض من المنتوجات الصناعية والمواطنين الزائدين(١).

الأمر الذى جعل سياسة الاحتلال الاقتصادى تقوم على تخصيص مصر للزراعة وجعلها بلدا زراعيا فحسب، وتركيز ثروتها الزراعية فى القطن، وإهمال الزراعات الأخرى(٢).

وأدى اهتمام الاحتلال الشديد بالزراعة إلى إصدار قرار عام ١٨٩١ يعطى للأفراد حق ملكية الأرض، لذا بدأ الصراع يحتدم بين القوى التى أتيح لها أن تتملك الأرض فى مصر، وكان على رأسهم أفراد أسرة محمد على والأتراك والأجانب والحكومة وبعض المصريين الذين تمكنوا من الحصول على مساحات من الأرض، وترتب على إباحة حق التملك للأفراد أن ارتفع ثمن الأراضى ارتفاعا باهظا، ورغم ذلك استمر التنافس على شراء الأرض من جانب بعض التجار الذين رأوا فى الأرض مكسبا وخيرا، ولكن هذا التكالب على شراء الأراضى الزراعية سرعان ما انخفضت حدته بعد الارتفاع الشديد فى أثمان الأرض، وبعد الأزمات الاقتصادية التى عاشها كبار الملاك أثناء الحرب نتيجة لموقف الاحتلال من سياسة زراعة القطن وتسويقه والاستيلاء على بعض المحاصيل، وتجنيد الآلاف من العمال الزراعيين فى الحرب(٣).

لذلك لم يكن إعلان الحرب عام ١٩١٤م، مفاجأة بل كانت الظروف جميعها فى الشرق والغرب تمهد للحرب وكانت الرأسمالية قد غلت غلوا كبيرا، وامتدت أطماعها إلى الشرق تبحث عن الأسواق والموارد الأولية، وحقول الزيت والبترول والمطاط، وكان النزاع قائما بين دول أوروبا على هذا الميراث الذى لا وارث له، ميراث «الرجل المريض»(٤).

---

(١) أنظر: جاك بولين، مع القومية العربية تعريب نجدة هاجر، وسعيد الغز، كتاب الملايين سلسلة ثقافية شهرية، بيروت المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر، ص٢٦.

(٢) لمزيد من التفاصيل حول قضية تخصيص مصر للزراعة من قبل الاحتلال، أنظر: رؤوف عباس حامد، المرجع السابق، ص١٦٢، وعبد الرحمن الرافعى، المرجع السابق، ص١٨٨.

(٣) محمد السعيد إدريس، حزب الوفد والطبقة العاملة المصرية، ١٩٢٤ - ١٩٥٢، القاهرة دار الثقافة الجديدة، الطبعة الأولى ١٩٨٩ ص٥٢.

(٤) أنور الجندى، الإخوان المسلمون، النصف شهرية، العدد (١٨٣) السنة السادسة، ٢٥ يناير ١٩٤٨، ص١١.

وما إن قامت الحرب حتى أعلن الاحتلال الحماية على مصر، وكان عهد الحماية البريطانية من أشد المراحل قسوة فى تاريخ مصر، إذ سخر الإنجليز موارد البلاد لخدمة أهدافهم الاستعمارية وللقضاء على كل حرية، وكل حقوق البلاد فى سبيل مصالحهم الخاصة، وفى خلال سنوات الحرب زاد شقاء الشعب المصرى، وخاصة طبقة الفلاحين والعمال، فقد جندت انجلترا مايزيد على المليون من خيرة المصريين لسد مطالبهم الحربية، كما اشترت المحصولات الزراعية بثمن بخس، هذا فضلا عن جمع الضرائب والدواب دون النظر إلى حاجات الأهالى، وحدث هذا الكرب فى الوقت الذى أقبل فيه عدد من الأجانب على جمع الثروات من مصر من عرق الفلاح والعامل، فى ظل الكبت والقمع السياسى من جانب سلطات الاستعمار البريطانى(١).

وبذلك أصبح للاستعمار البريطانى السيطرة الاقتصادية بنفس حجم السيطرة السياسية وكان سند الاستعمار فى سياسته كبار الملاك، فقد ارتفع فى ظل الاحتلال عدد الملاك الذين يملكون أكثر من ٥٠ فدان من ١١,٢٢٠ مالكا سنة ١٨٩٤ إلى ١٢,٤٨٠ عام ١٩١٤ وزادت أملاكهم من ١,٩٩٧,٠٠٠ فدان فى عام ١٨٩٤ إلى ١٢,٣٩٧٠٠٠ فدان عام ١٩١٤(٢).

المظاهر الاقتصادية فى عهد الاحتلال:

ولاشك أن هذه الحالة من الخضوع الاقتصادى التام فى هذه المرحلة من الاحتلال لم تؤثر فى هيكل بناء الثروة والانتاج والاستهلاك فحسب، بل خفضت أيضا فى معنويات المواطنين(٣)، الأمر الذى جعل الرأسمالية المصرية تشعر بالضيق لطغيان النفوذ الأجنبى الاقتصادى، واجتاح هذا التيار مصر وندد بتغلغل الأجانب، وكان أول صوت عبر عن ذلك الضيق هو صوت طلعت حرب الذى رأى أن السبيل إلى تحرير مصر الاقتصادى هو إنشاء بنك مصرى برؤوس أموال مصرية، ولا ريب أن الوضع الاقتصادى لمصر فى ذلك الوقت هو الذى دفع إلى التفكير فى ذلك، فالأرض الزراعية محدودة، والسكان يتزايدون، وانجلترا هى صاحبة السيطرة على أسعار المحاصيل من

(١) إبراهيم محمد العدوى، قادة التحرير العربى، مرجع سابق، ص٢٠٤.
(٢) شهدى عطية الشافعى، تطور الحركة الوطنية، مرجع سابق، ص١٢.
(٣) جاك بيرك، المرجع السابق، ص٣٢.

جهة وارتفاع أسعار الأرض وانخفاض الأرباح من جهة أخرى(١). والمصارف التجارية معظمها إن لم يكن كلها فروع لبنوك أجنبية، ولم تكن هذه البنوك يعنيها أن تنفق على المشروعات التى تؤدى إلى إنعاش الحياة الاقتصادية الوطنية، وتميزت جميعها بظاهرة خطيرة، وهى ظاهرة التخصص فى أعمال البنوك التجارية، واقتصر عملها علي عمليات الائتمان القصير الأجل كتمويل التجارة الخارجية أو تصدير المحصولات، وبخاصة القطن، وفشلت هذه البنوك فى تكوين «العادة المصرفية» عند المصريين، وذلك بسبب إصرارها على أجنبيتها وانعزالها عن المحيط الشعبى مما جعلها عاجزة عن امتصاص المدخرات القومية وتوجيهها نحو ميادين الاستثمار(٢).

كل ذلك دفع الغيورين على مصلحة البلاد إلى إنشاء بنك مصر وكان ذلك فى أبريل ١٩٢٠م برأسمال قدره ٨٠,٠٠٠ ثم نموه بعد ذلك إلى شركة قابضة واسعة يربو رأسمالها على أربعة ملايين جنيه مصرى، ويعتبر تأسيس بنك مصر هو نواه النهضة المالية والاقتصادية التى بدأت عقب الحرب العالمية الأولى، وكان البنك عملا اقتصاديا خالصا فلم يكن له انتماءات سياسية إلا انتمائه الوطنى لمصر، ورغم مساندة حزب الوفد وكبار الملاك، وقطاعات من التجار فإن البنك كان حريصا للغاية على ألا يرتبط بشكل وثيق بأية مجموعة أو منظمة بعينها خلال تلك الفترة المبكرة من تطوره(٣). ومن هنا يمكننا القول: بأن بنك مصر مسح عن حياتنا الوصمة التى كان يعيرنا بها المستشار المالى «برونيات» بقوله: إنه ليس بين المصريين من يعرف أعمال البورصة(٤).

وبذلك نجحت الوطنية المصرية فى إنشاء أول بنك مصرى خالص ويعتبر النتيجة الاقتصادية لثورة ١٩١٩م التى كانت من الوجهة الاقتصادية رد فعل ضد النظم المالية التى عانتها البلاد قبل الحرب وفى أثنائها، ومن هنا فإن الأوضاع الاقتصادية والمالية كان لها دور كبير فى قيام ثورة ١٩١٩(٥).

---

(١) راجع التفاصيل: لطيفة محمد سالم، مصر فى الحرب العالمية الأولى مرجع سابق ص١٢٤، ١٢٥.

(٢) محمد محمود الصياد وآخرون، المجتمع العربى والقضية الفلسطينية بيروت دار النهضة العربية، الطبعة الأولى ١٩٧٧ ص٨٣، ٨٤.

(٣) أريك دافيز، مأزق البرجوازية الوطنية الصناعية فى العالم الثالث، تجربة بنك مصر ١٩٢٠ - ١٩٤١ ترجمة سامى الرزاز، بيروت مؤسسة الأبحاث العربية الطبعة الأولى ١٩٨٥ ص١٣١، ١٣٥، ١٤٥.

(٤) سلامة موسى، تربية سلامة موسى، بدون ناشر وتاريخ، ص١٥٥.

(٥) راجع: جاد طه، معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر، القاهرة، دار الفكر العربى، الطبعة الأولى ١٩٨٥ ص٢٧٨، وأيضا عبد الرحمن الرافعى، ثورة ١٩١٩ جـ٢، مرجع سابق، ص١٦٧ حيث يعتبر بنك مصر نواة النهضة الاقتصادية والمالية لمصر.

وأسفرت ثورة ١٩١٩ عن تبلور عدة مطالب من شأنها تقوية الاقتصاد المصرى وتدعيمه خاصة أن هذه المطالب تتصل بالفلاحين وهى:

١ - تنظيم فقراء الفلاحين فى نقابات، وإيجاد صلات بينها وبين نقابات العمال، مع العمل على ربطها باتحادات الفلاحين الدولية.

٢ - إلغاء نظام ملكية العزب التى لا تختلف كثيرا عن نظام الإقطاعات.

٣ - إلغاء ديون الفلاحين الذين يملكون أقل من ثلاثين فدانا.

٤ - إعفاء الفلاحين الذين يملكون أقل من عشرة أفدنة من الضرائب.

٥ - وضع ضرائب على مياه الرى للذين يملكون أكثر من مائة فدان.

٦ - إنشاء مصارف تعاونية لصغار الفلاحين(١).

وفى عام ١٩٢١ يعلن عن إنشاء الحزب الاشتراكى المصرى، ويطالب الحزب بوضع خطة للاصلاح الزراعى، ونادى بتأميم الملكيات الكبيرة وتوزيع الأراضى على المحتاجين، بل لقد تصدى لبحث إمكانية تنظيم الفلاحين فى «سوفيتات فلاحية»(٢).

بالإضافة إلى ذلك فقد نص برنامج الحزب على أنه يعمل على إلغاء استغلال جماعة لأخرى، والقضاء على التفرقة بين الطبقات فى الحقوق الطبيعية، وإخماد استغلال المستغلين والمضاربين والسعى إلى إنشاء مجتمع اقتصادى يقوم على دعائم المبادىء الاشتراكية(٣).

ولكن كل هذه المحاولات لم تحقق لمصر الاستقلال الاقتصادى، أو على الأقل عملت على الحد من التبعية الاقتصادية لإنجلترا، فما إن تحددت العلاقة المصرية البريطانية فى إطار تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ حتى أخذ الاهتمام البريطانى بربط الاقتصاد المصرى بالاقتصاد البريطانى يتزايد بصورة كبيرة، وذلك لاعتقادهم أن هذا يدعم وجودهم فى مصر، كما أنه يضعف موقف الحركة الوطنية فى مواجهة هذا الوجود،

(١) إبراهيم عامر، الأرض والفلاح، المسألة الزراعية فى مصر، القاهرة الدار المصرية، الطبعة الأولى، بدون تاريخ، ص١٢٩.

(٢) مارسيل كولومب، تطور مصر، مرجع سابق، ص٢٢٤.

(٣) رؤوف عباس، جماعة النهضة القومية، القاهرة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٨١، ص٣٢.

وكان الاحتلال البريطاني لمصر حريصا منذ بدايته على ربط الاقتصاد المصرى بالاقتصاد الإنجليزى ربطا كليا، ومن العوامل التى جعلت اقتصادنا يدور فى فلك الاقتصاد البريطاني تحويل غطائنا النقدى من الذهب إبان الحرب العالمية الأولى إلى أذونات على الخزانة البريطانية، مما أتاح لبريطانيا الحصول على ما تشاء من العملة المصرية لتمويل عملياتها العسكرية(١).

الصنا - المصرية فى ظل الاحتلال:

ولكن يذكر أن ظروف الحرب حالت دون استيراد المواد المصنعة، مما أدى إلى إقامة عدد من الصناعات فى مصر لسد النقص الذى أحس به الشعب ولكفاية جيوش الحلفاء، وعلاوة على ذلك فإن ارتفاع الأسعار الذى حدث بسبب تعذر الاستيراد قد أغرى كثيرا من أصحاب رؤوس الأموال على استثمار أموالهم فى إنتاج السلع الاستهلاكية طمعا فى تحقيق أرباح استثنائية، فكانت الحرب بمثابة حماية جمركية غير مباشرة للصناعات الوطنية ساعدت على ازدهار الصناعة فى مصر ازدهارا نسبيا(٢).

وبذلك يمكن القول بأن الصناعة المصرية بدأت تأخذ مكانها خلال الحرب العالمية الأولى وذلك لأول مرة من بعد الاحتلال البريطاني لمصر ١٨٨٢م، وقد وجدت الصناعة جوا ملائما فى ذلك الوقت، فالشعب محتاج للغذاء والكساء وجيوش الاحتلال فى حاجة إلى المصنوعات من ذخيرة وصيانة اسلحة وصناعات معدنية مختلفة، وما كان لانجلترا أن تترك هذه الحركة الصناعية المصرية الوليدة تسير فى طريقها لولا حاجتها الشديدة إليها فى ظل هذه الظروف الصعبة التى كانت تمر بها إبان الحرب، الأمر الذى جعلها تخفف من قبضها على مصر من هذه الناحية(٣).

---

(١) راجع بالتفصيل: رؤوف عباس، الاقتصاد المصرى فى الوثائق البريطانية، ١٩٢٠ ـ ١٩٤٥ مجلة السياسة الدولية، إبريل ١٩٨١ العدد (٦٤) ص٦٥ وما بعدها.

(٢) أنظر بالتفصيل: على لطفى، التطور الاقتصادى، القاهرة، مكتبة عين شمس الطبعة الأولى، ١٩٨١، ص١٦١ وما بعدها وأيضا: رؤوف عباس: جماعة النهضة القومية، مرجع سابق، ص١٨.

(٣) لطيفة محمد سالم، مصر فى الحرب العالمية الأولى، مرجع سابق، ص١٢٤ وما بعدها. وانظر أيضا: عاصم الدسوقى، مصر فى الحرب العالمية الثانية، ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥، القاهرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الطبعة الأولى ١٩٧٦، ص١٨٤.

والواقع أن الصناعات التى نشأت خلال فترة الحرب العالمية الأولى كانت من الصناعات الصغيرة، وكانت معظم المصانع من النوع الفردى محدود الموارد الذى يتبع أساليب الانتاج الفنية القديمة ويرجع ذلك إلى عدة أسباب:

١ - أن الآلات ذات الكفاية الانتاجية الكبيرة كانت لا تصنع فى مصر كما كان استيرادها متعذرا بسبب ظروف الحرب.

٢ - أن إنشاء المصانع الكبيرة ذات الكفاية الانتاجية العالمية يستدعى فترة من الوقت، وقد تنتهى الحرب قبل أن تبدأ تلك المصانع فى الإنتاج فيتعرض أصحابها لخسارة محققة بسبب المنافسة الأجنبية.

٣ - خلال فترة الحرب كانت المضاربة ظاهرة منتشرة فى معظم نواحى الأعمال، ومن المعروف أن المشروعات الكبيرة تتجنب المضاربة.

٤ - أن الطمع فى الحصول على أكبر قدر ممكن من الأرباح الاستثنائية قد دفع المنتجين إلى إنشاء المشروعات الصغيرة التى لا تحتاج إلى وقت طويل قبل إنتاج السلعة وعرضها فى الأسواق.

٥ - إرتفاع سعر الفائدة خلال فترة الحرب وتوقع انخفاضه فى فترة السلم التالية، مما أدى إلى تأجيل المشروعات الضخمة التى تحتاج إلى قروض كبيرة(١). لهذه الأسباب جميعا لم تنشط الصناعة فى مصر بشكل قوى فعال، وما إن انتهت الحرب حتى عادت الصناعة إلى حالة الضعف والركود، ويمكن أن نطلق على الحالة التى ظهرت بها الصناعة خلال فترة الحرب «بالانطلاقة الصناعية المؤقتة» سرعان ما انقضت نتيجة عودة السلع الأجنبية وإغراق السوق المصرى بها ومنافستها للسلع المحلية، فلم تستطع الصناعات المصرية الناشئة أن تصمد أمام تيار المنافسة الأجنبية، وكانت النتيجة الحتمية لذلك أن لاقت الصناعات المصرية حتفها أو كادت(٢).

وعلى الرغم من أن الصناعات التى قامت فى مصر خلال فترة الحرب العالمية الأولى قد لاقت حتفها - على حد قول الدكتور على لطفى - إلا أن هذه التجربة كانت بمثابة نقطة

---

(١) راجع بالتفصيل: على لطفى، التطور الاقتصادى، مرجع سابق، ص٢٦٥، ٢٦٦

(٢) أنظر: نوال قاسم، تطور الصناعة المصرية منذ محمد على حتى عهد عبد الناصر، القاهرة، مكتبة مدبولى، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ص٢٤٢ - ٢٤٣ وأيضا: رؤوف عباس، جماعة النهضة القومية، مرجع سابق، ص١٩.

تحول في تاريخها الاقتصادي، فقد استطاع الاقتصاد المصرى أن يتمرد على العراقيل والعقبات التى وضعها الإنجليز منذ احتلالهم لمصر، لحجب ازدهار الصناعة بها حيث كانت الإدارة البريطانية متجهة فى المقام الأول - كما أشرت إلى ذلك من قبل - نحو التوسع فى زراعة القطن لأنه محصول رائج فى الأسواق العالمية، وكان ثمنه هو النقد الأجنبى الضرورى للوفاء بجزء كبير من الدين، واستطاع الاقتصاد المصرى أيضا أن يكذب مقولة إن «الاقتصاد الزراعى هو النوع الوحيد الذى يلائم مصر»(١) حيث إن مصر كانت تعتمد فى اقتصادياتها على القطن، فهو يعتبر أهم الحاصلات الزراعية بها وهو يساهم فى ثروتها مساهمة فعالة وتتأثر ماليتها به، وكان من الطبيعى أن ينعكس الاضطراب الاقتصادى العالمى الناشئ عن الحرب علي سوق القطن المصرية، فكانت أول نتيجة ترتبت على افتتاح الأعمال الحربية هى حدوث النقص الشديد فى طلب القطن المصرى تبعا للقيود المفروضة بسبب الحرب وصعوبات النقل البحرى، تبع ذلك تدهور الأسعار فى البورصة، حتى أصيبت البلاد بأشد حالات الضنك والقلق(٢).

ولكن هذه الحالة سرعان ما تغيرت خاصة فى عام ١٩١٦ فقد زادت المساحة المزروعة قطنا ما بين عام ١٩١٤، ١٩١٧ من ٢٨٪ إلى ٤٠٪ من الأراضى المنزرعة، وارتفعت أسعار القطن ارتفاعاً ملحوظا حتى بلغت عام ١٩١٨ ثلاثة أضعاف ما كان عليه عام ١٩١٣(٣).

بيد أن هذه الزيادة استفاد منها الأغنياء وأصحاب الأراضى الكبيرة أكثر من الفقراء لأن نسبة كبيرة من الفلاحين كانت تملك عدداً قليلا من الأراضى، وبذلك يمكن أن تكون الحرب قد أسهمت فى تعميق حدة التناقض الطبقى بين المصريين فقد زاد الأغنياء غنى عن طريق زيادة دخولهم سواء من القطن أو غيره وزاد الفقراء فقراً نتيجة الارتفاع المتوالى فى الأسعار(٤).

ومن هنا يمكن القول: بأن الاقتصاد الزراعى المصرى خلال فترة الحرب اتسم بعدم

(١) أنظر بالتفصيل: نجلاء عز الدين، العالم العربى، مرجع سابق، ص١٩١، ١٩٢.
(٢) لطيفة محمد سالم، مصر فى الحرب العالمية الأولى، مرجع سابق صـ ١١٣.
(٣) نوال قاسم، تطور الصناعة المصرية منذ عهد محمد على حتى عهد عبد الناصر، مرجع سابق، ص٢٣٥.
(٤) لطيفة محمد سالم، مصر فى الحرب العالمية الأولى، ص١١٤. وأيضا: نوال قاسم، تطور الصناعة المصرية، مرجع سابق، ص٢٣٧.

الاستقرار والتذبذب والإجحاف الشائن بحق مصر لحساب مصالح إنجلترا، وأن البلاد خلو من الهيئات التى تعمل على حل معضلات المسائل الناشئة عن الحوادث الطارئة مثل النقابات الزراعية والتعاونية ونقابات التسليف والبنوك الأهلية الحقيقية، ولقد أبانت الحرب شدة الغبن على البلاد وعدم مسئولية القائمين بالأمر إذ سلموا أمور مصر إلى الانجليز الذين أساءوا التحكم فى البلاد والعباد(١).

ثورة ١٩١٩ والو ضع الاقتصادى:

ومن ثم فقد هبط مستوى الإنتاج للعامل الزراعى أثناء الحرب وبعدها عن المستوى الذى كان عليه قبل الحرب العالمية الأولى لأن التفكك والخلل الذى حدث خلال الحرب هو - بصفة أساسية - السبب فى الهبوط السريع للانتاج فى ذلك الوقت ،فلقد كانت الحيوانات والرجال والمحاصيل كلها مطلوبة للمجهود الحربى البريطانى فى أوقات الحرب، وإن صورة هذا التدهور والهبوط لمستوى هؤلاء الذين يشغلون قاع المجتمع الريفى لن تتحسن طالما ظل هؤلاء العمال الزراعيون لاينالون حقوقهم ومكاسبهم(٢). ولم يكن العامل الزراعى فقط هو المهضوم حقه فى تلك الحقبة التاريخية العصيبة من تاريخ البلاد، بل المواطن المصرى بشكل عام، كان يرسف تحت أغلال هذا الظلم الشديد من قبل الاحتلال ونظام الحكم الاستبدادى، باستثناء هذه الفئة التى والت الاحتلال والملك ورأت مصالحها فى ذلك، حتي وإن تعارضت هذه المصالح مع مصالح الأمة والوطن ،الأمر الذى جعل الأمة تثور وتنفجر فى ١٩١٩م على الأوضاع السائدة، فخرجت المظاهرات فى كل من القرى والمدن تندد بالاحتلال وتطالب بالجلاء والاستقلال، وهذا كله يؤكد أن الوضع الاقتصادى الذى ساد المجتمع المصرى كان من أبرز الدوافع لقيامه بالثورة، فلقد طاف طائف الثورة بالنفوس فى ١٩١٩م فبعث فيها روحا جديدة من التطلع إلى الاستقلال الاقتصادى إلى جانب الجهاد فى سبيل الاستقلال السياسى(٣). ويطرح المؤرخ المصرى عبد الرحمن الرافعى سؤالا: هل ` . - ثورة

---

(١) لطيفة محمد سالم، السابق نفسه، ص١١٨.

(٢) أنظر بالتفصيل: آلان ريتشارد، التطور الزراعى فى مصر ١٨٠٠ - ١٩٨٠ ترجمة، أحمد فؤاد سيف النصر، القاهرة، كتاب الأهالى، رقم (٣٤) يوليو ١٩٩١، ص١٧٧ - ٢٠٠.

(٣) عبد الرحمن الرافعى، فى أعقاب ثورة ١٩١٩، جـ٢ القاهرة، دار المعارف ، الطبعة الثالثة، ص٢٨١.

١٩١٩ فى النهضة الاقتصادية؟ ويجيب على سؤاله بقوله: إذا رجعنا إلى قيادة الثورة نجد أنها أهملت الناحية الاقتصادية إهمالا شاملا، ويعتبر ذلك الإهمال من نواحى النقص فى زعامة الثورة، وذلك إذا قورنت بالزعامة الوطنية قبل الثورة، وأن منطق الثورة السليم قد سار على خلاف توجيه الزعامة السياسية فيها فاتجه من تلقاء نفسه إلى تعضيد النهضة الاقتصادية وإلى متابعة البعث الاقتصادى الذى بدأ قبل الثورة[١] وذلك لأن البعث الوطنى منذ مصطفى كامل ومحمد فريد لم يغفل عن أهمية وضرورة النهضة الاقتصادية للبلاد، وقد اقترن جهادهم السياسى بالجهاد الاقتصادى، رغم العقبات التى كان يضعها الاحتلال فى سبيل ذلك من إغفال أمر الصناعة الذى كان ذا أثر فى بطء التقدم فى مظاهر الحياة الاجتماعية[٢].

فأغلب مشاريع تخطيط المدن وإقامة المبانى وغيرها مما نجد له مثيلا فى الأمم التى سبقتنا فى مضمار الرقى من نتائج الانقلاب الصناعى الذى أخذت تلك البلاد بأسبابه، وظهور وتقدم الصناعة فى بلد يدعو إلى ازدياد قوة الرأى العام والشعور بمساوىء المجتمع، فيطالب هؤلاء بالحقوق السياسية وتعميم التعليم، فتظهر النقابات العمالية وتصدر الحكومة التشريعات المختلفة التى تتصل بالعمل، وتدعو الصناعة إلى ترقية وسائل النقل، بل إنها تقضى على شرور ومساوىء منها قوة العصبية وانتشار المحسوبية فى العلاقات والمعاملات، إذ يغلب على المجتمع الزراعى أن يكون الولاء للأسرة شديدا بحيث يتدخل فى سير المصلحة العامة[٣].

بل إن البلاد التى تعتمد فى حياتها على الزراعة فحسب هى بلاد متأخرة وتدرج فى عداد الأمم الفقيرة إذ تعيش عالة على الدول الأجنبية فى حاجاتها الصناعية والمالية، وبالتالى تقبل طوعا أو كرها سيطرة هذه الدول[٤].

---

(١) راجع: عبد الرحمن الرافعى، ثورة ١٩١٩، تاريخ مصر القومى من ١٩١٤ إلى ١٩٢١، مرجع سابق، جـ٢، ص١٦٧، ١٦٨.

(٢) عبد الرحمن الرافعى، فى أعقاب ثورة ١٩١٩، مرجع سابق، ص٢٨٠.

(٣) أنظر بالتفصيل: راشد البراوى ومحمد حمزة عليش، التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث، القاهرة، مكتبة النهضة الحديثة، الطبعة الخامسة، ١٩٥٤، ص١٨٣.

(٤) عبد الرحمن الرافعى، فى أعقاب ثورة ١٩١٩، مرجع سابق، ص٢٨٠.

وهذا بعينه ما حرصت عليه انجلترا من بداية احتلالها لمصر، كما أكد الباحث على ذلك من قبل بأن جعلت مصر بلدا متخصصا فى الزراعة، وزراعة القطن على وجه التحديد، وهذه السياسة سياسة «التخصص» قصد بها تجويع الشعب المصرى، إذ أصبحت مصر لأول مرة فى تاريخها عاجزة عن توفير الغذاء لأهلها وصار من الضرورى أن تستورد مقادير كبيرة من القمح(١).

ولاشك أن هذا الوضع الاقتصادى الذى كانت تمر به مصر فى ظل الاحتلال البريطانى، كان وضعا سيئا، رغم الجهود الوطنية التى انبثق عنها بنك مصر، والذى يعتبر أول بنك وطنى أسس فى تاريخ مصر الحديث، وما تبعه من مشاريع اقتصادية هامة كإحيائه صناعة الغزل والنسيج(٢).

وفى الواقع إلا أن هذه الجهود لم تستطع أن ترفع عن كاهل العامل المصرى الظلم الواقع عليه بل كانت هناك صورة مهينة كان عليها الريف المصرى الذى يسوده النظام الاقطاعى الذى كان يقوم على ربط الفلاحين الفقراء بأراضى كبار الملاك ليزرعوها ويقدموا انتاجها لهؤلاء الملاك الكبار فى مقابل حصولهم على أجر عينى يتمثل فى حيازات صغيرة من الأراضى تبلغ مساحتها عدة قراريط لكل فلاح، وتقع على هامش أرض المالك الكبير التى يزرعها له هذا الفلاح، وفى المواسم يقوم المعدمون الذين لا يملكون سوى قوة عملهم بمشاركة الفلاحين الفقراء فى زراعة أراضى كبار الملاك مقابل حصولهم على جزء هزيل من المحصول يكفى بالكاد لسد الرمق، وكان سكان الريف العشرة ملايين، يتقاسمون ستة ملايين فدان هى إجمالى المساحة الزراعية فى مصر بموجب علاقات الانتاج الإقطاعية البالغة القوة حيث إن ١٠٪ منهم يستحوذون على ٤٣٪ من الأراضى بمتوسط مائتى فدان للمالك الواحد وهؤلاء هم كبار الملاك المعروفون باسم «السادة الاقطاعيون»، كما أن ١٦٪ من سكان الريف يستحوذن على ٣٠٪ من الأرض بمتوسط ثلاثة عشر فدانا للمالك الواحد، وهؤلاء هم متوسطو الملاك المعروفون باسم «تاغنياء الريف» أما الاغلبية الساحقة والتى تشكل ٧٣٪ من سكان

(١) جمال الدين محمد سعيد، التطور الاقتصادى فى مصر منذ الكساد العالمى الكبير، القاهرة، لجنة البيان العربى، الطبعة الأولى، ١٩٥٥، ص٦.

(٢) لمزيد من التفاصيل حول البنك ودوره فى النهضة الصناعية فى مصر، أنظر عبد الرحمن الرافعى، فى أعقاب ثورة ١٩١٩ جـ٢ مرجع سابق ص٢٨٢.

الريف فإنهم لا يستحوذون إلا على ٢٧٪ من الأراضي الزراعية بمتوسط يقل عن الفدان للفرد الواحد وهؤلاء هم فقراء الريف المعروفون باسم «أقنان الأرض» يعنى عبيد الأرض(١). ولاشك أن هذا الوضع الطبقى فى الريف المصرى أحدث شروخا نفسية هائلة فى نفوس الفلاحين البسطاء، فى حين أن الأجنبى الذى يعيش على أرض مصر سواء فى المدن أو القرى كان يتمتع بامتيازات ميزتهم على المصريين تمييزا صارخا وهذه الامتيازات التى حصل عليها الأجانب وتمتعوا بها كانت تهدف فى نشأتها إلى حماية هؤلاء الأجانب من وقوع الحيف والجور عليهم فى مسائل الضرائب وتأمينهم على أرواحهم وأموالهم، غير أن الذى حدث مع التطور كان عكس ذلك تماما، فقد أصبحت هذه الامتيازات تتسع دائرتها، وتشتد وطأتها حتى لم يعد بينها وبين الامتيازات الأصلية صلة شبه محسوسة لا فى مظهرها ولا فى أغراضها أو آثارها ونتج عنها مع الزمن، وعلى التتابع ألوان من الحصانة فى شتى الميادين جعل منها حالة تقرب من الفوضى(٢).

وخلاصة القول: فإن الحالة الاقتصادية التى كانت تمر بها مصر فى ظل الاحتلال البريطانى كانت حالة غاية فى التردى والضعف. وذلك بسبب السياسة الاقتصادية الشوهاء التى فرضها الاحتلال على البلاد، بداية من «تخصيص» مصر بالزراعة لتمد انجلترا ومصانعها بما تحتاجه من مواد خام خاصة القطن، فى الوقت الذى تحكم فيه الانجليز فى ثمن القطن فأضاعوا بذلك الكثير من الأموال على مصر واقتصادها، وفى الجانب المقابل أهملوا الصناعة، بل دمروا ما كان قائما عند بداية الاحتلال، وأوهموا المصريين بأنه شعب لا يصلح إلا للزراعة، وأن مصلحتهم ليست إلا فى الزراعة. بجانب ذلك ابتليت مصر بنكبة اقتصادية بسبب الحرب العالمية الأولى، والتى فيها انخفض

---

(١) محمود عبد الفضيل: التحولات الاقتصادية والاجتماعية فى الريف المصرى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٩٧٨، ص٩، ١٥.

(٢) بدأت الامتيازات الأجنبية من القرن التاسع عشر وظلت قائمة حتى ألغيت عام ١٩٣٧ بعد أن قررت معاهدة مونترو تنظيم إلغاء الامتيازات الأجنبية فى مصر. ولمزيد من التفاصيل حول هذه القضية أنظر: نبيل عبد الحميد سيد أحمد، *النشاط الاقتصادى للأجانب وأثره فى المجتمع المصرى من سنة ١٩٢٢ إلى سنة ١٩٥٢* القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب: الطبعة الأولى ١٩٨٢، ص١٣ ـ ١٤.

سعر القطن وسخرت القوى العاملة من الشعب المصرى لصالح الإنجليز فى حربها وذلك طوعا أو كرهاً وإن انتعشت الصناعة المصرية فى إبان الحرب لكن ما كان للمحتل أن يترك لها هذه الفرصة إلا لمصلحته ومنفعته أولا وأخيرا، بدليل أن هذه الصناعة أصيبت بنكسة بعد انتهاء الحرب بسبب ما أغرقت به البلاد من صناعات أجنبية، وتخرج مصر من الحرب وهى فى وضع اقتصادى يرثى له، الأمر الذى دفع الشعب إلى الثورة فى ١٩١٩.

والواقع أنه، ولولا أن القوى الوطنية انتبهت لهذه القضية وأولتها اهتماما لم يكن ليظهر بنك مصر الذى أسسه الاقتصادى المصرى طلعت حرب عليه رحمة الله، فكان هذا البنك عملا اقتصاديا مصريا وطنيا مخلصا خالصا، ولم يكن لأى من القوى السياسية الكائنة حينئذ أى سلطان أو ولاية عليه، فكان هذا البنك وما أقامه من مشاريع اقتصادية يمثل نقطة ضوء فى ظلام حالك، وهذا الضوء فى حاجة إلى دعم ودفع إلى الامام لينتشل البلاد من وهدتها الاقتصادية التى كانت تعيشها، صحيح أن الحزب الاشتراكى المصرى عندما اعلن عن إنشائه رفع شعارات وطالب بمطالب من شأنها أن ترفع من شأن العامل وتدفع الحالة الاقتصادية إلى التقدم، ولكن هذا الحزب ومبادئه لم يلق قبولا جماهيريا لما حمله من أفكار ومبادىء تتعارض مع دين الأمة. وفى ذلك يقول مارسيل كولومب إن الحزب الاشتراكى المصرى أكد على تفكيره اللادينى «العلمانى» وذلك عندما طالب بفصل الإسلام عن الدولة وبمساواة الرجل والمرأة، وإن الحزب لم يخف تعاطفه مع البلشفية وأعرب عن أمنيته فى أن تعترف الحكومة المصرية بالنظام القائم فى موسكو(١).

ولاشك أن هذه المقولات التى تبناها الحزب الاشتراكى أفقدته الكثير من فعاليته وتقبله لدى جماهير الشعب المصرى مما أدى هذه الجماهير إلى ما يشبه رفض الحزب وما يتبناه من آراء وأفكار، ثم كان هناك الحزب الذى انبثق عن ثورة ١٩١٩ وهو حزب الوفد، وقد اهتم هذا الحزب بالاستقلال السياسى على طريقته أكثر من اهتمامه بالاستقلال الاقتصادى، فظل الحال كما هو عليه نظاماً رأسمالياً، إقطاع تتحكم من خلاله قلة تملك الكثير فى أغلبية لا تملك إلا القليل، بل ازدادت الحالة الاقتصادية

(١) مارسيل كولومب، تطور مصر ١٩٢٤ ـ ١٩٥٠، مرجع سابق، ص٢٢٤.

تدهوراً بسبب الكساد الكبير الذى حل بالعالم عام ١٩٢٩م والذى انعكس على الأوضاع فى مصر بطبيعة الحال، فساءت الأحوال الاقتصادية أكثر، وانخفض مستوى المعيشة، بسبب انخفاض أسعار المحاصيل الزراعية، وخاصة القطن(١).

ومعلوم أن مصر تحصل على حاجتها من المواد التامة الصنع نظير ما تصدره من الأقطان، فإذا هبط سعر هذا المحصول دون أن يقابل ذلك زيادة الكمية المطلوبة منه أو انخفاض أثمان المصنوعات بنفس النسبة تعذرت المحافظة على معيار المعيشة، وهذا كله حدث أثناء فترة الكساد العالمية(٢).

تأزم الوضع الاقتصادى ورد الفعل:

وقد كان لهذا الوضع الاقتصادى فى مصر تأثير فى نشأة وتطور جماعة الإخوان المسلمين(٣). والحقيقة أن الشيخ البنا أدرك هذه القضية منذ وقت مبكر، خاصة فى بعدها المتعلق بالاحتلال والسيطرة الأجنبية على موارد البلاد، ولنتذكر أنه فى حياته الوظيفية عندما ذهب إلى مدينة الإسماعيلية سنة ١٩٢٧، أثارته مظاهر تلك السيطرة الأجنبية على كل مرافق الحياة فى المدينة، وخاصة مرافقها الاقتصادية، وكانت شركة قناة السويس بمكاتبها ومبانيها الفخمة رمزا صارخا للاحتلال الاقتصادى، إلى جانب معسكرات الجيش البريطانى التى كانت مع الأخرى رمزاً صارخاً للاحتلال العسكرى(٤).

وعلى صفحات مجلة الإخوان المسلمين الأسبوعية- وهى أول مجلة تصدرها الجماعة عام ١٩٣٣- كتب حسن البنا يحث المصريين على مقاطعة «الخواجات» فى البيع والشراء وكافة المعاملات، ويدعو إلى تشجيع مشروعات أبناء الوطن، وفى هذا المقال المبكر دعا البنا إلى «مقاطعة أعداء الله.. وتشجيع إخواننا المسلمين، وألا ينفق

---

(١) لمزيد من التفاصيل أنظر: محمد عبد العزيز عجمية ومحمد محروس أسماعيل، التطور الاقتصادى، القاهرة، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٦٨، ص٣٢٣ وما بعدها.

(٢) راجع: راشد البراوى ومحمد حمزة عليش، *التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث*، مرجع سابق، ص٢١٤.

(٣) عثمان عبد المعز رسلان، التربية السياسية عند الإخوان المسلمين، مرجع سابق، ص١١٤، ١١٥.

(٤) إبراهيم البيومى غانم ، الفكر السياسى، مرجع سابق، ص٢٧٧.

أحدنا قرشا إلا وهو يعلم أنه سيذهب إلى مسلم ـ... فى مصلحة من مصالح الأمة، ولن يكيد الأعداء مثل قطع الأموال عنهم»(١).

ولاشك أن البنا فى ذلك قد أدرك فى هذا الوقت المبكر ضرورة التخلص من السيطرة الأجنبية على الاقتصاد الوطنى، وضرورة تشجيع المشروعات المحلية والصناعية المصرية تحقيقا لسياسة الاعتماد على الذات، والتنمية المستقلة، وقطعا للطريق أمام التغلغل الأجنبى الذى من شأنه احكام روابط التبعية بالخارج.. وانطلق البنا فى رؤيته فى هذا المجال، من اعتقاده الراسخ بأن الاحتلال الاقتصادى الممثل فى شركات الاحتكار الأجنبية هو السبب الرئيسى فى تدهور الأوضاع الاقتصادية فى مصر(٢).

ومن هنا فقد رأى حسن البنا أن الإصلاح الاقتصادى لمصر ينبغى أن يقوم على عنصرين هما:

١ ـ أن الاستقلال الاقتصادى هو أساس أى استقلال سياسى أصيل.

٢ ـ تحسين الأوضاع الاقتصادية بما يحقق نوعا من التأمين الاجتماعى والاقتصادى للجماهير المصرية الفقيرة ويسد الثغرات الموجودة فى البنيان الطبقى حتى يتم تجنب الفرقة الوطنية التى تنجم عن الصراع بين الطبقات(٣).

(١) حسن البنا، جريدة الإخوان المسلمين، العدد (١٥) السنة الأولى، ٣١ جمادى الأولى ١٣٥٣ ص١٠.
(٢) إبراهيم البيومى غانم، الفكر السياسى، مرجع سابق، ص٢٧٨.
(٣) ريتشارد ميتشل، أيديولوجية جماعة الإخوان المسلمين، جـ٢ ترجمة منى أنيس وعبد السلام رضوان، القاهرة مكتبة مدبولى، بدون تاريخ، ص٢٢٧.

الخاتمة

انتهت فصول الكتاب، وكل فصل منها، كان بمثابة عامل، بل مجموعة، من العوامل الهامة التى أدت إلى ظهور الصحافة الإسلامية، وقد اتضح لنا بجلاء كيف أن الواقع السياسى الذى عاشته بلادنا دفع الغيورين من أبناء هذا الوطن إلى أن يصدروا الصحف والمجلات التى تندد بالاحتلال الانجليزى، وتكشف للرأى العام مخاطره وجرائمه ورأينا أيضا، أنه عندما انحسر التيار الإسلامى السياسى، قامت على أثره حركة الإخوان المسلمين، وذلك بسنوات قليلة، تنادى تلك الحركة بشمولية الإسلام، بمعنى أنه دين ينظم علاقة العبد بالرب، وسياسة تنظم علاقة الحاكم بالمحكوم، أى أن الإسلام، ليس عقيدة فحسب، بل هو عقيدة وشريعة، يحتكم إليها المجتمع بأفراده وجماعاته فى كل شأن وفى كل أمر، من شئون وأمور الحياة جميعا.

ولذلك رأينا فى خلال الفترة من ١٩٣٣ وحتى ١٩٥٤، العديد من الصحف والمجلات الإسلامية التى أصدرتها حركة الإخوان المسلمين، تعبر عن أهدافها وتدعو إلى مبادئها، وتدافع عن قضاياها.(١)

ولاشك أيضا فى أن الظروف الثقافية والفكرية التى مرت بها الأمة المسلمة فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كانت من أكبر الدوافع التى أدت إلى ظهور صحافة إسلامية، تنادى بالفكرة الإسلامية، وترد على الأفكار والثقافات الوافدة، وتفند الآراء والمذاهب التغريبية والشيوعية التى ظهرت من تلك الآونة الخطيرة من حياة الأمة، وكذلك كانت الظروف الاجتماعية، وتحلل المجتمع من بعض قيمة وعاداته وتقاليده الإسلامية من أكبر العوامل التى ساعدت على ظهور صحافة إسلامية، تحارب الطبقية وتدعو إلى المساواة. وتنادى بالعدالة الاجتماعية، وتعمل على المحافظة على قيم الأمة ومثلها، وعلى صدر صفحات الصحافة عامة والصحافة الإسلامية خاصة، انفجرت قضية تحرير المرأة، وقد اختلفت فى شأنها الآراء والاتجاهات والتيارات، وكان لكل

---

(١) راجع بالتفصيل: شعيب الغباشى ، التحرير الصحفى فى الصحافة الإخوان المسلمين، ودراسة تحليلية، الفترة من يونيو ١٩٣٣ حتى أغسطس ١٩٥٤، دكتوراة، غير منشورة . كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالقاهرة، ١٩٩٦.

وجهة هو موليها، فأنصار التيار الإسلامي منهم من ينادى بتعليم المرأة وإعطائها حقوقها، في تحشم وتأدب في غير تبذل ومنهم من ينادى بالمحافظة على القديم والذى كان عليه المجتمع حينئذ. أما التيار التغريبي، فهو ينادى بأن تعيش المرأة المسلمة على طريقة المرأة الأوروبية، غير عابئ بتعاليم الإسلام .

وهكذا رأينا أن الواقع الاجتماعي فرض نفسه على الصحافة الإسلامية والأمر لا يقل أهمية بالنسبة للظروف الاقتصادية والأزمات الصناعية التي كان المجتمع الإسلامي يمر بها.. فقد كان هذا الواقع وتلك الظروف من أقوى الدعائم التي ساندت وساعدت على ظهور تيار إسلامي واع ومدرك لخطر الوضع القائم، الأمر الذى دفع الصحافة الإسلامية إلى تبني الحل الإسلامي للأوضاع الاقتصادية القائمة، وتنادى بأن الاستقلال الاقتصادى هو أساس الاستقلال السياسي، وهذا ما تنادى به الصحافة الإسلامية حتى يومنا هذا، إذ إن التحرر الاقتصادى والخروج من دائرة التبعية الاقتصادية، والاعتماد على النفس ومحاولة الاكتفاء الذاتي، وزيادة الانتاج هو المخرج الوحيد لأمتنا من أزمتها الراهنة، وما أشبه الليلة بالبارحة.!

وبعد فإن الباحث لا يزعم بهذه الدراسة أنه غطى جميع المباحث والمداخل التي يمكن أن يمهد بها لدراسة تاريخ الصحافة الإسلامية، وحسبه، أنه حاول أن يفعل شيئا غلب على ظنه إلى حد اليقين، أنه به سد ثغرة مهمة كان على الباحثين في مجال التأريخ للصحافة الإسلامية أن يسدوها، ويبقى في المجال متسع لدراسات وأبحاث أخرى، قد يقوم بها الباحث أو يشاركه فيها زملاء آخرون، الله أسأل، أن يجعل هذا العمل كله خالصا لوجهه الكريم ولا يجعل لأحد من الناس فيه شيئا. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أهم المراجع

١- أنور الجندى، تطور الصحافة فى مصر، مطبعة الرسالة، القاهرة، ط ١ ، ١٩٦٧.

٢- جاد طه، معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ط ١، ١٩٨٥.

٣- جمال الدين محمد سعيد، التطور الاقتصادى فى مصر منذ الكساد العالمى الكبير، لجنة البيان العربى، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٥٥.

٤- حسن البنا ، مجموعة الرسائل، دار الشهاب، القاهرة ، ط ١، بدون تاريخ.

٥- حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية، دار التوزيع والنشر الاسلامية، القاهرة ، ط١، ١٩٨٦.

٦- حسن فوزى، سعد زغلول الزعامة والزعيم، مكتبة مدبولى، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٦.

٧- خالد محمد نعيم، الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية فى مصر، ١٧٥٦ - ١٩٨٦ ، دراسة وثائقية المختار الإسلامى ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٨.

٨- راشد البراوى ومحمد حمزه عليش، التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث، مكتبة النهضة الحديثة، القاهرة، ط ٥ ، ١٩٥٤.

٩- رجاء النقاش ، المجلات الثقافية والتحديات المعاصرة ، سلسلة كتاب العربى ، الكويت رقم (٣) يوليو ١٩٨٤.

١٠- رؤوف عباس ، النظام الاجتماعى فى مصر فى ظل الملكيات الزراعية الكبيرة، دار الفكر الحديث القاهرة ، ط ١ ، ١٩٧٣.

١١- زكريا سليمان بيومى، الحزب الوطنى ودوره فى السياسة المصرية ، ١٩٠٧ - ١٩٥٣، الفاروقية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨١.

١٢- سامى عزيز، الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الانجليزى، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٦٨.

١٣- سعيد إسماعيل على ، الفكر التربوى العربى الحديث، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون، الكويت ، رقم (١١٣) ط ١ ، ١٩٨٧.

١٤- طارق البشرى ، الحركة السياسية فى مصر. ١٩٤٥ - ١٩٥٢، دار الشروق القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٨.
١٥- ————، الحركة السياسية فى مصر ، ١٩٥٤ - ١٩٥٢ ، دار الشروق القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٠.
١٦- ————، الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليو ١٩٥٢ - ١٩٧٠ ، كتاب الهلال العدد (٤٩٢) دار الهلال ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٠.
١٧- عبد العزيز على ، الثائر الصامت ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٧٨.
١٨- عبد الحى دياب، الإقطاع الفكرى وآثاره، دار الشعب ، القاهرة ، ط ١ ، بدون تاريخ.
١٩- عبد الرحمن الرافعى، مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال، دار المعارف القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٨٣.
٢٠ - ————، ثورة ١٩١٩ ، دار الشعب ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٦٨.
٢١- ———————— ، فى أعقاب ثورة ١٩١٩. دار المعارف، القاهرة، ط ٣ ، ١٩٨٦.

٢٢- ———— ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢، تاريخنا القومى فى سبع سنوات ٩٥٢ـ - ١٩٥٩، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٩.
٢٣- عبد الستار فتح الله سعيد، الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام، دار الأنصار ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٧٧ .
٢٤- عبد المنعم النمر ، إسلام لاشيوعية ، مكتبة غريب، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٧٦.
٢٥- ————، الثقافة الإسلامية بين الغزو والاستغزاء ، دار المعارف ، القاهرة، ط ١ ، ١٩٨٧.
٢٦- على عبد الرازق، الإسلام وأصول الحكم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ١ ١٩٩٣.
٢٧ - على الدين هلال ، التجديد فى الفكر السياسى المصرى الحديث، معهد البحوث والدراسات، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٧٥.

٢٨- على جريشة أساليب الغزو الفكرى للعالم الإسلامى، دار الاعتصام ، القاهرة ، ط ٣١ ، ١٩٧٩.

٢٩- عماد الدين خليل، البعثات التعليمية بين السلب والإيجاب، دار الاعتصام، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٠.

٣٠- عواطف عبد الرحمن، مصر وفلسطين، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب سلسلة عالم المعرفة ، الكويت، رقم (٢٦) ط ١ ، ١٩٨٥.

٣١- فؤاد مرسى، حول الفكرة العربية فى مصر، دراسة فى تاريخ الفكر السياسى المصرى المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٥.

٣٢- فهمى الشناوى، المؤامرة على إسقاط الخلافة العثمانية، المختار الإسلامى ، القاهرة ، ط ١ بدون تاريخ.

٣٣- قاسم أمين، تحرير المرأة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩٣.

٣٤ - لطيفة محمد سالم ، مصر فى الحرب العالمية الأولى ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ط ١ ، ١٩٨٤.

٣٥- محمد الغزالى ، ظلام من الغرب ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٧٩.

٣٦- محمد عمارة قاسم أمين وتحرير المرأج و دار الهلال ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٠.

٣٧- محمد حسنين هيكل، مذكرات فى السياسة المصرية ، دار المعارف ، القاهرة و ط ١ ، ١٩٧٧.

٣٨- محمد محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية فى الأداب المعاصر، مكتبة الآداب، لقاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٢.

٣٩ - محمد جلال كشك، ودخلت الخيل الأزهر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ١ ١٩٧٨.

٤٠ - محمد جابر الأنصارى ، تحولات الفكر والسياسة فى السرق العربى سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد رقم (٣٥) ط١ ، ١٩٨٠.